بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية

مجموعة البحوث التي ألقيت
في
ندوة الحضارة الاسلامية
في ذكرى الأستاذ الدكتور أحمد فكري
(١٦ - ٢٠ اكتوبر ١٩٧٦)

٢٠٠٠

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ شارع الدكتور مصطفى مشرفة
تليفاكس : ٤٨٣٩٤٧٢ إسكندرية

المؤثرات الاسلامية على الفن الرومانسكى
في أوروبا الغربية ، كما نراها فى أعمال الدكتور احمد فكرى

للدكتــور سعـد زغـلول عبـد الحمـيد

(بحث مقدم الى ندوة الحضارة الاسلامية التى تقيمها كلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى الفتــرة من ١٦/١٠/١٩٧٦ الى ٢٠/١٠/١٩٧٦ بمناسبة الذكرى السنوية الاولى لوفاة الدكتور احمد فكرى)

الاستاذ الراحــل :

باحث ملتزم ، ومعلم صاحب مدرسة :

جبل هوى فارتجت الدنيا له   فكانما ركبت جناحى طائر

هذا هو احساسى بفقد الاستاذ الدكتور احمد فكرى ، كما عبر عنه تاج الملوك ابن ايوب وهو يرثى اخاه بذلك البيت الذى اعتبره نقادنا القدامى من عيون ما قاله الشعراء فى المراسى والنوادب(١) • فلا شك أن دنيانا ـ دنيا العلوم والادب والفنون ـ قد اهتزت بفقد استاذنا الدكتور أحمد فكرى ، علم الفنون الاسلامية الشامخ ، فكان رحيله بمثابة زلزال عظيم هز كيان تلاميذه واحبائه •

فالدكتور احمد فكــرى كان طرازا نادرا من الاساتذة اصحاب المدارس والرسالات • ظهر ذلك منذ شبابه المبكر عندما اختار : المؤثرات الاسلامية على الفن المسيحى فى بعض مقاطعات وسط فرنسا ، موضوعا لرسالته للدكتوراه التى تقدم بها الى جامعة باريز سنة ١٩٣٤(٢) ، مع دراسة لمسجد القيروان

---

(١) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٥ ، ص ١٨٤ •

(٢) L'Art Roman du Puy, et les Influences Islamiques, Paris, 1934.
وقارن بحثه بعنوان : التاثيرات الفنية الاسلامية العربية على الفنون الاوروبية ، مجلة سومر ، بغداد ، المجلد ٢٣ سنة ١٩٦٧ ، ص ٦٧ ـ ٩٤ والاشكال

La Grand Mosquée de Kairouan, Paris, 1934.

الجامع(٣) الذي تعتبره مصدر وحي والهام الفنانين المسلمين في كل بلاد المغرب والاندلس. ومن هذا التذوق القومي العام انتقل الدكتور فكرى الى التخصص الوطني عندما اهتم بدراسة تاريخ مصر وآثارها الاسلامية ، وكانت الثمرة : تلك الاجزاء الثلاثة التي اخرجها من موسوعته الأثرية في مساجد القاهرة ومدارسها ، وهي : المدخل(٤) ، والعصر الفاطمي(٥) ، والعصر الايوبي(٦)٠ واذا كان الاجل المحتوم لم يسمح بظهور الجزئين الخاصين بالعصر المملوكي ، كما كان في تقدير استاذنا الراحل ، فالامل ان يواصل تلاميذه ومريدوه ــ وهم كثيرون ــ العمل في دراسة اثار القاهرة المملوكية ٠ كما نرجو أن يظهر الى النور ماكان قد انجزه الدكتور فكرى من دراسة لتاريخ قرطبة ومسجدها الجامع٠ وقرطبة وجامعها كانا عقله وفي باطن شعوره : الاخوان الاصغران للقيروان وجامع عقبة ، وهما اللذان استاثرا بكل حب للدكتور فكرى وملكا جوارحه ، فلم يضن بجهده وماله في سبيل اظهار ما يكنانه من كنوز الفن الاسلامي ، التي كان يكشف عما تحويه من الخبايا الدفينة ، مع زيادة تعمقه في البحث ، واستفاضة تامله في اماطة اللثام عما تحويه من السر ٠

هذا عن اتجاه الدكتور فكرى باحثا في التراث ، أما عن معلمنا فكان منفردا أيضا في استاذيته ٠ فلقد رأينا ــ نحن تلاميذه ــ فيه : الذكاء اللامع الى جانب سعة العلم ، والتواضع الجميل ممزوجا بالاعتداد بالنفس ، ورأينا فوق هذا وذاك كرما لا مزيد عليه ٠ ولا نقصد بالكرم الزائد : ذلك الذي يخرج بالجود عن حده المعهود ، بل نقصد تلك الخصلة المطلوبة في المعلم الموهوب الذي لا يبخل على تلاميذه بما لديه من العلم ٠ والذي لا يقصر ايضا في بذل طاقته من أجل شحذ قرائحهم لتقبله ، ودفع هممهم نحو الاستزادة من المعرفة، وفتح عقولهم وهم يقبلون على النظر في اسرار العلم وخفاياه ٠ وهو في سبيل

---

(٣) المسجد الجامع ــ بالقيروان ــ ، دار المعارف ، مصر ١٣٥٥ ــ ١٩٣٦٠

(٤) المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦١٠

(٥) مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ٢ ، العصر الفاطمي ، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥ ٠

(٦) مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ٣ ، العصر الايوبي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ٠

تحقيق هذه الاغراض المعنوية لا يبخل على تلاميذه بالكرم المادى • فهو يهديهم مما كان لديه من الكتب والابحاث ، من : تاليفه او من مكتبته الخاصة • وما زلت احتفظ ، باعزاز لا مزيد عليه ، بالنسخة الفاخرة من كتابه فى مسجد القيروان الجامع التى طبعها من حر ماله، والتى أهدانى اياها ـ بين من اهداهم ـ ونحن طلبة ندرس فى صحبته تاريخ جامع عقبة وعمارته ـ تحفة العمارة الاسلامية الباهرة ، التى أحبها الدكتور فكرى وحنى عليها ، وتفنن فى اظهار محاسنها ، كما يفعل الناس مع الاعزاء من افراد اسرهم •

والدكتور فكرى فى قاعة الدرس كان يعيد ذكرى حلقات العلم القديمة ، فى مدارس القاهرة ، وبغداد ، ودمشق ، واصفهان ، وغيرها من عواصم العروبة والاسلام • تلك المدارس التى احبها ، هى الاخرى، وخصها بدراساته وابحاثه • فتلاميذه هم أصحابه الذين يعرفهم فردا فردا ، ويفتح لهم قلبه ، ولا يضن على واحد بعلمه ورعايته ، لا يفرق فى ذلك بين من كان يتوسم فيهم النجابة، وغيرهم • فهو رقيق فى نقده ، سخى فى تقريظه ، كريم فى تقييم طلبته ، لا يتردد فى اجازة الجميع ، وفى منح النابهين منهم اعلى الدرجات • وعلى الجملة كان الاستاذ الذى يود الفلاح لجميع المجتهدين من طلبته ، ويراهم ـ كلهم ـ صالحين لمواصلة الدراسة والبحث • وهكذا كان من الطبيعى ان يتابع الدكتور فكرى أعمال تلاميذه الذين تهيات لهم فرصة مواصلة الدراسات العليا فى الخارج : فهو يراسلهم ، ويذهب للقائهم عندما تسنح له الفرصة فى السفر الى حيث يدرسون ـ وكانت الرحلة فى طلب العلم والترويح عن النفس احدى هواياته المحببة • فلا غرو اذن ان كان وتلاميذه اشبه بافراد اسرة واحدة ، تجمع بينهم الصحبة فى العلم ، ويزيد فى توادهم حب الدراسة والبحث •

منظم ممتاز ، وموهوب فى العمل العام :

والدكتور فكرى كان منظما من الطراز الممتاز : فحب النظام كان بعض سجاياه ، وكذلك حب التانق فى اخراج العمل • عرفنا ذلك ـ طلبة ـ فى قاعة الدرس ، وخبرناه ـ رفاقا ـ فى رئاسته لقسم التاريخ ، وجربناه فيه وهو يقود فريق العمل من اعضاء هيئة التدريس فى دير سانت كاترين بسيناء سنة

١٩٦٤،حيث شارك فى بعثة جامعة (متشجان) فيما كانت تقوم به من تسجيل ذخائر الدير العريق وكنوزه - من : المخطوطات ، والوثائق ، والايقونات. وفى سيناء لم يعتمد على ما كانت تقوم به - البعثة الامريكية بامكانياتها الهائلة -، بل قام هو الآخر بفريقه الصغير من شباب اعضاء هيئة التدريس بكلية الاداب ومن العاملين ، وبوسائله المحدودة ، بالرصد والتصوير . وعن هذا الطريق احتفظ لنا بتسجيلات ثمينة لبعض ذخائر الدير - لا نستطيع تقييمها الآن بعد أن قطعت احداث يونيه ١٩٦٧ ما بيننا وبين الدير حتى اليوم - فكان ذلك ثمرة نظر الدكتور فكرى البعيد ، وحصادا لنشاطه الـذى لا يعرف الكلل ، ولتفانيه فى العمل دون سأم أو ملل .

والدكتور فكرى لم يقتصر نشاطه على التدريس فى الجامعات المصرية ورئاسة اللجان العلمية ، ومراجعة الابحاث فى الحضارة الاسلامية والاثار ، والاشراف عليها ، والمحاضرة فى الجامعات الاوروبية والمعاهد العربية والامريكية ، بل مده الى خارج نطاق الجامعات ، بفضل طاقته التى لا تحد ومواهبه التى لا تعد ، الامر الذى سمح له بالعمل فى أكثر من مجال . اعتداده بنفسه ، وشغفه بالفنون الاسلامية ، ورغبته فى التجديد ، دفعته دفعا - وهو فى مقتبل حياته العملية - الى ترك التدريس بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة ثم أمانة مصلحة الآثار ، لكى يقوم بمشروع غريب على أهل العلم ، وان كان فى دائرة تخصصى الدكتور فكرى . فلقد فكر فى أحياء التراث الفنى الاسلامى ليس عن طريق البحث بين الآثار والمحاضرات فى قاعات الدرس ، بل بطريقة عملية واقعية ، فقام بانشاء معمل لصناعة الخزف على الطريقة القديمة ، فكأنه اراد ، بالعمل ، أن يعيد الى طرازنا العربى نبضه الذى توقف ، وان يرجع الى حياتنا اليومية شيئا من اصالتها التى بدانا نفقدها فى غمار انبهارنا بطريقة الحياة الاوربية المعاصرة .

واذا كان مشروع الاحياء هذا ، الصغير فى حجمه الكبير فى معناه . قد ضاع بين ما ضاع أثناء الحرب العالمية الثانية ، فقد كان من حسن طالع جامعة الاسكندرية أن حظيت كلية الاداب بها بالدكتور احمد فكرى استاذا مساعدا . سنة ١٩٤٤) ثم استاذا للحضارة الاسلامية (سنة ١٩٤٨) ، ورئيسا لقسم التاريخ (من سنة ١٩٥٤ الى سنة ١٩٦٤) .

وفى اطار الخدمة العامة والالتزام القومى ، شـارك الدكتور فكرى فى لجنة وضع الدستور سنة ١٩٥٥ ، كما قام بتمثيل مصرفى هيئة اليونسكو فيمـا بين سنة ١٩٥٦ وسنـــة ١٩٥٩ . وفى نهاية المطـاف قام ، بمناسبة دعوته كاستاذ زائر بجامعة متشجان سنة ١٩٦٤ ، بجولة علمية فى الولايات المتحدة الامريكية حيث حاضر فى جامعاتها فى موضوعات الحضارة الاسلامية والآثار . ثم انه عاد ليواصل رسالته العلمية بالتدريس فى جامعـة بغداد (١٩٦٥ ــ ١٩٦٩) ثم فى جامعة الجزائر (١٩٦٩ ــ ١٩٧٢) حيث اتسعت مدرسته ، وصار له تلاميذ جدد ومريدون .

واخيرا اختتم رسالته بالعودة الى كليته بالاسـكندرية (١٩٧٣ ــ ١٩٧٥) ، استاذا غير متفرغ ، وعضـوا فى مجلس الكلية . وخلال تلك الفترة واصل نشاطه المعتاد ، واقفا بين طلابه ، يقاوم الداء العضال مقاومة الابطال ، بمؤازرة الاستاذة الدكتورة درية فهمى ، شريكة حياته منذ سنـة ١٩٢٩م ورفيقة جهاده . وفى القاهرة ، بين اهله وعشيرته ، وفى غيبة تلاميذ الاسكندرية والمريدين ، وافاه الأجل المحتوم ، عشية يوم الجمعـة ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٧٥ .

وهكذا كان الدكتور احمد فكرى باحثا منهجيا ، واستـاذا تربويا ، ومنظما مرموقا ، وصاحب التزامات قومية سـامية ، وفى النهايـة صاحب مدرسة مصرية فى الآثار الاسلامية والحضارة ، ممتدة الاشعاع فى طول العالم العربى وعرضه . ومن كان مثل الدكتـور احمد فكرى فهـو حى لا يموت : بكتبه وابحاثه واعمـاله الانشائية ثم بتلاميذه واتباعه ومريديه . واذا كان ذلك من أغـراض ندوتنا هـــذه ، فلا شك أن القصد منها ــ الى جانب احياء ذكر الدكتور احمد فكرى كرائد من رواد احياء التراث ، هى مواصلة الطريق الذى سلكه فى النهوض بدراسة الحضارة الاسلامية وآثارها ، والعمل الجاد فى سبيل نشرها . وهذا ما دفعنى الى اعادة النظر فى بعض أعمال الدكتور احمد فكرى ، واختيار موضوع المؤثرات الاســلامية على الفن الرومانسكى فى اوروبا الغربية ، كما نراها فى تلك الاعمال .

التمهـــــيد :

موضوع المؤثرات الاسلامية على الفن المسيحى فى أوربا من موضوعات الدراسات الاثرية التى شدت انتباه كثير من الباحثين المحدثين ، لما فيهـــا من الجدة والطرافة. فهو يدخل - بشكل عام - فى نطاق الدراسات المقارنة التى تستهدف بيان التاثير المتبادل بين حضارات الشعوب . والحقيقة انه من الطريف أن نعرف اى حضارات العـــالم اقـــدم من غيرها ، وكيف اقتبس جماعة يرجع الفضل فى عنـــاصر تراثه ، والى اى جمـــاعة يرجع الفضـل فى ابتكار ما نعم به الناس من اسباب الحياة الراقية على مر العصور ، ابتداء من : اشعال النار ، واستخدام العجلة ، واستئناس الحيــوان في العصور السحيقة ، وانتهاء بابتكار الآلات الذاتية الحركة ثم توليد الكهرباء وما تبعها من القوى ، ثم تطويع كل ذلك للخدمة فى شتى مجالات النشاط الانسانى فى عصرنا الحديث ، وما بين ذلك : مما عرفه الناس فى العصور القديمة والوسطى . ولكن تلك الدراسة المقارنة تصبح شائكة بعض الشىء عنـــدما تصل الى نتائج سريعة تنسب الفضل الى غير اهله او تنكره على اصحابه . ويصبح الامر اكثر خطورة اذا لم يكن الوصول الى الحقيقة هـو رائد البحث، فينساق الدارس وراء الهوى او الغرض ، سواء كان : عصبيا او دينيا أو سياسيا او مزاجيا شخصيا، أو غير ذلك من الاسباب الانانية..

وفى هذا الاطار لم يكن من الغريب أن يتنازع العلماء المحدثون من عرب واوربيين فى تقدير حضـــارتنـــا الاسلاميـــة . فهم ما بين : منصف يشـــد باصالتها ، ويعترف بكفاية العرب وفضل الإسلام ، ومغرض : ينكر كل ذلك او بعضه . والجاحدون ينعون على العرب ، أصحاب تلك الحضارة ، أنهم لم يكونوا فى الاصل اهل مدنية او علم او ثقافة ، وينسبون الى الاســـلام، الذى أتى مكملا لليهودية والمسيحية ، انه لم يضف من الجديد كثيرا الى هاتين الديانتين الكبيرتين ، وهم فى آخر الامر يفرقون بين عناصر الحضارة الاسلامية ، وينسبون كل عنصر منها الى قطـر من الاقطار او شعـــب من

الشعوب ، فيقولون : هـذا يونانى ، وذاك فارسى ، والثالث عراقى أو شامى أو مصرى ، الى غير ذلك ٠

والحقيقة انه مع التسليم بان الحضارة الاسلامية اخذت الكثير من تراث الشعوب ذات الحضارة الراقية ، التى دخلت فى اطار الدولة العربية أو التى كانت لها علاقات قوية بها ، فقد اصبح من المسلم به أن العرب الـــذين حملوا رسالة الاسلام فى مشارق الارض ومغاربها لم يكونوا بدوا مفـلسين ، بل كان منهم أهل القرى والمدن ، وكان منهم اصحاب حضارة عريقة وحمـــلة تراث أصيل ، مثل : عرب اليمن ـ مادة العروبة ـ وعرب العـــراق والشـــام ، فضلا عن عرب الحجاز ٠ اما عن الاسلام الذى تميز بأنه عقيدة وشريعة وتنظيم اجتماعى ، فكان البوتقة التى صهر فيها العرب تراثهم وما نقلوه من غـــيرهم، لكى يخرجوا من كل ذلك حضارتهم الجديدة ، التى سخروها لخـــدمة دينهم، بعد أن وضعوا فيها خلاصة تجاربهم ، ونفثوا فيها من روحهم ، وعبروا بها عن ابداع عبقريتهم٠ وهكذا خرجت حضارة العرب نسيج وحدها ، بعـد أن صارت سداتها العروبة ، ولحمتها الاسلام ٠

واذا كان الكثير من تراثنا الاسلامى هذا ، قد ضاع فى غمرة الصراعات السياسية ، والنزاعات المذهبية ، والاضطرابات الاجتماعية ، الى جـــانب عوادى الطبيعة والزمن ، فان ما بقى منه ، وهـــو كثير ، مازال يشهد لتلك الحضارة بطول الباع ، وما كان لها من فضل على مختلف الامم والبقاع ٠ واذا كان القسم المعنوى منها دفين بطون الكتب والمخطوطات ، يعتنى به اصحـاب الدراســات الانسانية ، وتاريخ العـــلوم ، فان القسم المادى منها ممثلا فى : المساجد والقلاع وغيرها من الآثار ، ما زال شامخ الراس ، رافع الهام ، يثـير الزهو فى نفوس اصحابه ، ويبعث البهجة والاعجاب فى قلوب زواره ، ويشد اليه الدارسين ، من الهواة والمتخصصين ، من عرب واوروبيين ٠ وهكذا لـم يكن من الغريب ان ينجذب الدكتور احمد فكرى نحو دراسة المؤثرات الاسلامية على الفن المسيحى المعروف بالرومانسكى فى فرنسا ، فيجعله موضوعا لرسالته الرئيسية للدكتوراه ، ويجعل دراسة جامع القيروان موضوع رسالته الثانوية٠ ومنذ ذلك الوقت ـ أى منذ اكثر من اربعين سنة ـ ظل هذا الموضوع مستأثرا باهتمام الدكتور فكرى ٠ ظهر ذلك فى موسوعته ٠ فى : مساجـد القـــاهرة

ومدارسها ، وخاصة فى المدخل ، وفى الجزء الخاص بالفاطميين • وكانت خاتمة ابحاثه فيه : ذلك البحث الذى نشر فى مجلة سومر سنة ١٩٦٧ (المجلد ٢٣) تحت عنوان : التاثيرات الاسلامية العربية على الفنون الاوروبية • وفى هذا البحث الاخير عدل الدكتور فكرى ــ وهو الامر الطبيعى ــ بعض آرائه التى سجلها فى دراسته لآثار البوى ، كما اضاف اضــــافات جديدة عن التاثيرات الاسلامية فى الفن القوطى ، بل وفى فن عصر النهضة والعصر الحديث •

وأنا اذ أعرض لبعض اعمال الدكتور فكرى ، فى هذا المجال ، وانـــا أتصور انني أعرف بها فى ندوتنا هذه ، أخشى ان اكون كمن « حمل التمر الى هجر » ، كما يقال ــ فهى غنية عن التعريف •

ما بين الفن الاسلامى والفن الرومانسكى المسيحى .

يتطلب موضوع المؤثرات الاســـلامية فى الفن الرومانسكى فى وسط فرنسا(١) دراية بكل من الفـــن الرومـــانسكى فى فرنســـا والفن الاسلامى ، على وجه العموم ، وبخاصة فى المغرب والاندلس ، وهو ما كان الدكتور فكرى مؤهلا له بفضل دراسته فى مرحلـة الليسانس فى جرينوبل وباريز ثم فى مدرسة اللوفر ، قبل أن يبدأ فى دراسة كل من جامعى القيروان وقرطبة •

والفن الرومانسكى هو الفن المسيحى الـــذى يؤرخ له من نهاية القرن العاشر الميلادى الى القرن الثانى عشر ، قبل ان يتطور الى الفن القوطى • والاسم منسوب ــ مثل اللغــة الرومانسكية ــ الى الرومان : أمـــا لاقتباساته من الفن الرومانى (٢) واما للــدور الذى قامت به ايطاليا فيما ســمى بالفن

---

(١) كلمة «الرومانسكى» هى التسمية الانجليزية لهذا الفن ، وهى أوفق بالنسبة للغة العربية من التسمية الفرنسية ، وهى الفـــن «الرومان» (Roman) التى قد تثير اللبس لتشابهها مع الفن «الروماتى» القديم• وهذا ما اخذ به الدكتور فكرى ــ انظر مسجد القيروان،ص١٤١ ، هـ١•

(٢) انظر الفن الرومانسكى ، فى مجمـــــوعة قواعد الطراز (بالفرنسية (La Grammaire des Styles) ، باريز ١٩٢٧ ، ص ٦ ، حيث تتمثل هذه الاقتباسات فى القبة الاسطوانية المتداخلة ــ (Voûte d'arêtes) ، والقبة نصف الكـــروية والتخطيط المعروف بالبازيليكى ، ذى البهو الواسع والرواقين الجانبيين • ولو انه يجب الاشارة الى ان هذه =

الرومانسكى المبكر ، ابتداء من مطلع القرن العاشر ، أو نسبة الى فن مدينة روما نفسها الذى ازدهر فى القرن الثانى عشر (٢) ٠

واهم مميزات الطــراز الرومانسكى رغـم ما فيـه من الاقتباســات والتركيب ، هى :

١ ــ التخطيط البازيليكى (الملكى أو القيصرى) ، الممثل فى : البهو الواسع والرواقين الجانبيين ٠

٢ ــ تنوع الوجهات وشكل البوابات التى تستخدم فيها العقود على أعمدة صغيرة ٠

٣ ــ الاضاءة ثانوية وعادة غير كافية ، مما دعا البنائين الى أخذ الاضاءة المباشرة من البهو عن طريق ابتكارات جريئة ٠

٤ ــ فيما يتعلق بعناصر البناء يلاحظ : كثرة استخــدام العقد المقـــوس (نصف دائــرة) ، والعقــود المزدوجة ، والمتضــاعفة ، والمدببة ، والدعامات من اجل مقاومة ضغط القبــة على الحيطــان المتوازية ٠

٥ ــ وفيما يتعلق ببناء القبة : استخــدمت طريقتان للانتقال من الشكل المربع الى الشكل الدائرى ، همــا :

(أ) ــ النقلة الى الشكل المثمن عن طريق الجوفة المعقودة ، الصدفية الشكل ٠ وهى نصف قبة مخروطية ، فى كل ركن من أركان المربع ٠

(ب) ــ النقلة المباشرة الى شكل الدائرة عن طريق استخدام المقرنص ،

= الاقتباسات تعد قليلة اذا ما قيست بما اخذه الرومانسيكى من الفن الشرقى ، وهو البيزنطى فى عصره الذهبى فى مصر والشام وخاصــة اسيا الصغرى وارمينيا ٠

(٢) انظر ليثابى (Lethaby) ، فن العصر الوسيط : من سلام الكنيسة الى مطلع عصر النهضة (بالانجليزية) ، ١٩٤٩ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ٠

وهو المثلث المجوف المقلوب فى زوايا العقود التى تصل بين الأعمدة الأربعة او الدعامات (٤) ٠

٦ ـ أما عن عناصر الزخرفة ، فهى متنوعة ، ما بين : اشكال هندسية ، وافاريز منكسرة وحلزونية وصرر أو واردات ذوات أوراق تتراوح ما بين : ورقات اربعة وثمانية ٠ وفى تلك العناصر الزخرفية تظهر المؤثرات المتنوعة من : غالية ، ورومانية ، وبيزنطية ٠ والمؤثرات الاسلامية تظهر فيها بشكل اوضح (٥) ٠

والحقيقة انه على عكس ما كان يظن من ان عناصر الزخرفة فى الفن

---

(٤) نرى انه ما زال من الصعب العثور على مصطلحات عربية مستقرة للتعبير عن عناصر الفن الاسلامى وغيره : المعمارية منها والزخرفيه ٠ وهنا لا بد لنا من الاشادة بمجهودات الدكتور فكرى فى هذا المجال ، فلقد انتهى به البحث والتامل الى استنباط مصطلحات عربية جديدة لعدد كبير من العناصر المعمارية ، هى التى سجلها فى الجزء الخاص بالفاطميين من موسوعته ٠ واهمها فى نظرنا مسمياته لانواع العقود، مثل : مقوس ، ومدبب ، ومطول ، ومنفرج(فارسي) ، ومنفوخ ، وأحدب (مدبب منفوخ) الى العقود المتتابعة ، والمزدوجة ٠ (انظر مساجد القاهرة ، جـ٢ ، ص ١٥٤ ـ ١٥٨ ٠)
واصطلاح الجوفة المعقودة الذى نستخدمه هنا هو ترجمة لكلمة « ترومب Trompe» بالفرنسية التى ترجمها الدكتور فكرى فى مسجد القيروان بـ«الجوفة» بينما ترجم كلمة « بندانتيف Pendentif» التى تعبر عن الجزء الكروى الشكل بين زوايا العقود التى تحمل القبة ، بالمقرنص ، ولو انه عاد واستخدم كلمة المقرنص المعقود للعنصرين المعماريين جميعا ٠ ثم انه استخدم كلمة الـ «طاق» و الـ «طاقة» (العصر الفاطمى ، ١٥٥) للتعبير عن بعض هذه المجوفات، أو الكوات (جمع : كوة التى استخدمها د/ عبد العزيز مرزوق فى ترجمة كلمة «نيش الفرنسية» لتعبر عن اصلاح « ترومب Trompe » اى الجوفة المعقودة ـ انظر كتابه : بين الاثار الاسلامية ، ط ١٩٥٣، ص ٦٩ حيث الاشارة ايضا الى ان كلمة المقرنص ربما كانت تحريفا للكلمة «كورنيس» اليونانية ، بمعنى الافريز) ولقد رأينا أن نحتفظ بكلمة الجوفة ـ التى صححها الدكتور فكرى بخط يده فى نسخته الخاصة من «جامع القيروان» الى كلمة تجويف ـ الى جانب كلمة المقرنص حتى تظل التفرقة واضحة بين العنصرين ، كما هو الحال فى اللغة الفرنسية ٠

(٥) انظر الفن الرومانسكى ، مجموعة «قواعد الطراز» ، بالفرنسية ، ص ٧ ـ ١٦ ٠

الاسلامى ، من : المقرنص ، والمورق ، والموشح (الارابسك) ، والمتشابك ، الى جانب الزخرفة الهندسية والزهرية ، والنقوش الخطية الكوفية ، هى وحدها التى كان لها أثرها على الفن المسيحى ، ثبت انه كان لعناصر العمارة فى الفن الاسلامى ، هى الاخرى ، أثرها فى كنائس الطراز الرومانسكى - وكذلك القوطى - فى غرب أوروبا ، وخاصة على طريق الحج التى شنت ياقب (سان جان دى كومبو ستل) فى شمال غرب اسبانيا • ففى بناء الكنائس والأديرة (الكلونية خاصة) على طول هذا الطريق استخدمت العناصر الاسلامية ، من : العقود المتجاوزة (نعل الفرس) ، والمدببة ، كما ظهرت فى القباب انواع الجوفات الصدفية والمقرنصات المخروطية ، وان كان بعض هذه العناصر استخدم لاغراض زخرفية ، مثل : العقود الصغيرة على الأعمدة الرقيقة ، التى تزين الابواب والشبابيك ، وخاصة المزدوجة والثلاثية الحنايا والمفصصة (٦) •

واذا كان فضل الكشف عن المؤثرات العربية فى الفنون المسيحية فى أوروبا الغربية يرجع الى الرواد الاوائل من الباحثين فى الفنون الأوروبية أو الاسلامية ، مثل : اميل مال (Emile Male) ، وهوارد بتلر (Howard Butler) ، وكرسويل (Creswell) ، وجوميز موريتو (Goméz - Moreno) ، وهو تكير (Louis Hautecaeur) ، وكوتشمان (Kutschmann) ، ولامبير (Elie Lambert) ، ومارسيه (George Marçais) ، وهنرى مارتان (H. Martin) ، وغيرهم (٧) - بصرف النظر عن مواقفهم التفصيلية - فقد كان للدكتور احمد فكرى - من الباحثين المصريين - فضل السبق فى مواكبة هذا الركب من الخالدين ، اذ كان رائد علماء العرب فى تاصيل الحضارة العربية الاسلامية ، واثبات فضلها على الحضارة الاوروبية فى العصر الوسيط ، فى مجال العمارة والفنون التشكيلية •

---

(٦) انظر الفن الاسلامى ، مجموعة قواعد الطراز ، ص ٧ - ١٢ ، الفن الرومانسكى ، مجموعة قواعد الطراز ، ص ١٦ •

(٧) انظر ثبت المصادرة فى كتاب احمد فكرى : الفن الرومانسكى فى البوى والمؤثرات الاسلامية (بالفرنسية) ، ص ٢٨٧ - ٣٠٣ •

المؤثرات الاسلامية فى فن البوى الرومانسكى :

الفن الرومانسكى فى البوى :

كان من الطبيعى ان يبدا الدكتور احمد فكرى دراسته المنهجية ، وهو بصدد بيان المؤثرات الاسلامية ، فى فن بلدة البوى فى وسط فرنسا ، بالتعريف بهذا الطراز من الفن الرومانسكى ، المتمثل بصفة خاصة فى كتدرائية البلدة الشهيرة (٨) فناقش تاريخ بناء الكتدرائية التى يرجع بناؤها فى القرن العاشر ، وتتبع اعمال التوسعة والاصلاح والتجديد فيها ، الى القرن الثامن عشر (٩) ، وخلص الى ان الأجزاء التى بقيت منها على قدمها ، سالمة من التغيير هى : البلاطات الثالثة والرابعة ، وما يكسوها من القباب والقبوات (١٠) ·

أما عن تخطيط الكتدرائية ، فهو من النوع البازيليكى ، اذ تتكون من بهو رئيسى واسع تحف مجنبتان اقل اتساعا ، وفى الامام يوجد الذراعان (ترانسبت transept يتقدمهما على امتداد البهو الرئيسى المحراب الفسيح Choeur ، ويحيط به المطاف (dé ambulatoirc) · ومع أن الكتدرائية الحالية تحوى ٦ بلاطات ، فلقد اتضح من تحليل البلاطتين الرابعة والخامسة ان الدعامات بينهما مكونة من كتلتين معماريتين منفصلتين ، مما يحدد موضع الحائط الذى كانت تنتهى عنده الكنيسة القديمة ، وهذا ما يظهر فى الواجهتين الشمالية والجنوبية ، عند تلاقى البلاطتين ، حيث يظهر نوعان من البناء (١١) ·

ومن ملاحظات الدكتور فكرى بالنسبة لمظهر الكتدرائية ، قرر انه

---

(٨) ويلحق بالكتدرائية كنيسة ميشيل ديجويه ، وكنيسة سان كلير الجنائزية الصغيرة انظر : الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ٣٣ ، ٣٩ ·

(٩) نفس المرجع ، ص ٢٤ ــ ٢٥

(١٠) نفس المرجع ، ص ٢٧

(١١) نفس المرجع ، ص ٤٢ ــ ٤٦ (والمقصود بالبلاطات هنا هى المربعات التى يتكون منها البهو) ·

لا ببسم بالميـــرات العامة للطراز الرومـــانسكى ى الشكل المحـــــدد المتناسق العظيم الكتلة . الواضح المعالم ، القوى الاعضاء • ورأى أن السمة الغالبه هى القوة مع الرشاقه وخاصه فى مبوات الاسقف(١٢)

وواجهة الكتدرائية تتكون من خمس طبقات وهى مغمورة بزخرف متنوع الالوان، من:العقود الصغيرة المتجاوره ، والفسيفساء ، والعقود الكبيره• وفى الواجهة ثلاثة مداخـــل تتقدمها « بوابات مسقفه Porches » ، عـلى واحـدة منها ، وهى بوابة فور (For) قبة من حجارة منجرة ، الوانها متبادلة بين الفاتح والغامق ، محمولة على اضلاع محدبة (ogives) : تعتبر أقدم نموذج معروف فى المنطقة (١٣) • واذا كان الاستاذ أميل مال يرى فى العقود المتوازية (راسيا) ، التى تزين تلك البوابة ، اثرا من آثار جامع قرطبة على كتدرائية البوى ، فان الدكتور فكرى يعلق على ذلك بان هذا العنصر زخرفى فى واجهة الكتدرائية بينما هو معمارى أصيل فى جامع قرطبة(١٤)

القباب والجوفات فى البوى :

توجد أقدم نماذج الجوفات فى كنيسة سان ميشيل ، حيث تظهر فى اركان المربع الذى يحمل القبة،ولكن فى شكل عنصر غير محدد الشكل اذ يختلط بناؤها ببنـــــاء القبـــة(١٥) • اما قبه البـلاط الرابع فى الكتدرائيه ، فيظهـر فيهـا التحول من الشكل المربع الى الشكل المثمن بطريقة تفصيلية واضحة ، بفضـــل الجوفات المعقودة الثمانية فى اركان المربع الاربعه وفى اعلى العقـود الاربعة، وهى تحمل كل ثقل القبة • والجوفه فى ركن المربع عبارة عن نصف قبة محور، قائمة على عمودين لطيفين • وطريقه البناء هذه تحقق ـ زيادة على التـــوازن بين الكتلة وعناصرها ـ الاضاءة المباشرة عن طريق البهو الرئيسى ، بفضـــل رفع قواعد العقود بالأعمدة الصغيرة، حيث أمكن عمل كثير من الفتحات(١٦)•

---

(١٢) نفس المرجع ، ص ٤٧
(١٣) نفس المرجع ، ص ٤٩ (لقد فضلنا استخدام كلمة قبة على«قبوة» التى يمكن ان تستخدم بمعنى «الجـوفة») •
(١٤) نفس المرجع ، ص ٥٠
(١٥) نفس المرجـع ص ٦٣ وشكل ٤١
(١٦) نفس المرجع ، ص ٦٧

ونظرا لاهمية قبـــــاب الاكتدرائية المختلفة ، من وجهات النظر المعمارية والوظيفية ، وبسبب اهمية الجوفة والمقرنص فى عمل القبة ، وجه الدكتور فكرى عنايته الى دراسة هذين العنصرين المعماريين فى الفن الرومانسكى ، وناقش مختلف الاراء التى قيلت فى هذا الشان ، وخرج بالنتائج الآتية :

١ ـ اخذت العمارة الرومانسكية الجوفة من المبانى الدائرية والمثمنة الشكل.

٢ ـ رغم استخدام المقرنص فان الجوفة كانت الدارجة فى اكثر الاحيان .

٣ ـ انتشرت الجوفة فى كل الاقاليم الفرنسية ، بينما ظل المقـــرنص تركة الاقاليم الجنوبية الغربية واقليم اللانجدوك الجنوبى .

٤ ـ المقرنص اكثر مناسبة للعمارة الرومانسكية ، وذلك ان المثلثات الكروية المخروطية الشكل (المقرنصة) تربط بين الدعامات الحاملة وبين القبة بطريقة تحقق وحدة البناء واستمراريته . وهذا ما لاتحققه الجوفات التى تظهر بشكل اضافى فى البناء ، اشبه بقطع الغيار .

٥ ـ هناك نوعان من الجوفات المعقودة والمقرنصات :

(أ) ـ المقرنص المخروطى (الصدفى الشكل) .

(ب) ـ الجوفة المقعرة (قعر الفرن ـ بالفرنسية) (١٧) .

وهو يلاحظ بعد ذلك ان كثير من الجوفات لها نفس التكوين المعمـــارى دون ان يكون لها نفس الوظيفة ، اى تحويل المربع والمستطيل الى مثمن او حمل القبة. وهو يعترض على تعريف الجوفة او المقرنص الذى يكتفى بالوصف ويغفل الوظيفة . ويؤيد رأيه هذا بعرض لنماذج متنوعة من الجوفات والمقرنصات المخروطية الشكل فى اقاليم اللوار العليا ، مما كانت تقـــوم بواحدة فقط من الوظيفتين : عمل المثمن او رفع القبة . ويعلل انتشار المقرنص المخروطى على حساب الجوفة المقعرة بسبب صعوبة بناء هذه الاخيرة لعدم استخدام العقـود فى بنائها(١٨) .

---

(١٧) نفس المرجـع ، ص ٧٩ ـ ٨٠

(١٨) نفس المرجـع ، ص ٨٣

وخلاصة هذا البحث أن جوفات البوى ومقرنصاتها لا تنتسب الى أى نوع من الانواع الرومانسكية ٠ فهذه الاخيرة تتكون من عنصر واحد ، هو نصف القبة بينما تتكون « طاقات » البوى من اربعة عناصر ، يعتبر جسم التجويف اقلها اهمية ــ اذ يمكن الاستغناء عنه بفضل العقد الرافع ٠ أما العنصران الآخران فهما : الافريز الذى يحيط بمربع الحيطان فوق العقود ، وافريز ثان اعلى الجوفات يحدد مولد القبة او بدايتها (١٩)٠

اثر المقرنص الاسلامى فى جوفات البوى وقبابها :

التنازع فى اصل الجوفة المعقودة : ونظرا لاهمية الجوفة كعنصر معمارى رئيسى فى قباب الطراز الرومانسكى اجتهد الاثريون ومؤرخو الفن فى العصور الوسطى فى البحث عن أصولها ، والبلاد صاحبة الفضل فى ابتكارها ٠ وكان من الطبيعى أن تختلف نتائج البحث تبعا لاختلاف المنهج ، بصرف النظر عن ميول الباحث او اتجاهاته الشخصية ٠ وهكذا تنازع ابتكار الجوفة والمقرنص عدد من البلاد على الوجه التالى

١ ــ ايــــــران :

(أ) ــ فى العصر الفرثي حيث وجد عدد من نماذج قديمة من القرن الـ ٥ او الـ ٧ ق٠م٠

(ب) ــ فى العصر الساسانى حيث وجدت نمــاذج فى فيروزاباد ، يؤرخ لها ما بين القرن الـ ٣ والـ ٧ للميلاد٠

٢ ــ الرومـــــان :

على اساس انهم الذين ابتكروا الجوفة ونشروها ٠ واقدم نموذج هو الموجود فى قوس النصر بمدينة تبسا بالجزائر ، ويرجع الى سنة ٢١٤م ــ وبسبب

---

(١٩) نفس المرجع ، ص ٨٦

مثل هذا الاقتباس ربما أطلق اسم « الرومانسكى »
على الطـــراز ٠

٣ ـ **ارمينيا ، والجزيرة (ميزوبوتاميا) وبلاد آشور :** حيث وجــدت
نماذج ، خاصة فى : نينوى وخورزاباد ، وهنـــاك
عرفها الفرس ، وعملوا على انتشارها ٠

٤ ـ **بلاد الشام (سوريا)** حيث وجدت نماذج فى : كلية ام الزيتون
(٢٨٢م) ، وفى شكا (قرن ٣م) (٢٠)٠

وكان للدكتور فكرى ملاحظاته على كل ذلك ٠ وفكرته الاساسية انه من الصعب معرفة بداية الجوفات المعقودة والمقرنصات لعدم وجود نماذج أصيلة تمثل البدايات الاولى لها ، وذلك بناء على الآتى :

١ ـ **فى الشام :** نظام الجوفات فى الكليبة اقرب الى المقرنص (الحجارة فى شكل هرم مقلوب) ، وهو النظام الذى عرف فى مصر من القرن ١٨ق٠م٠ ثم أن النماذج متطورة (الانتقال من الشكل المثمن الى الـ ١٦ والـ ٣٢ ، الى الدائرة) تماما ، مما يدعـــو الى البحث عن أصولها فى المشرق ، حيث يمكن ملاحظة تطورها والاشكـــال التى تسربت منها نحو الغرب(٢١)٠

٢ ـ **فى ايران والبلاد المجاورة :** يلاحظ ان الجوفات فى فيروزاباد ليست مستقـــلة بل تقـــوم جنبـــا الى جنب مع المقرنص ، كمـــا فى شروستان(٢٢)٠ ونفس الاسلوب موجود فى الجزيرة وفى الاخيضر ، وفى أرمينيا ، وجورجيا ٠ هذا ولو ان النقل أو تسلسل النماذج ليس اكيدا بسبب تنـــوع المـــادة (الطوب والحجر) وضرورات اقتصاديات البناء ٠

---

(٢٠) نفس المرجع ، ص ٩٦ ، وقارن مسجد القيروان ، ص ١٠٠ ـ ١٠٢
(٢١) نفس المرجع ، ص ٩٧ ـ ٩٩ ، وقـــارن ديولافوا ، تاريخ الفن العام ، اسبانيا والبرتغال (بالفرنسية) ، باريز ١٩١٣ ، الفصل الاول ص ١ ـ ٦٣ ٠
(٢٢) أنظر الفن الرومانسكى ، شكل ٨١ ، ص ١٠١

٣ ـ **فى جورجيا** : توجد نماذج للجوفة من القرن الـ ٧م ، وهى التى نجد مثالا لها فى الفن الرومانسكى ، فى : فرنسا وايطاليا واسبانيا فى القرن الـ ١٢م٠ وهو الامر الذى جعل الاستاذ الكتالونى بويجى كادافالش (Puigi Cadafalch) يخرج بنظرية هجرة الجوفة فى الطريق ، من : فارس الى بيزنطة الى ايطاليا الى فرنسا الجنوبية،وهى النظرية التى يشكك الدكتور فكرى فى صحتها(٢٢)٠

٤ ـ **فى بيزنطة** : يلاحظ أن الجوفات فى العمارة البيزنطية فى القرنين الـ١٠والـ١١(كما فى كنيسة القديس لوقا فى فوقيد « Phocide » والقديس نيقوميد فى اثينا) ، تعطى نفس الشكل ، وذات خصائص الجوفات الايرانية حيث تتجاوز الكوات والمقرنصات. كما فى شروستان (٤ جوفات فى اركان المربع و ٤ مقرنصات تعلو الحيطان)٠

٥ ـ **فى الشام** : توجد فى عمان جوفة قريبةالشبه من جوفةشروستان، ولكن مما يؤسف له انها الجوفة الوحيدة فى الشام من قبل الاسلام٠ اما الجوفات الاولى التى بناها المسلمون هناك فلم تصل الينا وما وصلنا من جوفات حلب ودمشق فانها ترجع الى اواخر القرن الـ ١٠ والـ ١١م(٢٤)٠

٦ ـ **اما فى مصر** فلا توجد جوفات من الفن الاسلامى المبكر ٠ واقدم ما عرف من الجوفات القبطية هى التى وجدت فى الشيخ عبادة بالمنيا (Antinoe) وقد هدمت ٠ وكان بناؤها فى القرن ٧ م على النسق الفارسى ، اذ شارك فيها المقرنص ، كما دخل العقد الرافع فى صميم البناء ٠ اما عن جوفات سوهاج فقد ثبت انها من القرن ١٣ م ٠ ففى الدير الابيض اتضح أن العقود الراسية الرافعة ليست لها وظيفة عضوية ، وكذلك الحال بالنسبة لجوفات الدير

---

(٢٣) نفس المرجع ، ص ١٠٤

(٢٤) نفس المرجع ، ص ١٠٤ ـ ١٠٦ ، ١٠٨

الاحمر حيث تمثل الاعمدة الصغيرة عناصر زخرفية(٢٥) ٠ امـــا القباب الاسلامية ، فاقدمها قبة الجيوشي وهي من اواخر القـــرن الحادى عشر الميلادى ، ثم قبة الازهر ، وهي من القرن الثانى عشر الميـــلادى(٢٦) ٠

التجديد الاسلامى فى الجوفة المعقودة والمقرنص :

هكذا يكون الدكتور فكرى قد طوف فى البلاد التى نسب اليها الباحثون قبله فضل ابتكار الجوفة (الكوة) أو المقرنص ، ومع انه لا ينكر ان المشرق هو مهد هذا العنصر المعمارى الاساسى فى بناء القبة ، فانه راى انه من الصعب تحديد كيفية نشاته ، بسبب افتقاد النماذج الاولية ، ثم لاختلاف مادة البناء، فضلا عن مسالة اقتصادياته ٠ وهو اذ رأى العلاقة بين جوفات المشرق ، سواء فى ايران ، أو ارمينيا والجزيرة والشام ، وبين الفن البيزنطى فى القرنين الـ ١٠ والـ ١١ ، وكذلك الفن الرومانسكى فى أوروبا الغـــربية ، فقد لاحظ ان جوفات بلدة البوى لا تشبه ايا من تلك النماذج التى عرضها ٠

وبناء على ذلك فقد شكك فى صحة نظرية الطريق الذى سلكته الجـوفة المعقودة من ايران الى فرنسا الجنوبية عبر بيزنطة وايطاليا ، وقرر ان الجـوفة دخلت الى الغرب المسيحى عن طريق آخر ، وانها تغيرت على طول ذلك الطريق بشكل كبير ، عبر البلاد الاسلامية ابتداء من الشام وانتهاء بالاندلس(٢٧) ٠

واذا كان الباحثون قد رأوا ان اول استخدام للجوفة المعقودة فى المبانى الاسلامية فى المشرق قد حدث على نفس الاسلوب الفارسى ، بقصر الاخيضر ، فى القرن الـ ٧ م أو القرن الـ ٨م ، حيث تجاورت الجوفة والمقرنص ، وان هذا الاسلوب لم يتطور على أيدى البنائين المسلمين الا فى القرن التاسع الميـلادى، فى دار الخلافة بسامرا ، حيث اصبحت الجوفة تامة الاتقان بعـد ان استقلت عن المقرنص وتحدد موضعها بافاريز توضح مولدها وبداية راسها ، فان الدكتور

---

(٢٥) نفس المرجع ، ص ١٠٦ ــ ١١٢
(٢٦) مسجد القيروان ، ص ١٠٢
(٢٧) انظر نفس المرجع ، ص ١٠٤

فكرى لفت الانظار الى مثال أقدم من نموذج سامرا ، هو المسجد الجـامع فى القـــيروان(٢٨) ٠

فهو يرى انه اذا كانت قبة محراب القيروان ، وهى أقدم قبـاب المسجد الحالية ، ترجع فى بنائها الى عهد زيادة الله الاغلبى سنة ٨٣٦ م ، فيمكن ان نجد فيها نموذج جرفات المسجد الأول ، او على الاقل المسجد الذى بنى عـلى عهد هشام ابن عبد الملك سنة ٧٢٤ م (١٠٥ هـ) ٠ وقرينته المادية على ذلك أن قباب المسجد الخمسة الأخرى ومنها قبة للاريحانة ، التى بنيت فى أواخر القرن الـ ١١ م واعيد بناؤها فى اواخر القرن الـ ١٣م انشئت على نفس نسـق قبة المحراب ٠ وهذه القباب توحى جميعها بطراز الجوفات المعقودة الأولى فى مبــانى الاســـلام(٢٩) ٠

ومما يرجح ايضا نظرية اشتقاق قبة المحراب الاغلبية من نموذج اقـدم ، وجه الشبه بين بوابة الصحن من الجهة الغربية حيث احدى القبـــاب وبين بناء اجزاء أخرى من المسجد ترجع الى عصر الخليفة هشام بن عبد الملك ، كما أن مظهر الطابق الثانى لتلك البوابة يتصل اتصالا وثيقا بمظهر بعض طوابق المئـــذنة(٣٠) ٠

قبة محراب القيروان أقدم مثال :

وهكذا يقرر الدكتور احمد فكرى أن قبة محراب القيروان التى اشتقت من القبة التى ظهرت فى الجامع فى اوائل القرن الثامن الميلادى تعتبر أقـــدم نموذج للقباب المضلعة المرفوعة على طاقات وجوفات معقودة ٠ وبتحليل القبة يلاحظ ان الطـــاقية (الغطاء الكـــروى) يتكون من ٢٤ ضلعا ، تتفـــرع من القبة فى شكل شمسى مشع ٠ وهى تركب على اسطوانة دائرية بها ٢٤ طاقة

---

(٢٨) نفس المرجع ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ ، ١٠٤

(٢٩) والقباب الخمسة هى : قبة البهو ، مقابل قبة المحراب من جهة الصحن ، قبتان فى الجانبين الغربى والشرقى لبيت الصلاة ، أولاهما قبة للاريحانة ، من بناء الخليفة الحفصى أبو حفص سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤م) والرابعة فى اعلى مدخل المربع السابع من مجنبة الصحن الغربية ، ثم قبة المنارة (أنظر مسجد القيروان ، ص ٨٨) ٠

(٣٠) انظر مسجد القيروان ، ص ٩٦ ـ ٩٨ والاشكال (٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ؛

ونافذة راكبة على ٨ عقود صغيرة فى زوايا عقود الجوف تحتها ، هى التى تكون الدائرة • ويلى ذلك طبقة وسطى مثمنة : تتكون من ٨ عقود مقوسة (نصف دائرة) قائمة على ٨ أعمدة صغيرة اربعة منها تحيط بجوفات أو مقرنصات فى اركان المربع أسفلها ، واربعة تحيط بطاقات ذات عيون دائرية ، أعلى محاور عقود المربع(٣١)•

وهكذا تكونت القبة من ثلاثة طوابق :

١ ـ الطابق الاول يتكون من القناطر الاربعة ، تركبها العقود الثمانية للجوفات الاربعة فى الاركان والطاقات الاربعة فى المحاور • وتركب زوايا العقود الثمانية هذه ثمانية عقود صغيرة أخرى ، هى التى تحول المثمن الى الدائرة • فكأن الطابق الاول يتكون بدوره من ثلاث طبقات ، العنصر الرئيسى فيها هو العقد المقوس •

٢ ـ الطابق الثانى وهو عبارة عن اسطوانة دائرية مكونة من ٢٤ عقدا صغيرا محصورة بين اضلاع طاقية القبة الاربعة والعشرين ، منها ٨ (ثمان) نوافذ فى محاور العقود الثمانية تحتها ، وال ١٦ عقد الاخرى تحيط بمقرنصات لها شفاه مدرجة(٣٢)•

٣ ـ الطابق الثالث ، وهو الطاقية المكونة من ٢٤ ضلعا ، والتى يرتكز طرف كل عقد من عقودها على عمود صغير من الاعمدة الـ٢٤ القائمة بين نوافذ ومقرنصات اسطوانة الطابق الثانى(٣٣)•

وهكذا تكونت قبة محراب القيروان العتيقة من عقود وأعمدة وضلوع• وكل الاعمدة فيها والعقود صغيرة كانت أم كبيرة زخرفية ، بل تؤدى وظائف معمارية(٣٤)• وبذلك يقرر الدكتور فكرى : انه لأول مرة فى تاريخ العمارة

---

(٣١) مسجد القيروان ، ص ٩٠ •
(٣٢) شكل ٤٣ ، ص ٩٨ •
(٣٣) انظر مسجد القيروان ، ص ٩٠ ، وقارن الفن الرومانسكى فى البوى ص ١٠٦ ـ ١٠٧
(٣٤) مسجد القيروان ، ص ٩٤

يظهر الاستقلال بين عناصر القبة - من الطاقية - الى الجوفات والمقرنصات المعقودة . والفضل فى ذلك يرجع الى أن عقد الجوفة والمقرنص اصبح لأول مرة دعامه رافعة(٢٥) . وهو يرى أن قبة القيروان اصبحت النموذج للقباب التى بنيت على هذا الطراز ، فى البلاد التونسية والاندلس ، مثل : قبة الزيتونة فى تونس المدنية(٢٦). وقبة البهو التى بنيت سنة ٨٧٥ م فى جامع القيروان(٢٧) ، وقبة للاريحانة(٢٨) ، ثم فى الاندلس حيث ظهرت اشهر النماذج فى مسجد قرطبة (سنة ٦٦١ - ٩٦٥ م) (٢٩).

قرطبة توأمة القيروان وتاثيرها فى اوروبا :

ولا شك أن الدكتور فكرى كان محقا عندما رفض نظريات العلماء الذين سبقوه فى دراسة قباب جامع قرطبة (مثل : لامبير Lambert وتراس (Terrasse عندما رأوا ان تلك القباب العجيبة مثال لقباب ارمينية أو ايران او بيزنطة ، ولم يفطنوا الى مثال القيروان القريب مكانا وزمانا . اذ الحقيقة ان بناء قرطبة انطلق من مبدأ بناء القيروان . فقبة المحراب فى قرطبة تتفق فى تصميمها من قبة القيروان ، وان كانت قبة قرطبة تطورت كثيرا ، فتعددت الخطوط الهندسية بها ، وزاد تجزؤ الفضاء فيها ، واتخذت العقود والضلوع

---

(٢٥) الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ١٠٨ ، وما بعدها : حيث ينفى الدكتور أحمد فكرى أن يكون النموذج مستجلبا من كنائس الشام ، أو آسيا الصغرى والجزيرة وارمينيا ، كما فى قرة كليسا أو سفرى حصار حيث لا تقوم القبة فوق عقد الجوفة أو المقرنص مباشرة . اما عن الكنائس التى يقوم فيها عقد المقرنص بالدور الرئيسى على نسق الجوفات الاسلامية ، فانه نظرا لعدم وجود قبابها يرجح الدكتور فكرى أنها كانت تحمل قبابا خشبية ، كما أنه ليس من الضرورى أن تكون اصلا للنموذج الاسلامى .

(٢٦) مسجد القيروان ، ص٩٤ ، ولمزيد من التفصيلات عن قبة الزيتونة انظر بحث الدكتور فكرى ، مسجد الزيتونة الجامع ، الجمعية التاريخية المصرية ، مجلد ٤ ، عدد ٢ ، ١٩٥٢ ، ص ٨٤ وما بعدها ، وشكل ٦ .

(٢٧) الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ١٠٨ ، وشكل ٣٢ ، ٣٣ ، من كتاب جامع القيروان ، ص ٨٩ .

(٢٨) مسجد القيروان ، ص ٩٥ ، الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ١٠٧

(٢٩) الفن الرومانسكى ، ص ١١٣ ، شكل ٩٧ ، ص ١١٤ .

والاعمدة رسما أكثر وضوحا • اما المقرنصات المعقودة فتشكلت بمظهر زخرفى بحت بعد أن تقدمت عقودها على أجسامها : فى اشكال نصف دائرية ومدببة ومفصصة(٤٠)•

ولقد ظل تطور المقرنصات المقوسة مستمرا الى ان اختفت فى قبة مسجد تلمسان (٥٣٠ هـ / ١١٣٥م) ، حيث استعيض عنها ، لأول مرة في تاريخ الفن الاسلامى فىبلاد المغرب بمقرنصات هندسية(٤١)•

وبفضل تحليل قرطبة لعناصر القبة وعنايته برسم الاوتار المعقودة من متقاطعة ومتوازية بين الضلوع التى يستند اليها الهيكل فى سبيل تخفيف بناء القبة ، انفصلت القباب الوترية d'ogives عن المضلعة• وبناء على ذلك تكون القباب الوترية المعروفة فى كتدرائيات العصور الوسطى فى اوروبا اسلامية المنبع •

والحقيقة أن الدكتور فكرى كان يرى فى بحثه الاول فى عمـــارة البوى انه لا يظن أن القباب الوترية اسلامية المنبع ، على اساس ان الوظيفة هى المهمة عندما ننظر الى مسالة الاصول(٤٢)• ولكنه لما اصبح من المتعـارف عليه أن القبة الوترية ـ التى تقوم اساسا على العقد المدبب او الاحدب الاسلامى المنبع ـ اسلامية أصلا ، عدل من وجهة نظره تلك ، وقرر ان القبـــة الـــوترية المستخـدمة فى الطراز القوطى نابعة من القبة الاسلامية المضلعة التى اقـامها مهندس جامع قرطبة(٤٣)•

---

(٤٠) مسجد القيروان ، ص ١٠٤ ، الرومانسكى ، ص ١١١ ـ ١١٤ •

(٤١) مسجد القيروان ، ص ١٠٤ ، وشكل (٩٦) ص ١١٤ من الفن الرومانسكى فى البوى •

(٤٢) انظر الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ١١٥ وهامش ١

(٤٣) انظر التاثيرات الفنية الاسلامية •• ، سومر ، ١٩٦٧ ، عدد ٢٣ ، ص٧٦، حيث يرجع الفضل فعلا الى مهندس قرطبة الذى استخـدم فى بناء القبة الاوتار أو «الكمرات» المعقودة ، فمدها بين الاضلاع المتقابلة من اضلاع المربع ، وجعل من تلاقى هذه الأوتار وتقاطعها هيكلا متماسك الاطراف ، فاصبحت قبة قرطبة ـ مظهرا وتكوينا ـ أقرب الى القبـــة الوترية فى كنـــائس اسبانيا وفرنسا القوطية ، بل وانجلترا •

==

هذا ولو أن الدكتور فكرى ظل متحفظا فيما يراه الباحثون من تأثير الجامع الطولونى فى القاهرة على العمائر القوطية فى فرنسا وانجلترا ـ بفضل دعاماته الضخمة التى ترفع العقود المدببة المنفوخة العالية ـ اذ اشار الى ان الامر ما زال يستحق المزيد من البحث(٤٤) .

وفكرة أن تكون القبة الوترية اسلامية المنبع لا تقلل من قيمة عمل الفنان المسيحى ، كما ان فكرة تكون الجوفات المعقودة ، أو القباب الاسلامية ايرانية الاصل أو شامية بيزنطية ، لا تقلل هى الاخرى من شأن الفنان المسلم . فالمهندس المسلم عندما أخذ عنصرا معماريا ، مثل : الجوفة المعقودة ، كان يعبر عن الروح التحليلية لجنسه : فشكلها فى هيئة اخرى ، اعطتها شخصية قوية حتى انها فقدت ذكريات اصلها الاول .

وكذلك فعل المهندسون المسيحيون ، عندما اقتبسوا الجوفة المعقودة من الفن الاسلامى ، فغيروا شكلها واعادوا لها وظيفتها الاولى .

وهكذا ظهرت فى الدير الابيض (١٢٠٢ ـ ١٢٥٩م) بسوهاج الجوفة فى شكلها القيروانى ، ولكن بعد أن اختفى عقد الرفع ، ولم يعد للاعمدة الصغيرة الا دور زخرفى(٤٥) . واذا استثنينا بلرم فى صقلية حيث ظهرت الجوفة المعقودة (فى القرن الـ ١٢م ، فى كنيستى سان جان ديزارميت ، وسان كاتلدو) متوجة بعقد الرفع ذى الافريزين أو الثلاثة ، وهى تعيد طراز باب

= وعن هذا الطريق اشاد بما يمكن أن يكون للاوتار المعقودة الاسلامية من الفضل على العمارة العالمية المعاصرة التى تستخدم الاوتار الاسمنتية المسلحة (الباطون béton) .

ـ نفس المرجع ، ص ٨٧ . وقارن مانويل جوميث مورينو ترجمة لطفى عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم ، ص ٠٠، (عن العقود المتقاطعة فى جامع قرطبة ، ص ١٣٤ وما بعدها عن القباب والصلة بالفن القوطى .

(٤٤) انظر التأثيرات الفنية الاسلامية ،... ص ٧٩ ـ ٨٠ ، وعن تلخيص ما قيل فى أثر الجامع الطولونى أو جامع عمرو او الجامع الاثر فى العمارة القوطية ، أنظر ريسلر (Risler) الحضارة الاسلامية (بالفرنسية) ، باريز ١٩٥٥ ، ص ١٥٧ .

(٤٥) الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ١١٥ (عن مونيريه دى فيلار) .

للاريحانة فى القيروان ، فقد ظهرت الجوفات المعقودة فى اسبانيا الرومانسكية وكذلك فى ايطاليا فى شكل مختلف تماما ، مكأنها تجاهلت الجوفات الاسلامية الاندلسية التى نبعت منها كلية(٤٦) •

واخيرا تاتى الاجابة على السؤال الاساسى ، وهو : من أين اذن اشتقت الجوفات المعقودة فى بلدة البوى ، وبالتالى نظيراتها فى اقاليم وسط فرنسا ؟ ويجيب على ذلك الدكتور فكرى ، قائلا : ان جوفات البوى غريبة على الفن الرومانسكى ، وهى تظهر بوضوح قريبة الشبه من الجوفـات والقرنصـات الاسلامية ، وهو الامر المتفق عليه • وهـو لا يوافق مونيريه دى فيـلار Monneret de Villard . فيما يراه من انها مستوحـاة من جـوفات قرطبة ، وذلك عن طريق الحج الذى كان يربط اسبانيـا الاسـلامية بشمـانته ياقب (سنتياجو) وبمدينة البوى ، على اساس ان جوفات قرطبة زخـرفية • ومـع انه يقرر ان القرابة قريبة من جوفات البوى المعقودة وجـوفات القـيروان وقرطبة ، من حيث : وجود نفس العناصر ، ونفس الهيكل ، والميل الى الخفة ، والرغبة فى اجتذاب الضوء ، فانه يقرر فى نفس الوقت انها مختلفة من حيث الشكل واللون •

أما عن فكرة تكون الجوفات المعقودة الاسلامية وشبيهتها فى بلدة البوى، وفى وسط فرنسا ، ماخوذة عن طراز واحد أقدم منها ، فهو امر غير محتمـل، اذ أن الفنان المسلم كانت له شخصيته المميزة فى العمل على نماذجه القديمة • وبناء على ذلك فلا يكفى البناء ان يكون قد وجد على طريق الحج الى سانتياجو ــ حسب الفكرة الدارجة عند مؤرخى الفن فى العصور الوسطى ــ لكى يقـوم بمثل هذا العمل • فالواجب أن يكون قد عاش فى بلاد الاسلام وتشبع برؤية نماذج العمارة الراقية ، وزيارة مواضع البناء•وعن هذا الطريق يمكن أن نفهم كيف نشأت الجوفات المعقودة والقرنصات الفريدة فى تكوينها ، فى العمارة الرومانسكية فى البوى ، وشبيهاتها فى مدارس الفن الفرنسية الاخـرى ، وغـيرها(٤٧) •

---

(٤٦) الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ١١٦

(٤٧) الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ١١٩ •

المؤثرات الاسلامية فى النحت فى بلدة البوى :

النحت الرومانسكى فى البوى :

لما كانت الصفة الزخرفية هى الغالبة على الفن الاسلامى ، فمن الطبيعى أن تكون المؤثرات الاسلامية فى النحت فى البوى وفى الفن المسيحى بشكل عام أوضح من المؤثرات فى العمارة • ومن هذا الوجه نجد أن مجموعة النحت الرومانسكية فى بلدة البوى تعتبر أغنى المجموعات وأكثرها تنوعا ، فهى منحف عظيم •

وأول سمات هذه المجموعة المميزة ، هى ان النحت التاريخى فيها قليل ، وان صور الاشخاص لا تظهر فيها الا نادرا • والحقيقة ان هذه السمة لا تنفرد بها البوى وحدها ، بل تشاركها فيها كنيسة كرنك (Conques) فى اقليم الافيرون جنوب الاوفرن ، وكذلك دير مواساك Moissac حيث لا تظهر الصور الانسانية (الايقونوغرافية) فى أى من تيجان الاعمدة وهى كثيرة وهو الامر الذى يتميز به الفن الاسلامى •

وفى تصنيف الدكتور فكرى لمجموعة النحت فى البوى من : تيجان الاعمدة وافاريز العقود وأعالى البوابات ذات العقود المتدرجة (من مقوسة أو محدبة كالافاريز) ، المعروفة بالتامبان تشبيها بتجويف الاذن (tympan) ميز مجموعتين من التيجان من عصر ازدهار الفن الرومانسكى ، هما : المجموعة المصورة (بصور انسانية أو حيوانية) والمجموعة الزخرفية • وفى الدراسة الاحصائية سجل ان عددالتيجان الزخرفية يزيد عشرين مرة على المصورة ، وذلك انه من بين ١٥٠ (مائة وخمسين) تاجا ، وجد ٧ (سبعة) فقط مصورة تصويرا تاما ، منها ٥ (خمسة) تاريخية تعالج موضوعات : بعض القديسين مثل سان ماتييه ، وبعض الحيوانات الانجيلية ، مثل : الكبش الالهى ، والاسد المجنح(٤٨)•

ومن التيجان المصورة (الايقونوغرافية) هناك نوع اكثر بساطة من السابق ، اذ يجمع ما بين الزخرفة التطريزية والزهرية ، وبعض الصور

---

(٤٨) أنظر الفن الرومانسكى فى البوى ••• ، ص ١٢٧ ـ ١٣٧ •

الانسانية أو الحيوانية وهذه التيجان الرومانسكية تمثل مراحل من تطور الطراز الرومانسكي • فمنها ما تندمج فيه الاوراق النباتية باستقامة حول «ناقوس» التاج فيصبح جزءا منه ، وتظهر الافاريز أشبه بالخطوط الكتابية حيث تتحول النقاط الى دوائر ووردات • ومنها الكورنثي الذى ينقسم فيه الناقوس اما : بصفين أو بثلاثة صفوف من الاوراق ، التى يطل منها وجه انساني او صرة من الصرر (rosaces). ومنها النوع الذى يحدد بالناقوس فيه خواتم مستديرة او حلزونية ، وتظهر فيه رؤوس انسانية ولآلىء ومسابح وكرات صغيرة(٤٩)•

والذى يهمنا من كل ذلك هو ان الزخرفة النباتية الرومانسكية فى تلك النماذج بدات بتطوير الطراز الكورنثي القديم، عن طريق ترتيب أوراق «الاكانت acanthe » (أو شوكة اليهود) على سطح ناقوس التاج فى صفين : علوى وسفلى ، بشكل منظم • وهذا النوع من التيجان هو الذى يزين منذ القرن التاسع الميلادى قبة المحراب فى جامع القيروان(٥٠)•ومثل هذا التاج الاسلامي المولد ، القيرواني المنشأ يوجد فى تيجان الواجهة الغربية لكنيسة القديس مرقص فى البندقية بايطاليا • وهكذا يصح القول أن التاج الذى نشأ فى مسجد القيروان الجامع تطور بشكل كبير فى بلاد المغرب والاندلس ، وانه دخل من اسبانيا الى اوروبا حيث كان له اثره هناك ، فاشتقت منه أصول التيجان الرومانسكية وعناصرها (٥١) •

---

(٤٩) انظر الفن الرومانسكي فى البوى ••• ، ص ١٣٩ ــ ١٤٢ •

(٥٠) انظر الفن الرومانسكي فى البوى ••• ، اللوحة رقم ٣٨ أماه ص ١٣٨ و ص ١٣٩ حيث شكل ١٤٠ ، وفيه رسم لنوعى : البوى والقيروان ، من أعداد جورج مارسيه •

(٥١) انظر مسجد القيروان ، ص ١٤٠ ــ ١٤١ ، حيث الاشارة الى هرننديز (Hernandez) فى بحث عن مظهر من مظاهر تاثير فن خلافة الاندلس فى كتالونيا • وقارن ، مانويل جوميث مورينو ، الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ترجمة لطفى عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم ، ص ٥٥ (حيث ينهى المؤلف كلامه عن التيجان القديمة المعاد استخدامها فى جامع قرطبة بتقرير أن عددا من تيجان جامع قرطبة ــ مما اكتشف عليه نقش فى مدح الامير عبد الرحمن الاوسط ــ يكشف عن مدرسة فى فن الحفر تمتاز بذوق رائع لا نظير له منذ انتهاء عهد الكلاسيكية ، وهى على راس مجموعة تبلغ ذروتها فى عهد الخلافة بقرطبة فى القرن العاشر •

والاثر الاسلامى يظهر فى تيجان البوى من النوع المخرم بشكل أوضح• وهذا النوع ينقسم فيه الناقوس الى قسمين مختلفى الارتفاع : الاعلى منها مربع يتصـــل بالاسفل المدور عن طريق افريز ذى شفـة ربع دائرة ، وزاوية راسية(٥٢) • ويلاحظ الدكتور فكرى أن هذا اللون من النجارة الحجرية نادر فى خارج البوى ، وان وجدت له بعض النظائر فى جنوب فرنسا وفى كتالونيا • وبذلك لا يكتفى الاثر الاسلامى بالظهور فى الشكل فقط بل وفى صميم الصناعة الفنيـة ايضـــا •

والاثر الاسلامى واضح فى تلك المجموعة من خلال الحيوانات الاسطورية، وسيقان النّبات المرصعة (Perléss) ، والاوراق المخرمة ، والتكوين الهندسى• والتشابه واضح فيها مع تيجان المغرب والاندلس ، منذ عهد الخلافة فى قرطبة، وحتى عصر متأخر فى غرناطة والمغرب • ورغم أن هذا الطراز الذى اشتهـر به الفن الاسلامى فيما عرف بالتوريق أو التوشيح او الرقش (ارابسك) ، الذى يتطلب مسطحـــات واسعة لتنفيذه ، لا يتناسب مع الطراز الرومانسكى الذى يخضع اولا وقبل كل شىء ، لقواعد الطراز المعمارية فيصبح تابعا لها(٥٣) ، فقد اعجب بجماله كثير من رجال الفن المسيحيين فى بيزنطة واسبانيا وفرنسا، فى القرون الوسطى ، واخذوا اصوله وعناصره ، وادخلوها على صناعة زخارفهم المنحوتة(٥٤) •

ونماذج ذلك النحت المخرم الذى يظهـر فى شكل تطريزى عجيب ، يكسو الحجارة بغلالات من التطريز أو من القماش المخرم البديع ، تنتشر فى اقـــاليم غرب فرنسا : فى كنائس البواتو ، وفى كتالونيا وبيزنطة • اما اقدم اصوله الاسلامية فتوجد فى جوفة المحراب فى القيروان ، وفى بقايا مدينة الزهراء حيث توجد عينات لا مثيل لها•

النحت فى الخشب فى البوى :

ويظهـر الاثر الاســـلامى فى النحت على الخشب ، فى بابى الكتدرائية

---

(٥٢) الفن الرومانسكى فى البوى ••• ، ص ١٤٨ ، وشكل ١٦٢ ولـوحة ٤١ امامها •
(٥٣) الفن الرومانسكى فى البوى ••• ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ •
(٥٤) مسجد القيروان ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ •

الداخليين ، حيث كانت الواجهة القديمة عند نهاية البلاطة الرابعة • ولكل باب «ضلفتان» ، كل واحدة منها مقسمة الى ٨ لوحات ، فى كل لوحة منظر مصور مع كتابات لاتينية تشرح مغزى تلك المناظر ، من : مذبحة الابرياء ، والسيدة العذراء والطفل يسوع ، وقدوم ملوك المجوس بالهدايا على هيرود ، وقيـامة المسيح ، وحمل الصليب ، وغيرها •

ولكن الذى يلفت نظر الاثريين فعلا ، هو وجود نقش على الباب الايسر لا تدع حروفه الكوفية مجالا للشك فى أصله الاسلامى • ففى منظر قدوم ملوك المجوس ملأ النحات الفراغ حول الاشخاص بنقوش من الاوراق والأزهـار : المتموجة والمتعانقة فى نصف دائرة ، وفى ربع دائرة ، كما اخرجها فى شكـل كتابة كوفية ، أشبه بنقوش مدينة الزهراء • والاثر الاسلامى واضح أيضـا فيما يظهر فى تلك النقوش ، مثل القوس الثلاثى الحنايا ، والحنايا الهندسية فى : متواليات صغيرة وكبيرة(٥٥) •

وهذا النحت من نوع صناعة التكفيت (حيث النقش فى مستوى واحـد كذلك ارضيته المستوية) المعروف فى الفن الاسلامى • والنماذج القريبة من بلدة البوى توجد فى الابواب الخشبية فى كنيسة سانتا ماريا فى سلييس قرب كارسولى (Carsoli) ، وفى كنيسة سان بيترو فى البا فوشنيس Alba Fucensis بايطاليا ، وفى كنيسة مارتورانا (Martarana) فى صقلية ، وكلها من حوالى منتصف القرن الـ ١٢م •

والنماذج الاصلية لهذا النحت على الخشب توجد فى : القيروان ، وقرطبة ، ومدينة الزهراء • أما عن القرابة بينها وبين نماذج النقش على العاج البيزنطية والكارولنجية فهى غير صحيحة من وجهة النظر التقنية •

وهكذا يظهر الاثر الاسلامى واضحا فى العناصر المعمارية للفن الرومانسكى فى بلدة البوى ، وفى وسط فرنسا ، وغيرها من الاقاليم الفرنسية ، والاسبانية المسيحية ، والايطالية • وهو يظهر بشكل أوضح فى الزخرفة : شكلا وتفصيلا •

---

(٥٥) الفن الرومانسكى فى البوى • • • ، ص ١٧١ ــ ١٧٥ •

العناصر المعمارية الاسلامية تأخذ شكلا زخرفيا فى واجهة كتدرائية البوى :

هذا ومن المهم الاشارة الى ان عناصر العمـــارة الاسلامية ظهرت بشكل زخرفى فريد فى واجهة كتدرائية البوى • فالعقود الثلاثية (الحنايا) والمفصصة، بشكلها الجذاب ، تعطى معنى التماثيل الموجـــودة فى البوابات الرومانسكية الاخرى • وبصرف النظر عما قد ينسب الى هذه العقود من اصـــول بـــوذية أو يونانية ، فالمتفق عليه بين الباحثين الاوروبيين الثقاة انها دخلت الى فرنسا عن طريق الحج الى شنت ياقب والطـــرق المتفرعة منه • وقبل الرحــــلة من سنتياجو ــ حيث كانت تلك العقود كاملة النمو ، تامة الاعضاء ــ بعدة قرون، لا يضير الحضارة الاسلامية انه كانت هناك رحلة اخرى لنماذج شبيهة من بلاد الشام أو حتى من الهند ، عبر الفسطاط والقيروان وقرطبة وطليطلة الى سنتياجو • وخـــلال تلك الرحلة التى استغرقت عددا من القرون ، تطـــورت تلك العقود واصبحت ابتكارا اسلاميا صرفا ، سواء فى العمارة أو فى الزخرفة، تماما ، كما حدث فى الجوفات أو المقرنصات المعقودة(٥٦)•

ولا بأس فيما رآه الدكتور فكـــرى من انه ليس من المستبعد ان تكـــون المقرنصات المعقودة ، الصدفية الشكل ، التى رايناها فى قبة المحراب فى القيروان ، هى التى اوحت الى الفنان المسلم اختراع العقد المفصص • ولقـــد

---

(٥٦) وهذه الرحلة الطويلة للفن الاسلامى ، عبر الشمال الافريقى وشبـــه جزيرة ايبيرية ، هى التى يعبر عنها «ديولافوا» ، بشان التنازع على تاثير المئذنة المربعة الشكل على ابراج الكنائس الاوروبية ، عنـــدما تقول : انه من الصعب معرفة ما اذا كانت المئذنة سابقة عـــلى برج الكنيسة أم لا ؟ ولكننى اميل الى الظن بان نموذج المنارة المربعة فى المسجد نقل من دمشق الى افريقية منذ ايام الامويين ، وانه دخـــل الى اسبانيا حيث اخذ شكله الاســـلامى فى كتالونيا والرسييـــون Roussillon ومن هناك انتشر فى فرنسا ، وفى اقاليم الرون• انظر ديولا فوا (مارسيل) ، تاريخ الفن العام ، اسبانيا والبرتغال (بالفرنسية) ، باريس ، ١٩١٣ ، ص ٤ ــ ٣٥ • وهو الامر الذى مر عليه الدكتور فكرى عندما تعرض لبرج البوى المربع ، ذى الطبقـــات السبعة ، الاصيل فعلا فى عمارته الرومانسكية ، فسجل ما رآه من اثره فى برجى ليموج وفالنس الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ٥٢ـ ٥٣ • ولـــو أن الدكتـــور فكرى عاد فى بحثه عن التاثيرات الفنية الاسلامية فى فنون اوروبا ليسجل تاثير المآذن المغربية الاندلسية على ابراج الكنائس المربعة القاعدة ، من حيث الشكل والزخرفـــة فى اسبانيا وايطاليا وانجلترا (مجلة سومر ، المجلد ٢٣ سنة ١٩٦٧ ، ص ٧٩) •

استمر التدريج فى استخدام العقود المفصصة حتى انتشرت فى كل بلاد المغرب والاندلس فى القرن العاشر الميلادى ، وزاد التدرج فى تطويرها حتى توالت فصوصها (حناياها) فى سمراته بالجزائر بعضها فوق بعض ، كما ظهرت هناك صرر مكونة من دائرة تتخللها اربعة فصوص • اما فى قرطبة فقد تعانقت العقود المفصصة • وفى نهاية التطور تكاثرت الفصوص فى العقود التى صارت اصغر حجما ، لكى تختفى من داخل المسجد ، وتستقر فى الجص او فى الخشب على المآذن وعلى الابواب • وهذا ما يظهر فى بلدة البوى وفى غيرها من البلاد التى تأثرت بالاسلام بطريق مباشر او غير مباشر(٥٧)•

اما عن العقد المنفوخ (نعل الفرس) الذى ظهر فى القيروان كعنصر متميز ب : القوة ، والمقاومة ، والاقتصاد فى مواد البناء ، وتحقيق قدر كبير من الاضاءة، والذى شاع استخــدامه فى فن المستعربة فى اسبانيا ، فالظاهر ان الفــن المسيحى لم يعترف له الا بقيمته الزخرفية ، كما ظهر فى البوى(٥٨)•

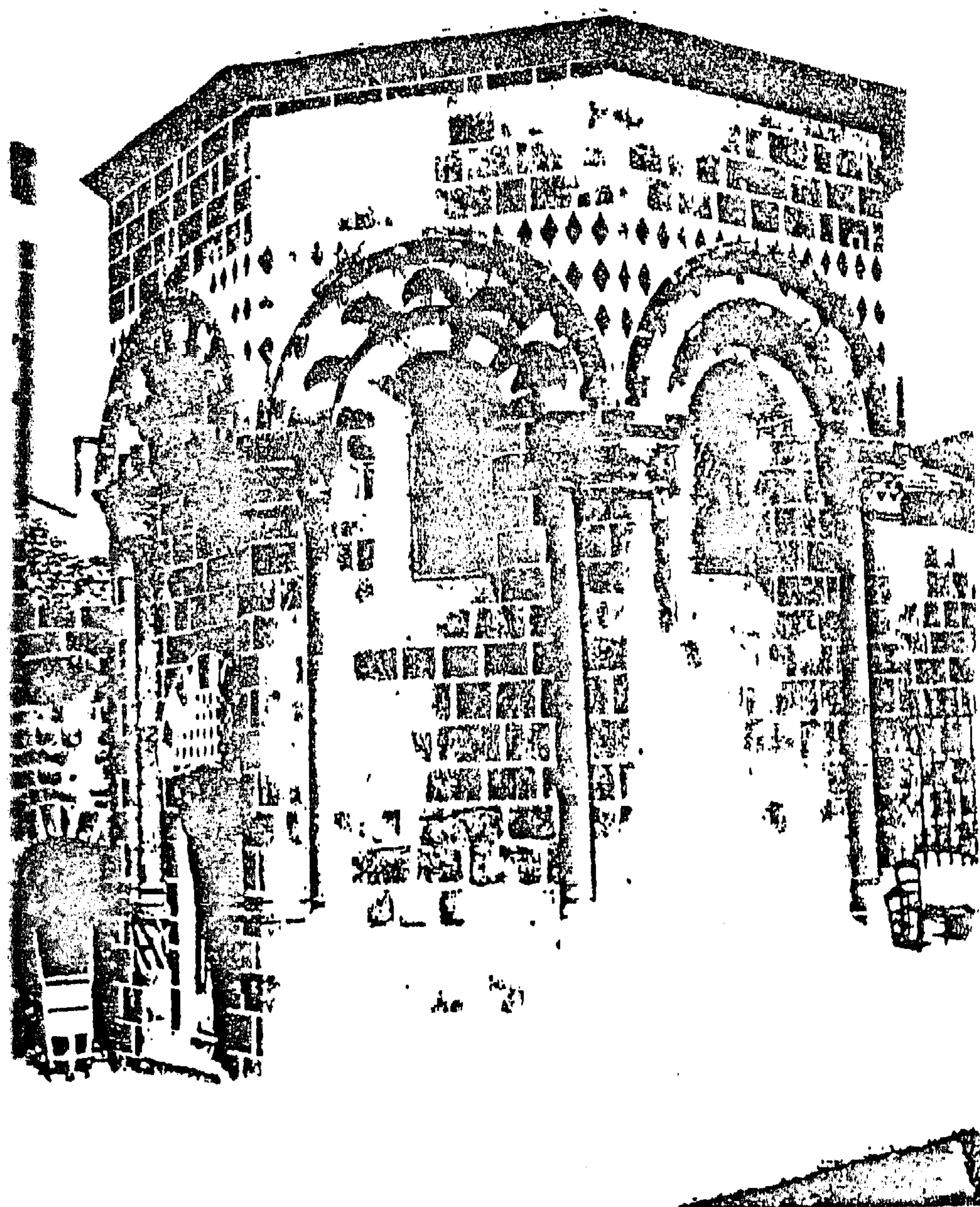
الاثر الاسلامى فى التزويق والتطعيم او التكفيت :

التزويق بالالوان المتنوعة ، واستخدام الحجارة الملونة بطريقة تبادلية . وتناوب الطوب والحجارة فى البناء ، من سمات الفن الاسلامى المميزة • ولما كان من المعروف ايضا ان بيزنطة اخرجت نماذج رائعة فى هذا المجال ، وان فرنسا الميروفنجية عرفت هذا النوع من الزخرفة ، قامت قضية التنازع فيمن يكون صاحب الفضل فى وجود هذا الاثر فى الفن الرومانسكى • ومع الاعتراف لبيزنطة بدورها ، وبان الفن الاسلامى اخذ بعض اصول نماذجه من الفن البيزنطى ، فالمعروف ان هذا اللون من الزخرفة لم يظهر فى الفــن الرومانسكى الا فى اقليمين فقط من اقاليم فرنسا ، هما : الاوفرنى (Auvergne) وفلاى Velay • والمثل لذلك كنيسة نوتردام دى بور فى كلير مون فيران ، حيث استخدمت الحجارة البركانية السوداء والطــوب الاحمر والحجارة البيضاء

---

(٥٧) الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ١٨٩ ــ ١٠٦ ، وقارن التأثيرات الفنية الاسلامية •• ، سومر ، مجلد ٢٣ ، ص ٧٣ •

(٥٨) الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ٢٤٥ ــ ٢٥٠ •



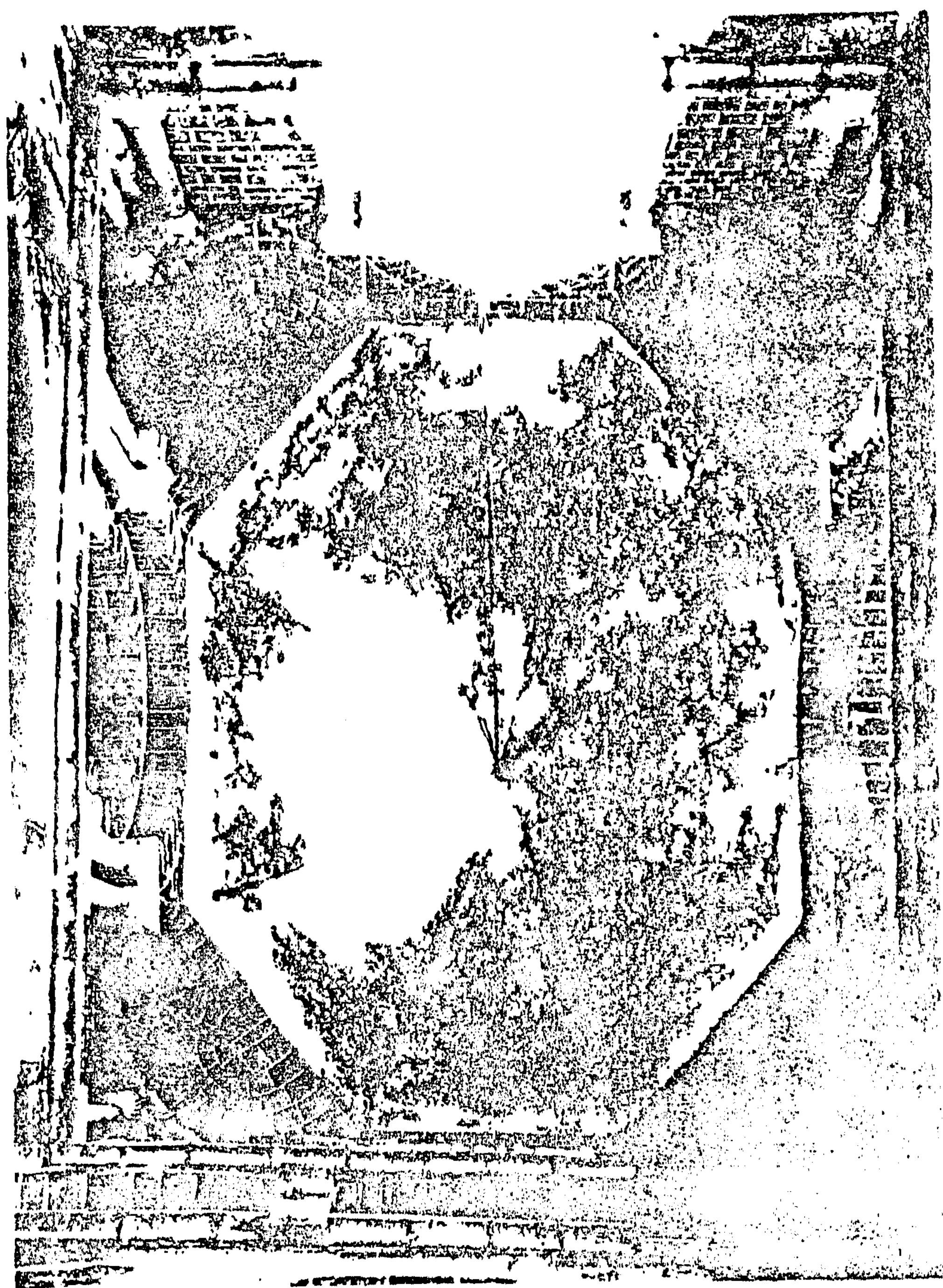
مصلى سانت كليرد ي بوى




مقرنصات بقبتين



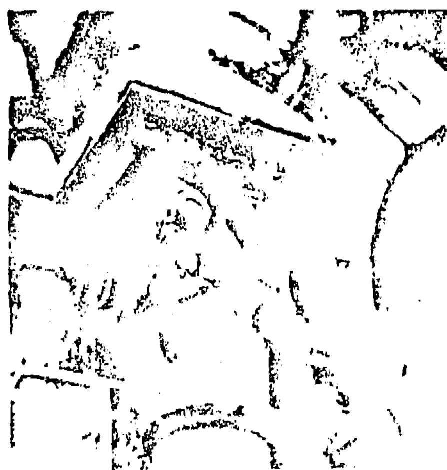
قبة جاردا ديهار "دروم"



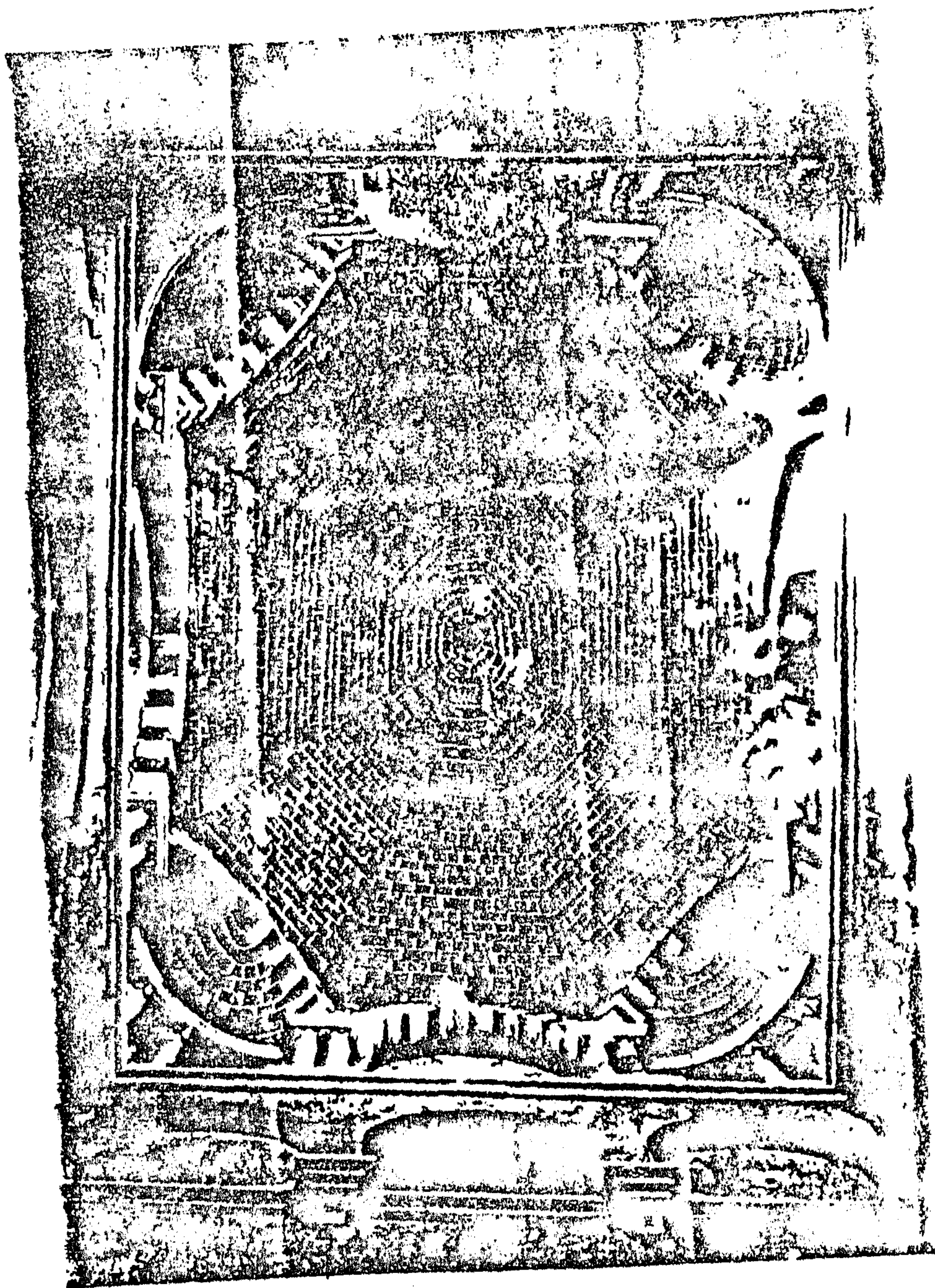
قبة الرواق الخامس بكاتدرائية نوتردام دي بوي



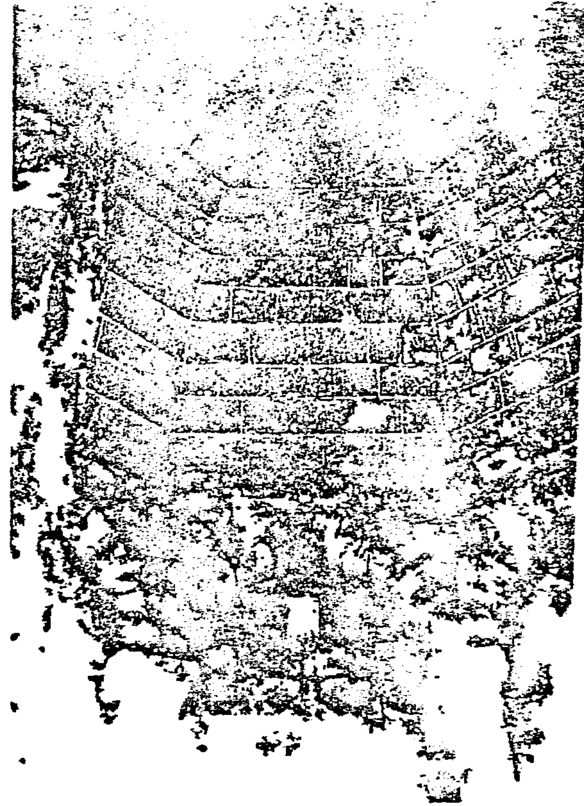


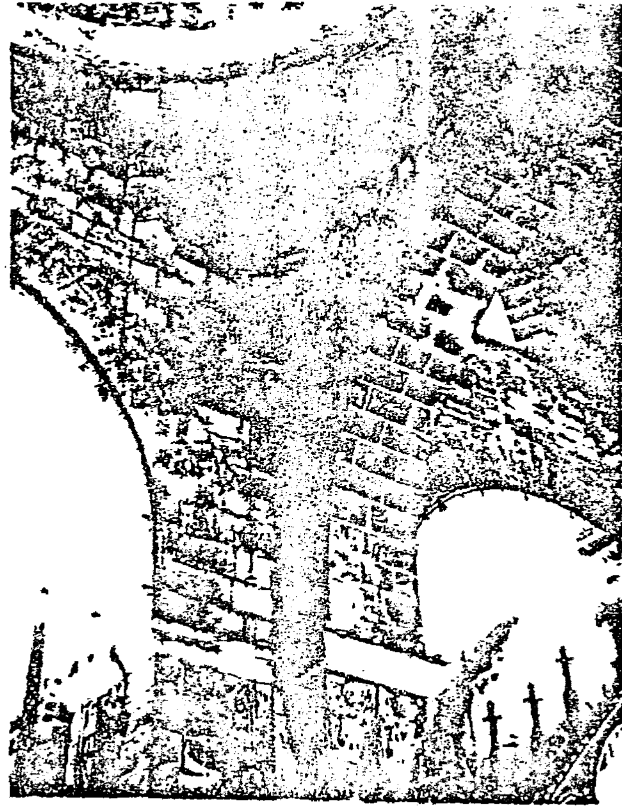
تيجان أعمدة بالرواق الغربي



قبة الرواق الرابع بكاتدرائية نوتردام دي بوي



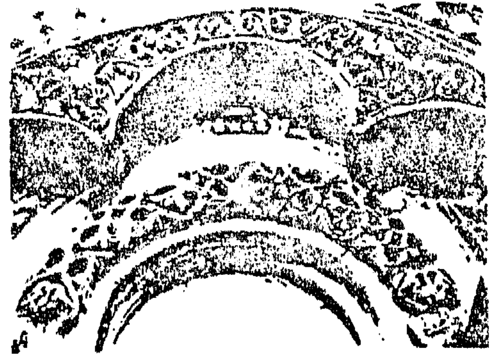
قبة بمصلى سان كلير

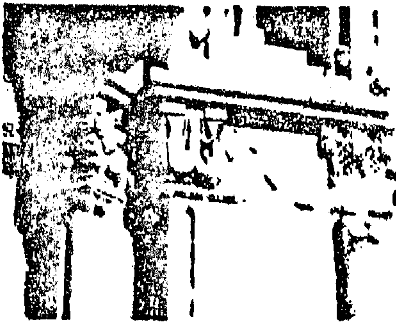


مقرنص باحدى قباب كاتدرائية دي بوي

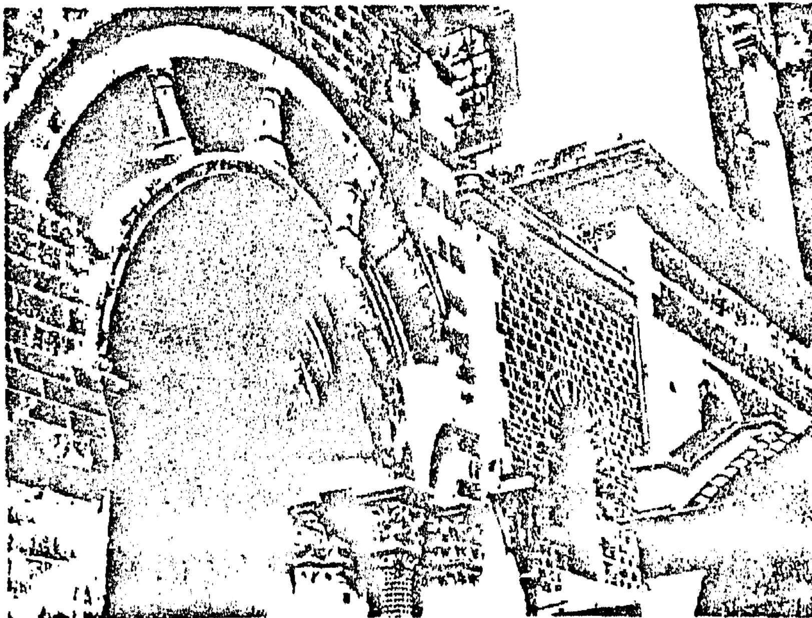
مصلى سان ميشيل











نقوش بوابة فور " شكل ٩٨ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ "



نقش كوفى بنوتردام دى بوى

والزمادية فى شكل فسيفساء بديعة مركبة من تكوينات ، فى شكل : اسوزات ومثلثات ووردات نجمية ، وغيرها ٠

اما أقدم النماذج لهذا الطراز من التزويق فيوجد فى جامع قرطبة حيث استخدمت الحجارة البيضاء والحمراء على التوالى فى صنع العقود منذ سنة ٨٣٢م ، وفى قبة المحراب فى جامع الزيتونة منذ سنة ٨٦٤م ، وكذلك فى المقرد وفى فرش الارض ٠ ولما كان اقرب النماذج الاوروبية لمثال قرطبة يوجد فى الاوفرنى ، رئيس فى اسبانيا المسيحية ، فيمكن القول بان مزخرفى الاوفرنى اخذوا هذا الفن مباشرة عن الاسلام ، وقلدوا التركيبات الهندسية التى تتكرر الى ما لا نهاية فى فسيفساتهم ٠ واما مثال البوى فانه ينفرد بوضوح تضاد العناصر الملونة ، ما بين ابيض واسود ، وابيض واحمر ، مما يذكر بعقود قرطبة ٠ وهكذا تكون كل من الاوفرنى والبوى قد تاثرت بالفن الاسلامى القرطبى وان كانت العلاقة وظيفته بين تعدد الالوان فى البوى وبين مثيلتها فى قرطبة وتونس ، وهو ما لا نجده فى مبانى الاوفرنى(٥٩)٠

الزخرفة الكوفية واثرها فى الفن المسيحى :

وآخر المؤثرات الاسلامية فى الفن المسيحى التى يختم بها الدكتور فكرى بحثه فى فن البوى ـ وله الحق فى ذلك ـ هى زخرفة الكتابة العربية ٠ فرغم ان الحروف العربية الاولى كانت اقل العناصر ملاءمة للزخرفة بسبب عدم انتظام حروفها ، فقد نجحت عبقرية الفنان المسلم فى اخضاعها لحاجاته ، بعد ان اعطاها توازنا حقيقيا ، فصارت مجالا لابتكاراته العبقرية ٠ فبعد ان اطال سناماتها ، وملأ فراغاتها ، واطال الاجزاء السفلية المثقلة فيها ، طورها بالانثناءات والالتواءات ، وتعانق الخطوط وتلاقى الحروف ٠ وبذلك اخذت الحروف العربية قوة عظيمة فاصبحت صورا واشكالا ، وتركز فيها فن زخرفى اغنى الزخرفة الاسلامية عن فن الايقونات ٠

ولقد بهرت الكتابة الزخرفية العربية الفنانين المسيحيين فى أوروبا ، فنقشوها على تيجان الاعمدة ، وعضادات الابواب وعتباتها ، وفى عقود

---

(٥٩) الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ٢٢٥ ـ ٢٤٠ ٠

البوابات المقوسة المعروفة بالتامبان (تجويف الاذن) ، وفى المذابح ، ومى صناديق العاج الصغيرة ، والنسيج المصنوع فى دار الطراز ، والمخطوطات ، وخاصة مخطوطات رؤيا القديس يوحنا التى انتشرت مى القـرن الـ ١٠ م ، والتى يظن أن النقش الكوفى عرف عن طريقها فى اوروبا ، وفى ايطاليا بخاصة فرخامة ثيزيون Théseion بمتحف اثينـا تذكر بالنحت الاسلامى المـزين بالزخرفة الكوفية التى ظهرت ايضا فى بلاد اليونان ، فى القـرن الـ ١١م ، فى بعض الكنائس بالقرب من طيبة واثينا ، كما ظهرت فى كنيسة سان خرالامبو فى كالماتا(٦٠)٠ وفى ايطاليا ظهر فى اشكال اخرى ، فى سان بيترو دالبـا ، ولو أن الحروف تفقد صفاتها الكتابية ، وتصبح عناصر زخرفية صرفة(٦١)٠ وتحوير الحروف العربية الى عناصر زخرفية فقط كان ظاهرة شائعة فى الكنائس التى اقتبسته حتى فى اسبانيا المسيحية القريبة من بلاد الاندلس الاسلامية٠

اما فى البـوى البعيدة فيوجد فى باب الكتدرائية عبارة : « الملك لله » منقوشة بخط كوفى زخرفى صحيح (٦٢)٠ وحق للدكتور فكرى ان يستخلص من هذه الـ « الملك لله » : انه توجد علاقة وثيقة بين فن البوى الرومانسكي والفـن الاسلامى ٠ وهو اذ يرى أن النموذج الاصلى لها اخذ من مدينة الزهراء ، يقرر ايضا أن كاتب النقش الاسلامى الصحيح لم يكن غريبا عن ارض الاسـلام ، وان العلاقة كانت مباشرة بين الاندلس وبين اقليم البوى فى وسط فرنسا٠

---

(٦٠) الفن الرومانسكي فى البوى ، ص ٢٥٧ ـ ٢٦٢ وشكل ٣١٩ص١٦٤٠

(٦١) الفن الرومانسكي فى البوى ، شكل ٣٢٠

(٦٢) بدأ الدكتور فكرى قراءة هذا النقش فى شكل « ما شاء الله » (نفس المرجع ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، وشكل ٣٢٧) ثم انه عدله بعد ذلك الى « الملك لله » وهى القراءة الصحيحة فعلا ـ انظـر التاثيرات الفنية الاسلامية ٠٠٠ سبتمبر ١٩٦٧ ٠ المجلد ٢٣ ، ص٨٧ ٠

الخــــــاتمة :

وهكذا يكون الدكتور فكرى قد بين الكثير من المؤثرات الاسلامية فى الفن الرومانسكى فى بلدة البوى فى وسط فرنسا ، وفى غيرها من كنائس هــذا الطراز فى اقاليم فرنسا المختلفة، وفى ايطاليا ، وصقلية ، واليونان ، واسبانيا المسيحية • ولكنه ينهى البحث بالنظرية التى يؤمن بها ، وتلخيصها : ان المهم بالنسبة للعمــل الفنى هو الوظيفة وليس الشكل او حتى تنقية الصناعة • فالعناصر الاسلامية المقتبسة فى فن البوى ، من : القرنص المعقود ، والعقــد المنفرخ والثلاثى والمفصوص ، والنقش المورق ، والتلوين المتبادل ، والخــط الكوفى ، لا يعنى ان الكتدرائية اصبحت بناءا اسلاميا • فواجهة الكتدرائيــة أو تيجان اعمدتها ، مثلا ، لو وضعت فى متحف اســـلامى لوجد ان مكانها المناسب هو قاعة الفن الرومانسكى • فالفنان الرومانسكى اخــذ العنــاصر الاسلامية ، وطورها بحيث اصبحت مناسبة لاغــراض الكنيسة المسيحية ، تماما ، كما فعل الفنان المسلم عندما أخــذ عناصر بنائه ، من : معمــارية أو زخرفية ، سواء من المشرق البعيد او من بلاد الشام او بيزنطة ، فطورها بجهده وعقله ، ونفث فيها من روحه ونفسه ، حتى اصبحت اسلامية لحما ودما •

ونظرية الوظيفة التى يقوم به العنصر الفنى ، التى بدأ بها الدكتور فكرى بحثه شابا ، هى التى اوحت اليه كهــلا بنظرياته التى فلسف بهــا الفــن الاسلامى ، كما دونها في المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها(٦٢)، وهى :

١ ـ نظرية الاصول والمصادر ، التى يراعى فيها ان بلاد العــرب عرفت الفنون قبل الاسلام ، وان الشكل الخارجى غير مهم فالعبرة بالجوهر والوظيفة ، ومراعاة التسلسل التاريخى والتطــور الفنى على اسس ســليمة •

٢ ـ نظرية الاستنباط ، والفكرة فيها ان محاولات حل المسائل الهنــدسية ترتبط باسباب الحياة واغراضها ، بمعنى انها تخضع لحاجــات الانسان من مادية ومعنوية •

---

(٦٢) المدخل ، الفصل الثانى ، ص ٢٥ ـ ٤٩

- نظرية التطور ، التى تقرر أن العناصر المقتبسة والمستنبطة لم تستقر على حالها فى الفن الاسلامى، بل تطورت مع مرور الزمان حتى اصبحت أساليب جديدة في العمارة والزخرفة ، تعبر عن خصائص الفن العربى الاســـــلامى •

- نظرية الوحدة العــــربية ، التى تعنى انه رغــم تنوع عناصر الفن الاسلامى ما بين المشرق والمغرب ، فان هـــــذا التنوع الذى يشبه اختلاف اللهجات فى اللغة العربية - والذى يمكن ان نشبهه ايضـا باختلاف المذاهب الاسلامية - لا يقلل من وحدة هذا الفن الذى يقــوم على دعامتين أساسيتين ، هما : العروبة والاسلام •

ى ضوء هذه النظريات التى خرج بها الدكتور فكرى من دراسته الطويلة الاسلامية ، وتأمله فيما انتجته من الروائع ، آمن ايمانا لا يتزعـــزع التها • وفى اطار هذا الابداع العربى سجل عددا من الآراء القيمة• منها حق التأمل من الباحثين ، مثل : ان تكون القباب الاسلامية مسترحاة بات العرب او قبابهم ، او ان تكون المقرنصات المعقودة ماخوذة بطريق من عنصر طبيعى اعجب به الفنان المسلم ، هو : الصدفة • ومنها مايجرى رى النظريات الثابتة ، وهو ان تخطيط المسجد نابع من طبيعـــة اداء الصلاة الاسلامية • اما اثر كل ذلك فى الفن المسيحى المعـــروف فى بالرومانسكى فقد سجله بطريقة فذة ، سواء فى عناصر العمارة ، من • والمقرنصات ، والعقود ، أو فى الزخرفة : من التوشيح ، والتزويق ثم ة الكـــوفية •

مظاهر الأصالة فى بنيان المسجد الجامع بقرطبة

الدكتور السيد عبد العزيز سالم

يعتبر المسجد الجامع بقرطبة مثلا من اروع امثلة العمارة الاسلامية والمسيحية على السواء فى العصور الوسطى بفضل ما تضمنته بنيته من ابتكارات معمارية وثروات زخرفية ، اسهمت بلا ادنى شك فى الحفاظ عليه من موجات التخريب التى رافقت ما يسمى بحركة الاسترداد ، وشملت المسجد الاعظم من آثار الاسلام فى الاندلس • وتتمثل مظاهر الاصالة فى بنيان هذا الجامع فى طابقى عقود بلاطاته ، وفى تشبيكات العقود التى ترتكز عليها اعناق القباب ، وفى فكرة استخدام الضلوع البارزة المتقاطعة فيما بينها كهيكل اساسى تقوم عليه كسوة القباب •

اولا ـ العقود المتراكبة :

يجمع علماء الآثار الاسلامية على أن فكرة ازدواج العقود على نحو يجعلها تنتظم فى طابقين بجامع قرطبة فكرة جديدة وأصيلة فى العمارة الدينية الاسلامية وانها تعتبر ابتداعا معماريا فريدا من نوعه لم يسبق له أن نفذ فى اى اثر دينى اسلامى قبل انشاء هذا الجامع • الا انه عز على فريق من الاثريين ان يقروا باصالتها ، فانطلقوا يبحثون فى أصل فكرة تراكب العقود القرطبية فى الآثار القديمة عسى ان يهتدوا الى اثر يمكن مقارنته بها ، وانتهى بهم الامر الى ارجاع الفكرة الى عقود جسور المياه الرومانية التى تقوم على طابقين او ثلاثة ، فقارنوا بين نظام العقود المتراكبة بجامع قرطبة وبين عقود جسر المياه الرومانى بمارده المعروف بجسر المعجزات(١) los Milagros Aqueducte de ، فى حين قارن بعضهم بينه وبين جسر مياه مدينة شقوبية

---

(١) M. Gomez Moreno, Ars Hispaniae t. III, p. 41.
والترجمة العربية الدكتور احمد لطفى عبد البديع والدكتور السيد عبد العزيز سالم بعنوان : « الفن الاسلامى فى اسبانيا » ص ٣٨ ـ =

Segovia (٢) أو بجسور المياه الرومانية فى مدينة شرشال بالجزائر(٣) • ويزعم هؤلاء الباحثون أن العقود المنتصبة فى الفـراغ وتربط ارجل هذه الجسور تقوم بنفس الوظيفة البنائية التى تقوم بها طبقة العقود السفلى بجامع قرطبة وهى الربط بين الدعائم العليا وتثبيتها تجنبا لانهيارها(٤)• ويذهب هـؤلاء العلماء الى القول بأن مهندس جامع قرطبة استلهم فكرته من الأمثلة الرومانية سالفة الذكـــر •

والواقع ان فكرة استنبات عقود من طابقين فى جامع قرطبة فكرة مبتكرة واصيلة على الرغم من تشابه وظيفة الطابق الادنى منهما بوظيفـــة الطـابق الاسفل فى جسور المياه الرومانية ، فكلاهما يسهم فى دعم الارجـــل وتثبيتها ويتيح بذلك لهذه الارجل مزيدا من الارتفـــاع ، واعتقد ان هـذا التشابه فى الوظيفة فى كل من هذين البنائين انما جاء وليد الصدفة ، فان مهندس الجامع لم يستلهم الفكرة من الجسور الرومانية كما يزعم هؤلاء الباحثون ، كما اعتقد ان توصل البناء المسلم الى تنفيذ هذه الفكرة ، فى عقود جامع قرطبة ا· ـــا تم نتيجة تطور تدريجى أو على مراحل فى فكرة الترابط التى اعتادها بناة المساجد منذ العقد الخامس تقريبا من القرن الاول الهجرى، فمن المعروف ان بنية المساجد بوجه عام ضعيفة بسبب تعدد بلاطات بيت الصلاة واعتماد عقود هذه البلاطات على عمد ضعيفة أو دعائم قطاعاتها المربعة صغيرة الحجم حتى لا تشغل حيزا كبيرا فى بيت الصلاة ، وتوفر على هذا النحـــو مساحات كافية من الفـــراغ لجماهير المصلين ، وتتيح لهم الفرصة فى آن واحد لمتابعة الامـــام اثنـــاء مخاطبته لهم فى خطبة الجمعة • ولما كانت اسقف الجامع ترتكز اساسا على

Torres Balbàs., la Mazquita de Còrdoba y Madinat al-Zahra, Madrid = 1925, P. 30. Terrasse (H.) : L'art Hispano-Maursque, P. 62 - Marçais (G), L'architecture musulvuane a'Occident, P. 147.

(٢) Tubino, Estudios sobre el arte en Espana, Sevilla, 1886 p. 179.

(٣) Torres Balbas, Arte Califal, en Historia de Espana, dirigida por R. Menendez - pidal, Madrid, p. 364.

(٤) Torres Balbàs, Ibid, p. 364.

هذه العقود والعمد فان اى اختلال فى استقرار العمد بسبب الضغط الذى تمارسه الاسقف على العقود يتسبب بطبيعة الحال فى انهيار هذه الاسقف(٥).

ولضمان ثبات العمد واستقرارها فى مواضعها جرت العادة عند عرفاء البناء فى المساجد الجامعة ربط الدعائم او العمد من اعلاها وابطال مفعول الدفع الذى تمارسه العقود والاسقف على الاعمدة عن طريق اوتار خشبية تندمج اطرافها فى الحدائر التى تنبت منها العقود(٦). ولكن بناء جامع قرطبة تطلع الى الجمع بين هذا الهدف وبين هدف آخر هو رفع الاسقف المتطامنة بالجامع بحيث يتضاعف ارتفاعها عن الارتفاع الطبيعى ، وفى نفس الوقت أراد أن يستعيض عن هذه الاوتار الخشبية التقليدية التى تشوه المظهر العام للعقود وتبخس من قيمتها الجمالية ، فتوصل الى حل معمارى أصيل لم يسبقه اليه بناء وثنى او مسيحى أو مسلم ، اذ اطال من ارتفاع الحدائر التى تنبت منها العقود الحاملة للاسقف ، فجعل ارتفاعها مترين تقريبا بدلا من نصف المتر وهو الارتفاع المعروف للحداره . وحول الحدائر على هذا النحو الى دعائم متراكبة فوق قرم التيجان ، ثم ابدل بالاوتار الخشبية التقليدية التى تربط بين رؤوس العمد عقودا منفرجة تجاورت نصف الدائرة تنطلق فى الفراغ الممتد ما بين العمد والعقود العليا التى تحمل الاسقف . مستهدفا بها الربط بين الدعائم المذكورة من اطرافها السفلى ، واضفاء مظهر جمالى على البنية . وتنبت هذه العقود المنفرجة المتجاورة لنصف الدائرة او التى يمكن ان نطلق عليها اسم العقود الهوائية من الاذرع الطويلة للقرم . فى حين ترتكز الدعائم العليا على كوابيل او مساند ملفوفة تقوم على طنف التيجان .

وعلى هذا النحو أمكن لمهندس الجامع ان يرفع سمك الجامع واسقفه ويربط بين الدعائم العليا ويحدث فى نفس الوقت تاثيرا جماليا لم يكلفه اكثر من ابدال العقود الهوائية بالاوتار الخشبية ، ويكسب البنية رشاقة وفخامة . ولم يقنع مهندس الجامع بما احدثه ابتكاره المعمارى من تاثيرات جمالية ، بل اراد ان يؤكد الاحساس بجمال هذه العقود الهوائية الطائرة بحلية بسيطة

---

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، الجزء الاول ، بيروت ١٩٧١ ص ٣١٧ .

(٦) Torres Balbàs arte Califal, p. 347.

قوامها تناوب اللونين الاحمر والاصفر الشاحب ، فاتخذ سنجات العقود بحيث تتعاقب فيها الكتلة الحجرية الصفراء مع ثلاثة صفوف متلاحمة من الآجـــر الاحمــــــر .

وجملة القول أن مهندس الجامع القرطبى نجح فى تحقيق هـدفين : الأول زيادة ارتفاع إسقف الجامع والثانى اكساب بنية الجامع مظهرا جماليا ، مع الربط بين العمد وتثبيتها فيما بينها ، فاستخدم عقودا رابطة بدلا من الاوتار الخشبية المعروفة فى المساجد الاولى فى الاسلام ، وحافظ بذلك على الفـــكرة الاساسية من استخدام الاوتار او العقود الهوائية ، وفى الوقت نفسه توصل الى رفع سمك جامع قرطبة بطريقة اصيلة مبتكرة استلهمها فيما يبدو من نظام طابقى العقود بجامع دمشق .

صحيح ان جامع دمشق يتميز بوجود صفين من العقود المتراكبة(٧)، قوامها وجود نوافذ مفتوحة توامية مفتوحة فى الجدار القائم باعلى العقود الرئيسية، نافذتان باعلى كل عقــد ، تستخدمان فيما بينهما على عمود اوسط صغـــير الحجم(٨) ، ولكن هذه المجموعة الدمشقية تختلف من حيث المظهر والحجم وحتى الوظيفة عن نظيرتها فى جامع قرطبة ، ومما لا شك فيه أن عقود جامع قرطبة اتخذت صورة جديدة فى تاريخ العمارة الاسلامية املتها عناصر البناء وموادها المتوافرة والحاجة الى زيادة ارتفاع اسقف الجامع عن طريق الدعائم العليــا . واذا قارنا بين عقود جامع قرطبة الموزعة على طابقين ، وعقود دمشق الفينــا اختلافا واضحا بين النوعين ، فالعقود المزدوجة أو التوامية بدمشق لا تعـدو أن تكون فتحات معقودة صغيرة فى جدار يعلو العقود الكبيرة السفلى ، فى حين تبدو العقود السفلى ، بقرطبة كما لو كانت طائرة فى الهواء بين صفى الدعائم العليا والعمد السفلى ، استهدف البناء القرطبى منها ابراز فكـــرة الربط بين الدعائم العليا المرتكزة على الاعمدة السفلى .

اما اذا قارنا بين عقود جسر المعجـزات بماردة والعقود القرطبية نجـد أن

---

(٧) Creswell, a short account of early Muslin architedture, penguin Series, 1958, p. 227.

(٨) Terrasse, L'art Hispano Mawresque, p. 11.

الدائرة العليا من عقود جسر السفلى ليست طائرة فى الهواء كما هو الحال فى العقود السفلى بقرطبة اذ ان لها بنيقات مليئة بالبناء تمتد بأعلى العقد كالشأن فى العقود التوأمية بجامع دمشق(٩) • أما عقود قرطبة فعلى الضد من ذلك عقود متحررة منطلقة يمكن أن تقوم بمفردها دون ان تندمج مع عقود اخرى كما يمكن ان تتقاطع معها مؤلفة شبكة من العقود والنحور على غرار تشبيكات قواعد قباب الزيادة الحكمية فى المسجد الجامع بقرطبة • وثمة اختلاف آخر بين العقود الطائرة فى جسر المعجزات بماردة ونظائرها فى جامع قرطبة هو أن العقود فى ماردة اتخذت من الآجر وحده بينما تتعاقب فى الدعائم مع الكتل الحجرية فى توافق يجعلها تبدو كما لو كانت قد تأثرت هى بالعمارة القرطبية • اما فى قرطبة فنظام تناوب كتل الحجارة الباهتة الصفراء مع قوالب الآجر الحمراء ، أكسب بنية هذه العقود جمالا على جمالها ، وأسهم على حد قول العالم الاثرى الاسبانى مانويل جومث مورينو «فى تهيئة المؤمن للتطلع الى ما وراء الحس فى صلاة خاشعة مؤديا لله فرضه ، معتزا له بعبوديته حياله . ولا يأتى للخلق المعمارى ان يكون اكثر من هذا كمالا على ما يوحى به ذلك المثل الدينى فى بساطته وتجرده»(١٠) ، هذه العقود القرطبية لهذا السبب عقودا اصيلة مبتكرة، وعلى هذا الاساس لا يصح أن نقارن ظاهرة العقود المتراكبة فى جامع قرطبة بعقود جسر المعجزات بمارده لاختلاف وظيفة كل من البنائين من جهة ، واختلاف طريقة الاداء من جهة ثانية واختلاف الاحجام والنسب بينهما من جهة ثالثة، واختلاف الظروف الزمانية التى أقيم فيها كل منهما من جهة رابعة • والمقارنة على هذا النحو تعمد واضح لتجريد مظاهر الاصالة والابتكار من العناصر المعمارية بجامع قرطبة وارجاع الافكار الجديدة فيها الى اصول رومانية لاعلاقة لها قط بأثرنا موضوع الدراسة •

ويؤكد استاذنا الراحل الدكتور أحمد فكرى ان فكرة العقود المتراكبة فى جامع قرطبة ليست ابتكارا فريدا فى تاريخ العمارة فحسب بل انها تصور منطقى للعقود الهندسية العربية(١١) ، ويفند رأى الاستاذ جورج مارسيه احد علماء الآثار الاسلامية فى العقود المزدوجة بجامع قرطبة فيقول : « ومن امثلة

---

(٩) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، ج ١ ص ٣٢١ •

(١٠) جومث مورينو ، الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ص ٣٠ •

(١١) احمد فكرى ، المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ، ١٩٦١ ص ١٤ •

ذلك ما قيل عن العقود المزدوجة فى مسجد قرطبة ، وهى عقود فريدة فى تاريخ العمارة لم يعرف لها نظير قبل بنائها فى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥م) ولكن (جورج مارسيه) وهو حجة العلماء فى الآثار الاسلامية بالمغرب والاندلس قد عز عليه ان تكون هذه العقود ابتكارا عربيا ، فادعى انها اقتبست من قناطر (مريدا) فى اسبانيا(١٢) ، ونشر رسما يؤيد ادعاءه هذا • ولكن هذا الرسم المنشور •• رسم مصطنع ، فقد كبرت فيه عقود قرطبة وضخمت بحيث تبدو فى الرسم نظيرة لعقود القنطرة العتيقة • امـا الحقيقة فغير ذلك ، وهى التى تظهر فى الرسم المنشور ••• اذ تظهر قنطرة (مريدا) على حقيقتها فى رسمى•••وتظهر النسبة الحقيقية بين عقودها وعقود قرطبة • وتنعدم أوجه الشبه والصلة بينهما هذا فضلا عن أن العقود المزدوجة فى مسجد قرطبة تؤدى وظائف محدودة، ولا توحى العقود المزدوجة فى (مريدا) بهذه الوظائف(١٣)•

ويقر جمهور كبير من الباحثين المحدثين ـ مع ذلك ـ باصالة عقود جامع قرطبة وعدم وجود امثلة مناظرة لها سبقتها فى أى مكان آخر •ويعبر عن ذلك عالم كبير من علماء الاثار الاسلامية هو الاستاذ كريزول ، فيقول : « لقد قيل ان هذا النظام القرطبى استلهمه مهندس الجامع من العقود المزدوجة بالجسور الرومانية ، مثل الجسر المعروف بلوس ميلاجروس بماردة ، ولكن العقود القرطبية هنا ليست مثلها ، ولذلك فاننا يجب أن نعطى مهندس الجامع

---

(١٢) يقول مارسيه فى كتابه L'artmusulman « ان قناطر الماء الرومانية ذات الاقواس الرابطة يمكن أن تكون قد اوحت بفكرة هذه الطريقة المعمارية التى كان تطبيقها فى النظام الداخلى للمسجد أصيلا كل الاصالة» (مارسيه ، الفن الاسلامى ، ترجمة د • عفيف بهنسى ، دمشق ١٩٦٨ ص ١٤١) • ويقول فى كتاب آخر : « ان ابتكار هذه الفكرة (يقصد تراكيب العقود وازدواجها فى قرطبة) يمكن ان قد استلهمه البناة من بعض جسور المياه الرومانية التى تحملها ارجل مرتفعة يدعمها طابقان من العقود ، ومن المعروف ان هذا النوع من الجسور قائم فى المغرب والاندلس لا سيما جسر مارده المسمى بلوس ميلاجروس »
Marçais, Manuel d'aif mecsulman, t. I, pavis, 1962, p. 231
فقد تكرر ذلك فى كتابه :
(L'architec·ture musulman d'Occident, p. 147

(١٣) احمد فكرى ، المرجع السابق ، ص ١٣ ، ١٤ •

ما يستحقه من الاصالة لتوفيقه الى هذا الحل البـــارع الذى لا يوجد له نظير فى أى مكان(١٤)٠

كذلك يعبر الاستاذ هنرس تراس عن أصالة الحل القرطبى لمشكلة زيــادة رفع اسقف الجامع وبعد نظام العقود المتراكبة بالجامع القرطبى عن نظـائرها بجامع دمشق من جهة وجسر ماردة من جهة ثانية ، فيقول : « ولكن لا يوجـد موضع ببلاد الشام نشهد فيه عقودا متراكبة تماثل فى الشكل وفى العظمــة عقود قرطبة ٠ وكذلك ظن بعضهم ان مهندس عبد الرحمن الداخل قـد استلهم فكرة العقود المتراكبة من بنيان جسور المياه الرومانية،او قد يكون قد استلهمها من جسر المياه بماردة احدى روائع الآثار المعمارية فى اسـبانيا الرومانية ، الا ان البازيليكيات السورية وجســور المياه الرومانية ليست فى الحقيقة ســوى نمــاذج بعيدة عن عقود قرطبــة المتراكبــة ٠ والى شيخ عـرفاء البنــاءين لدى عبد الرحمن الداخل يرجع بلا شك الفضل فى التوصل الى هذا الحـــل الجديد والجرىء ، وتنفيذه بمثل هذا التأنى ٠ هذا الابتكار مثل غيره من الابتكــارات انما جاءت وليدة الحاجة» (١٥)٠

ثانيا ــ تشبيكات العقود بقواعد القباب :

وينقلنا الحديث عن العقود الهوائية المعلقة بين الاعمدة السفلى والدعــائم العليا الى الحديث عن مظهر آخر من مظـاهر الاصالة فى بنيان جامع قرطبة يرتبط بالمظهر الاول كل الارتباط واعنى به شبكات العقـــود التى ترتكز عليها القباب ٠ فمن المعروف ان الخليفة الحكم المستنصر بالله توج زيادته فىالمسجد الجامع بقرطبــة سنة ٣٥٤ هـ باربع قبــاب توزعت على البلاط الاوسط المـؤدى الى المحراب والاسـكوب الموازى لجدار القبــلة وذلك فى زيارته المذكورة : وأول هذه القباب القبة المخرمة الكبرى(١٦) القائمة علىمدخل البلاط الاوسط من الزيادة الحكمية ، ويسميها ابن عذارى أيضا بالقبو الكبير(١٧) ، فى حين يطـلق عليها

(١٤) Creswell, a short account, p. 228.
(١٥) Terrasse, L'art Hispano, mauresque, p. 62, 63.
(١٦) راجع نص ابن النظام الذى نشره ليفى بروفنسال فى مجلة Arabica مجلد ١ ، قسم ١ ليدن ١٩٥٤ ص ٩١ ، ٩٢ ٠
(١٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ طبعة صادر بيروت سنـة ١٩٥٠ ص ٣٤١

الاستاذ جومث مورينو اسم قبة الضوء(١٨) • وثانيها القبة التى تتقدم جـوفة المحراب ، وهى نفس القبة الكبرى فى تسمية الادريسى(١٩) وابن سعيـد(٢٠)، والقبة العظمى فى تسمية ابن غالب الاندلسى(٢١) • واخيرا القبتان اللتـــان تكتنفانها شرقا وغربا ، • وتتميز هذه القباب بالاضافة الى ما احدثته من تناسق وانسجام فى بلاط المحراب بان « ظهورها مؤللة وبطونها مهللة »(٢٢) ، فهى من ظاهرها مدببة الشكل اذ يعلو عنقها المثمن سطح مدبب من ثمان اوجـــه بدلا من الشكل المنشورى العادى • اما بواطنها فتتكون من ضلوع بارزة تتخـــذ اشكال عقود منفرخة اشبه ما تكون بالاهلة تتقاطع فيما بينها • وقـــد يكون المقصود بمهللة انها مشرقة بما تحتويه من اشكال نجمية وقـــواقع زخرفية مذهبـــــة •

ولما كانت القباب تتطلب دعائم ضخمة الهدف منها تلقى الدفع الذى تمارسه هذه القباب بما تحتويه من ضلوع حجرية متقاطعة ومتكآت الرخام ، وهى مهمة تحتاج الى ركائز ضخمة لا يمكن ان تؤديها وحدها الاعمدة الرخامية الضعيفـة المغروسة فى بيت الصلاة ، فقد كان من الطبيعى أن يفكر المهندسون فى حـل لهذه المشكلة يكفل تحقيق الدعم المطلوب مع تجنب اقامة دعائم او ركائز عنـد المقصورة الخلافية لان وجود هذه الدعائم المفترض اقامتها من شانه أن يقطـع وحدة نظام التدعيم المعمارى فى المسجد ، ويفسد المظهر الجمالى الـــذى يسود بيت الصـلاة ، ويحجب أروع العنـاصر المعمارية والزخـرفية فى بيت الصـــلاة عن انظار جموع المصلين • وقد اثبت عرفاء البناء القرطبيون براعتهم فى حـل المشكلة على نحو اصيل : ففى كل من الركنين الاماميين للاسطوان المزدوج الذى ترتفع عليه قاعدة قبة المحراب ، ركز العرفاء عمودين بدلا من عمود واحـــد ، ونصبوا فى الفراغ القائم بينهما عمودين آخرين فى الواجهة الشمـالية وعمود

(١٨) جومث مورينو ، الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ص ١٤١ •

(١٩) الادريسى ، وصف المسجد الجامع بقرطبة ، تحقيق ديسيه لامـار ، الجزائر ١٩٤٩ ص ٢ •

(٢٠) المقرى ، نفح الطيب، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ج ٢ ص ٨٩•

(٢١) ابن غالب الاندلسى ، قطعة من كتاب فرحة الانفس ، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع ص ٢٩ •

(٢٢) المقرى ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ٨٩ ، ٩٢ •

واحد فى كل من الجانبين القصيرين من جوانب الاسطوان المزدوج ، وامكن لهذه الاعمدة ان تحمل طابقين من العقود : الادنى من النوع خماسى الفصوص، والاعلى من النوع المتجاور المنفوخ ، وحرصا على تشبيك الطابقين على نحو يتيح توزيع الضغط العلوى توزيعا منظما اوصل العرفاء بينهما نحورا(٢٢) مستديرة ومفصصة ناتئة ، تمتد بين رؤوس العقود المفصصة السفلى يمينا ويسارا لتلتحم ببطون العقودالعليا مؤلفة بذلكتشبيكا متماسكا يسهل بواسطته توزيع الدفع العلوى الذى تمارسه القباب توزيعا يجنب تركيزه على الاعمدة٠

اما فيما يتعلق بالقبة المخرمة الكبرى فقد اكتفى العرفاء باقامة اربعة أعمدة مصلبة فى اركان القاعدة ساعدت على دعم القبة ، وساهم فى ذلك عمردان متوسطان وعقد المدخل الى زيادة الحكم ، وهو عقد مزدوج مفتوح فى الجدار الضخم الذى اقامه الحكم المستنصر ٠ ولضمان استقرار القبة على قاعدة ثابتة قوية ، وتوزيع دفعها توزيعا مريحا مع تجنب اى تركيز فى الثقل قد يؤدى الى تصدع القباب وانهيارها ركب العرفاء فى قاعدة هذه القبة ايضا عقودا مفصصة اخرى ونحورا رابطة بحيث تالفت من ذلك شبكة معقدة متداخلة حلت مشكلة التدعيم باصالة حلا رائعا٠ويعلق الاستاذ توريس بلباس على ذلك بقوله :«ان المهندس الذى ابتكر فى النصف الثانى من القرن الثامن البنية الاصلية التى يعبر عنها نظام طابقى العقود المتراكبة والعقود السفلى المنطلقة فى الهواء ، المتحررة من كل قيد ، ومن كل دفع يمارسه السقف أو السطح القرمد ، هذا المهندس البارع ، خلفه بعد مائتى عام مهندس طور الموضوع ، وعقد فى شكل الحنايا والاقواس ، فشبكها ، ورفع فوق نظام التدعيم الواهن قواعد ضخمة ثقيلة ، تتوجها قباب من الحجر ، كل ذلك تم ببراعة فنية يمكن ان يؤديها بناء، ونفذ بحساسية مرهفة يعبر عنها فنان(٢٤) ٠ والواقع ان مهندسى الحكم المستنصر بتشبيكهم لهذه البنية(٢٥) على هذا النحو من الابداع الفنىوالاصالة، اثبتوا نجاحهم فى تطبيق فكرة تقاطع الخطوط الزخرفية على عناصر معمارية،

---

(٢٢) الادريسى ، المصدر السابق ، ص ٦ ٠

(٢٤) Torres Balbàs, Arte Califal, op. cit., p. 305.

(٢٥) ورد هذا الاصطلاح «تشبيك» فى النقش التاريخى الذى يغطى الطرة الكبرى التى تحيط بعقد المحراب (راجع :
(Levi-provençal, Inscriptions Arabes, p. 15.

والفكرة في حد ذاتها ثورة معمارية وابداع اصيل لم يسبق اليه فن معماري ، ذلك أن تقاطع العقود وتشابكها له ميزتان اشار اليهما ابن عذاري هما الوثاقة والجمال(٢٦) . وقد حرص مهندسو الحكم على بناء قباب قوية وثيقة البنيان على عمد مرتفعة للغاية حتى تتيح للضوء أن يتسلل من متكآت الرخام بنوافذ القباب وينفذ من تشبيكاتها الى متصورة الجامع ، ويحدث في نفس الوقت التاثير الجمالي اللائق بالقبلة . وكما وفق مهندسو الحكم في قباب المقصوره وفقوا أيضا في قبة المدخل بالزيادة الحكمية المعروفة بالقبة المخرمة الكبرى المجاورة لمصلى فيلافثيوسا . هذه القبة تقوم على تشبيك من العقود المفصصة: السفلى منها تؤدي وظيفة معمارية ، اما النحور التي تعلوها فمظهرها زخرفي خالص ، وان كانت تخفي تحتها بناء من الحجر له قيم بنائية واضحة . ولاشك أن تقاطع العقود المفصصة مع اخرى متجاوزة منفوخة يشكل ابتكارا معماريا، فمن وظائف هذه التشابكات لحم طبقات العقود فيما بينها وتوزيع الضغوط التي تمارسها القباب عليها توزيعا أكثر منطقية(٢٧) .

*

ثالثا ـ فكرة تنفيذ الضلوع البارزة المتقاطعة التي تقوم عليها كسوة القباب :

ينقلنا الحديث عن تشبيكات القباب الى الحديث عن القباب نفسها ، وهي قباب تقوم على عقود بارزة نصف دائرية من حجر منجور تتقاطع فيما بينها، تاركة في وسطها فراغا مثمن الشكل (في القباب الثلاثة المتجاورة بالمقصورة) ومربع الشكل في القبة المخرمة الكبرى ، تشغله قبية مفصصة ، ويغطي الفراغات الواقعة ما بين الضلوع المتقاطعة أو المتخلفة من التقاطع كسوات حجرية تختلف في مستوياتها ، وتطبق في هذه الفراغات في جميع القباب الاربعة قبيات دقيقة وقواطع ومحارات مفرغة ومضلعة وزخارف نباتية بارزة

---

(٢٦) في ذلك يقول : « وقصد ابن ابي عامر في هذه الزيادة (يقصد الزيادة العامرية في المسجد الجامع بقرطبة التي شرع فيها سنة٣٧٧هـ) المبالغة في الاتقان والوثاقة دون الزخرفة ، ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جوده ما عدا زيادة الحكم » ابن عذاري ج ٢ ص ٤٢٨ .

(٢٧) Ricard pour comprendce l'ast musulmon dans. l'Afrique du Nosd et en Espagne, paris, 1924, p. 132 - M : Qomez Moreno, el entrecruzamiento de arcadas de la arquitecura aràbe, Cordobs, 1930 - Marçais, l'Acchitecture musulmane d'Occident, p. 148.

و سكال ـحميه وصوره مصغره نقسيبت دقيقه فائمه ءى الصلوع باسستنـــا
ـه المحراب التى كست مراعانها د ـجارمـ مذهبة من الفسيفساء ٠

ونلاحظ ان القاعدة المربعـة بتحول مى القبـات الثلاثة التى تعلو مقصـوره الجامع تجاه المحراب الى طابق مثمن عن طريق جوفات مقوسة معقودة تشغل الأركان الأربعـة للقاعدة ، وتنبت من حـدائر العقود الثمانية التى تشغل عنق كل من القبتين المجاورتين لقبة المحراب ضلعان بارزان قطاعهما مستطيـــل الشكل . يقومان على عمود واحد (وعلى عمودين فى قبة المحراب) ٠ وتتقاطع هذه العقود البارزة فيما بينها مؤلفة مراغا مثمنا ترتكــز عليه قبة مضلعة او مفصصة ٠ اما قبة المحـــراب فتغطيها كسوة من الفسيفساء المذهبة تقـــوم زخارفها على التوريقات او على العنـــاصر الهندسية الشطرنجية التى تمـــلا مصروص القبوة المركزية وتغمر الضلوع وما بينها ؛ اما القبة المخرمة الكبـرى فتقوم على قاعدة مستطيلة الشكل ، ويتخلف من تقاطع الضلوع مربع مركـزى تتوسطه قبة مضلعة ٠

ويهمنا من هذه القباب ضلوعها البارزة المتقاطعة فيما بينها والتى تـؤلف الهيكل الرئيسى للقبة ٠ وقد بحث مؤرخو الفن فى أصل القبوات ذات الضلوع المتقاطعة ، ولكنهم لم يهتدوا الى مثل واحـد اقدم مى تاريخه من امثلة قبـاب جامع قرطبة ٠ غير أن بعضهم توصل الى امثلة متاخرة يرجـع تاريخها الى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى العراق وايران ، وكلها من الآجر ، أمـا المثل الحجرى الوحيد للقباب القائمة على الضـلوع المتقاطعة او المتشابكة فى قرطبة فيتمثل فى كنيسة اشبط الواقعة الى الشمال من ارمينيا وقد اقيمت فيما يقرب من سنة ١١٨٠ م وهو تاريخ متأخر كثيرا عن تاريخ انشاء قباب قرطبة٠ وهناك عدد من الباحثين يرجعون اصل قباب قرطبة الى القبوات ذات الضلوع بالجامع الكبير باصفهان ، ولكن هذه القبوات لا يمكن ان تتخذ مصدر القباب قرطبة لعاملين الاول ، انها تعرض نظاما اوليا للضلوع المتقاطعة يشبـه الى حد ما نظام القباب القرطبية ولكنه لا يعد اصلا لها(٢٨)، والثانى ، انها ترجـع الى القرن الحادى عشر الميلادى الامر الذى يحملنا على القول بأن قرطبة هى

---

(٢٨) Torres Balbàs, Arte Califal, pp. 521 - 524.

التى ما بعثت تأثيرها على القباب الشرقية • ويعتقد الاستاذ ايلى لامبير ان اصول قباب قرطبة وقبوات ارمينيا لا بد ان تكون واحدة ، وانها قد تكون فى احدى المقاطعات البيزنطية او الساسانية بآسيا ، وفى نفس الوقت لاحظ وجود تقارب واضح المعالم بين انفصال الضلوع فى قباب جـامع الزيتونة بتونس وبين نظائرها المتقاطعة فى جامع قرطبة على الرغم من ان ضلوع هـذه القبـاب التونسية المتشععة من مركز القبة لم يصل بعد الى المرحـلة التى تستقل فيها الضلوع عن غطاء القبة وان كانت فى الوقت نفسه اكثر بروزا من ضـلوع قبة المحراب بجامع القيروان(٢٩) •

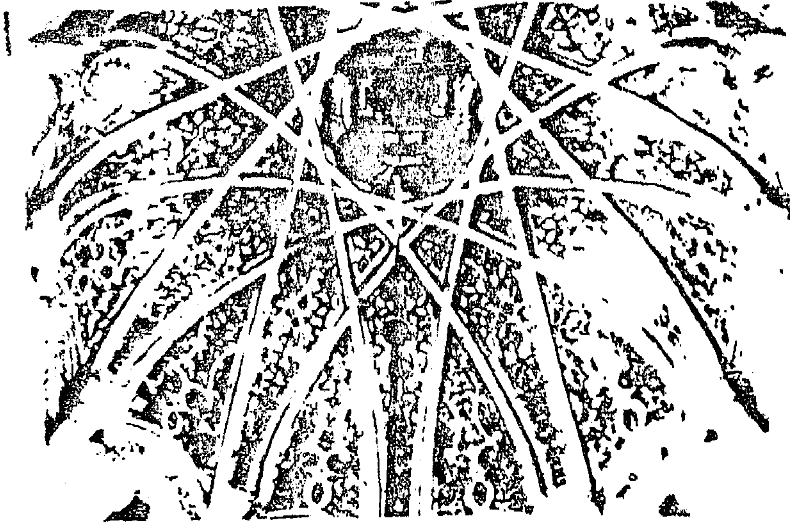
وعلى هذا النحو أصبح من الثابت ان قباب قرطبة هى أقدم امثلة القبـاب ذات الضلوع المتشابكة • والى مهندسى الحكم المستنصر يرجع الفضل بلا شك فى ابتكار هـذا النوع من القباب الذى أحدث ظهوره ثورة هندسية كبرى فى العالم الوسيط : فان نظام التنقيب القرطبى القائم على تقاطع الضلوع لم يلبث ان انتقل من قرطبة الى طليطلة حيث نراه ممثلا فى قبوات المسجد المعـروف بمسجد الباب المردوم واليوم كنيسة الكريستو دى لالـوث ومسجد الدباغين المعـروف بلاس تورنيرياس وكلاهما من القرن الحـادى عشر الميلادى ، ومنهـا انتشر استخدام القباب ذات الضلوع المتقاطعة انتشارا كبيرا فى مسـاجد الاندلس والمغرب فى عصر الطوائف وعصر دولتى المرابطين والموحدين ، وفى كنائس اسبانيا المسيحية المستعربة او ذات الطـراز الرومانسكى وامثلة من الكنائس ذات الطراز القوطى • وظل استخدام القباب ذات الضلوع منتشرا فى الاندلس والمغرب وان كانت قد غلبت عليه السمة الزخرفية الجمالية الى ان وصل الى ذروة الاسراف الجنونى فى قبة المحراب بالمسجد الجامع بتلمسان من عصر المرابطين وقبة المحراب بجامع رباط تازى من عصر الموحدين ، واختلطت الضلوع البارزة بالمعترضات اختلاطا مذهـلا فى قبتى الاختين وقاعة بنى سراج بقصر الحمـــراء •

اما فى العمارة المسيحية ، فقد انتقلت فكرة الضلوع المتشابكة من قرطبة

---

(٢٩) Lambert, L'architure musulmane au Xe Siécle, Tazette des Beaux Arts, t. xII, 1925 - Lambert, les coupoles mosquées de Tunisie et de lEspagne au Ixe et Xe siécle's Hesperis. t. XXII fasc. II 1936.

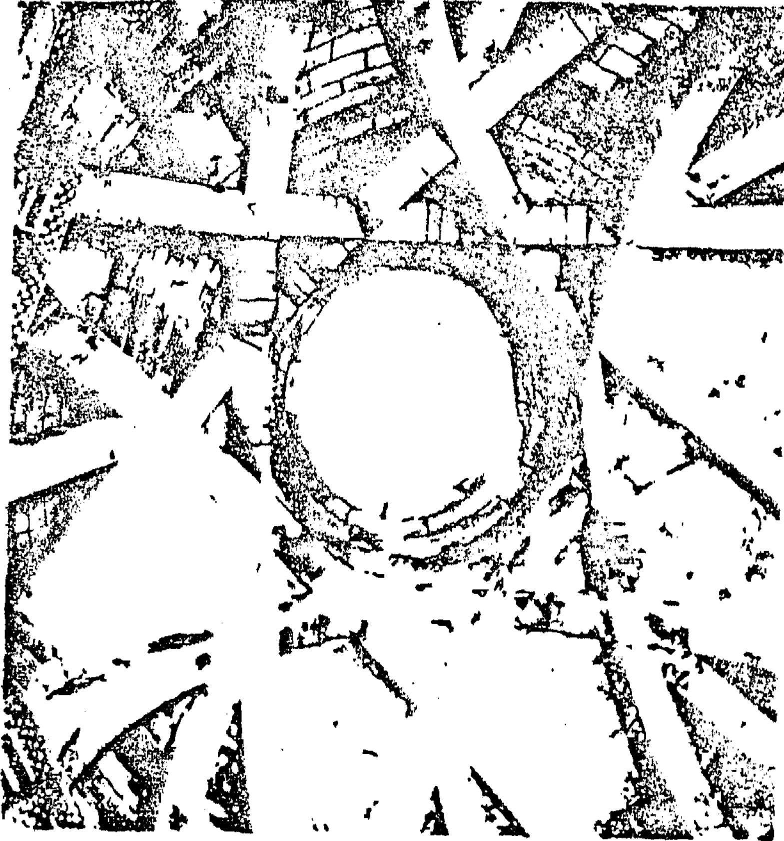
لوحة ٥



أ قبة المحراب بالمسجد الجامع بتلمسان



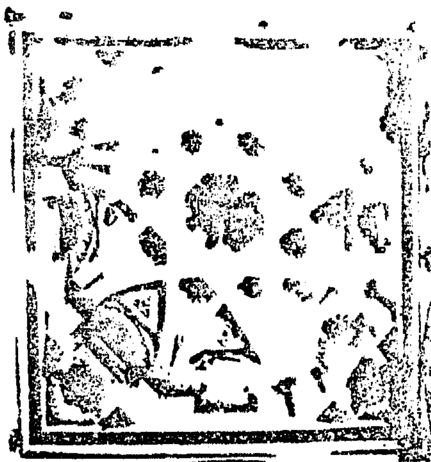
ب ـ قبة المحراب ـ
جامع تازي بالمغرب



قبة كنيسة الضريح المقدس توريس د... و (نافار)



ه محراب جامع قرطبة



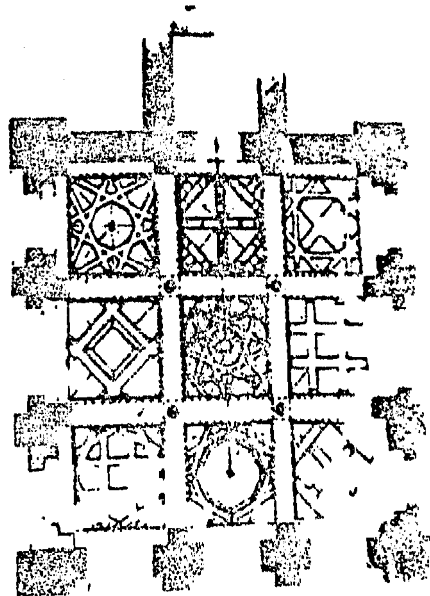
إحدى القبتين المجاورتين لقبة
المحراب بجامع وصه



... المنشية من صدر المحراب بجامع عبد الرحمن الداخل

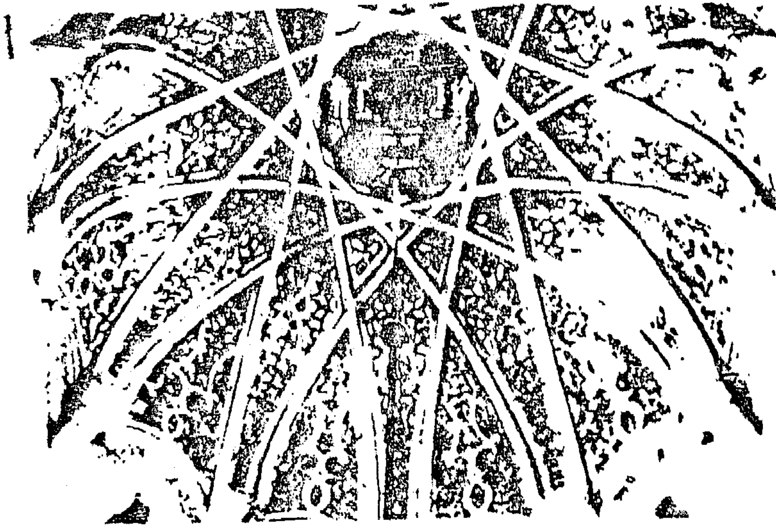


قبة كنيسة سانت كروا باولورون فرنسا



قبوات مسجد الباب المردوم بطليطلة

لوحة ٥



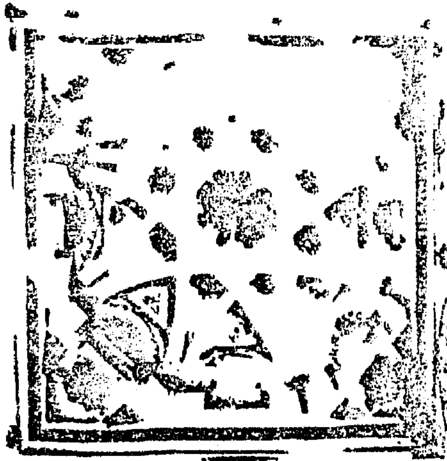
ا قبة المحراب بالمسجد الجامع بتلمسان



ب - قبة المحرا -
جامع تازى بالمغرب



قبوة كنيسة الضريح المقدس بثوبس دي ... و (ناقار)



إحدى القبتين المجاورتين لقبة
المحراب بجامع قرطبة



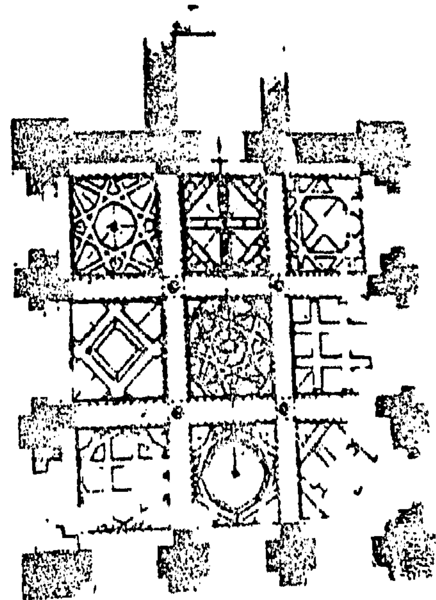
قبة محراب جامع قرطبة



... اء الشبه من عمد المحراب بجامع عبد الرحمن الداخل



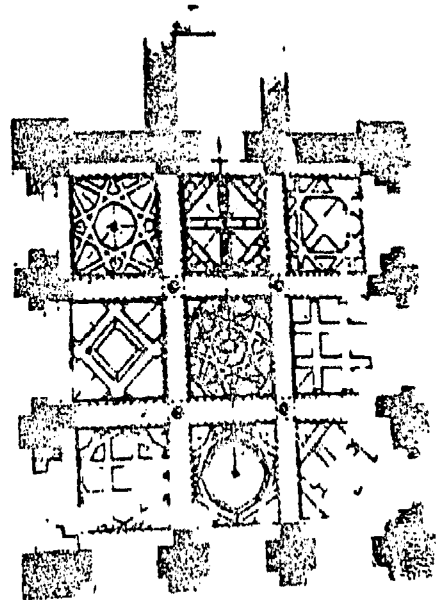
قبة كنيسة سانت كوروا باولورون فرنسا



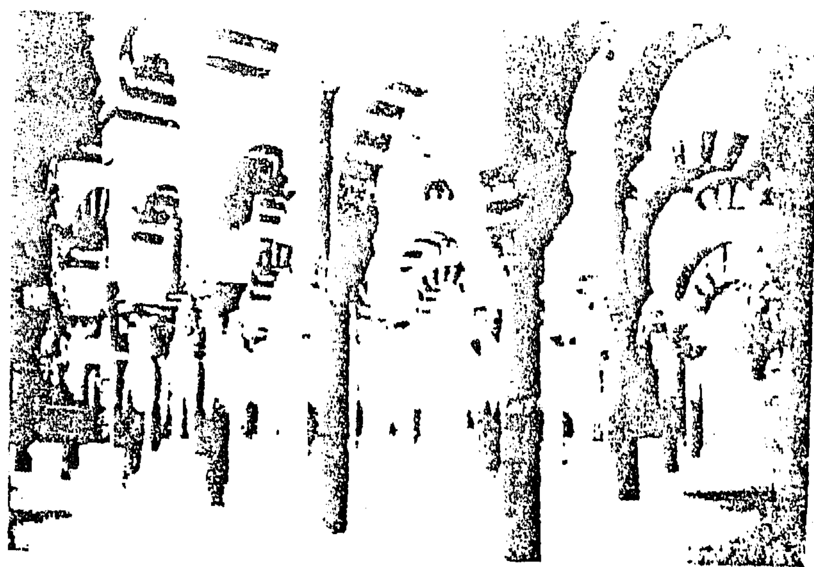
قبوات مسجد الباب المردوم بطليطلة

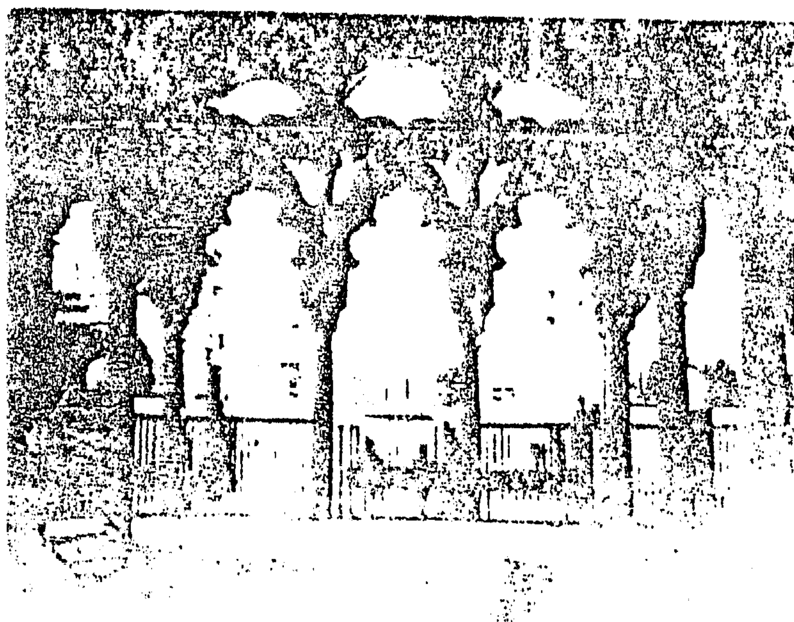


قبة كنيسة سانت كروز باولوروس قرب



قنوات مسجد الباب المردوم بطليطلة





وطليطلة فى القرن الحادى عشر الى اسبانيا المسيحية ، وسرت فى العمـــائر ذات الطراز الرومانسكى الاسبانية والفرنسية ، فطغت على نظـــام التقبيب المصلب فى المزان بقشتالة ، وقبوة مصلى توريس دل ريو بنافارة وقبوةكنيسة سانت كـــروا باولورون وقبـــوة مستشفى سان بليز المعروف بمستشفى الرحمة(٢٠) بمنطقة جبال ابرانس بفرنسا وكلها ترجع الى نهاية القرن الثانى عشر ، هذا الى قبوات اخرى اسبانية مماثلة ٠ منها قبوة مقصورة تالافـــيرا بشلمنقة التى تذكرنا بقبوة صومعه جامع الكتبية بمراكش او قبوة بهو البنود بقصر اشبيلية(٢١) ، وقبوات اخرى اقل تعبيرا للتاثير القرطبى فى منـــاطق عديدة من فرنسا كانت على علاقة وثيقة باسبانيا فى القرنين الحـادى عشر والثانى عشر بجاسكونى ولا نجدوك واكيتانيا وانجو ونورماندى ٠

ومما لا شك فيه ان القباب القرطبية كان لها اعظم الاثر فى الهام الفنانين الفرنسيين فى منطقة ايل دى فرانس الى الحل المعمارى الفريد الـــذى تكشف عنه القبوات القوطية(٢٢) عندما وفقوا الى فكرة دمج الضلوع القرطبية فى القبوه المتعارضة عن طريق دعم الاجزاء البارزة من هذه القبوة الاخيرة بادخال نظـــام الضلوع المتقاطعة المصلبة ٠ ولم يلبث هذا الابتكار ان طبق فى تغطية مسطحات واسعة بالكنائس والكاتدرائيات عوضا عن مواضع ضيقة محصورة ، واستغل هذا الابتداع الذى توصل اليه عرفاء نورمندى وبريطانيا فى كنيسة درهـــام سنة ١١٠٠م(٢٣) عن طريق عبوات وادى اللوار فى التطور به بعد ذلك لخلق مظهر جمالى لا مثيل له ٠

---

(٢٠) Lambert, l'hôpital Saint-Blaise et son église hispanomauresque, Revista Al - Andalus, 1940, pasc.I; pp. 179-189. Emile Mâle, Art et artistes du moyen âge, paris, 1947; p. 73.

(٢١) José Camon Aznar, la boveda gòtico-morisca de la capilla de Talavera en la catedral Vieja de Salamanca, al-Andalus Vol. V, Fasc. I, 1940, p. 176.

(٢٢) Torres Balbas, la progenie hispanomusulmana de las primeras bovedas nervadas francesas, al-Andalus, Vol. III 1935; pp. 398-410- Lambert, les voûtes nervées hispano-musulmanes du ' XIe siécle et leur influence possible sur l'art chrétien; Hesperis, 1928.

(٢٣) Lemlert, les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et d'Espagne au IXe sié cles, Hesperis, 1936.

فهارس المصطلحات الفنيـة لموسوعة
مساجد القاهرة ومدارسها للاستاذ الدكتور احمد فكرى

للاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف

فيما بين عامى ١٩٦٢ و ١٩٦٩ ، ظهر المدخل والجزءان الاول والثـانى من موسوعة « مساجد القاهرة ومدارسها » لاستاذنا المرحوم الدكتور احمد فكـرى ويتناول المدخل دراسات فى الآثار العربية والاســلامية ، وآثار العرب قبل انشاء القاهرة . وتخطيط المساجد المعروفة قبل انشاء القاهرة . اما الجـزء الاول فهو خاص بالعصر الفاطمى . ويتعلق الجزء الثانى بالعصر الايـوبى . ظهرت هذه الموسوعه القيمة . لتسد فجوة كبيرة من مكتبة الحضـارة والآثار الاسلامية . ليس فى العالم العربى والاسلامى فحسب ، وانما فى بقية العالم المتحضر بوجه عام . ظهرت لتحتل المكانة اللائقة بها بين غيرها من الموسوعات العالمية . ولتضيف الى العلم والثقافة الانسانيه الشىء الكثير ، وينهـل من فيضها الباحثون والدارسون من عرب ومستشرقين ، اساتذة وطلابا على السواء. وكم أود ان نرى بقية اجزاء هذه الموسوعة النور . واعنى بذلك الجزئين الثالث والرابع ، ويتعلقان بعصر دولة المماليك البحرية ، خاصة وان استاذنا الدكتور احمد فكرى كان قد اعد مادتهما العلمية ، قبل وفاته بوقت قصير .

ان الاجزاء التى ظهرت من «مساجد القاهرة ومدارسها» ، تضاف ، فى الحقيقة ، الى تراث علمى ضخم ، للمرحـوم الدكتـور احمد فكرى ، كتبه باللغتين العربية والفرنسية ، واثرى به مكتبة الدراسات الاسلامية ، فى مجال الحضارة والآثار ، وتناولته بالعرض والتحليل والتقريظ ، مختلف المجـلات والدوريات العلمية العالمية .

والى جانب ذلك ، اشترك استاذنا الكبير ، فى كثير من المؤتمرات العلمية فى مجال تخصصه ، داخل الوطن العربى وخارجه ، اسهم فيها بـدور ايجابى ملموس ، شهدت له به كافة المحافل الدولية .

كما ترأس بعثة جـــامعة الاسكندرية العلمية بالاشتراك مع جـــامعتى متشيجان وبرنستون بامريكا ، الى دير سيناء ،فيما بين عامى ١٩٥٨،١٩٦٣ للقيام ببعض الدراسات التاريخية والفنية والاثرية فى منطقة الدير • وكنت ضمن أعضـــاء هـــذه البعثة ، حيث قمت بزيارة المنطقة مرتين فى آواخـــر سنة ١٩٦٣ • وقد كشف اتصالنا المباشر ، نحن اعضاء البعثة ، بالدكتـــور فكرى ، عن شخصية العالم والانسان والرجل • كان رجلا بكل ما تعنيه هـذه الكلمة •• وكان انسانا يفيض قلبه الكبير بالحب والرحمـــة والتعاطف ••

وكان عالما جليلا عملاقا •• فبين كبار المتخصصين فى ميدان الحضارة والآثار الاسلامية ، يقف المرحوم الدكتور احمد فكرى ، علما من ابرز اعلامه ، ورائدا من أشهر رواده ••• يقف شامخا بما خـــلف للانسانية من تراث حضـــارى ضخم ، ومدرسة تنهج نهجه العلمى السديد ، وتنتشر فروعها فى مختلف انحاء العـــالم ••

هذا عن المرحوم الدكتور احمد فكرى العالم والرجل والانسان • واذا عدنا الى موسوعته « مساجد القاهرة ومدارسها » التى بدانا بها الحديث ، اقـــول انه كان شرفا كبيرا لى ان اعد منذ حـــوالى تســـع سنوات مضت ، فهارس الاجزاء التى ظهرت منها وهى : المدخل ، والجزء الاول عن «العصر الفـاطمى» والجزء الثانى عن «العصر الايوبى» • وهذه الفهارس هى « فهرس الاعلام » ، و « فهرس الاماكن والآثار » ، و « بيان بالآثار الوارد ذكرهــا فى الكتاب » • وقـــد نشرت فى ختـــام الجزء الثانى من الموسوعة ، من صفحـــة ٢٠٥ الى صفحـــة ٢٥٣ •

واستكمـــالا لهذه الفهارس المصنفة ، اعـــددنا فهرسا ابجديا خاصـــا بالمصطلحات الفنية العربية والمعربة ، الوارد ذكرها فى الاجـــزاء المنشـــورة من الموسوعة • وقد أشرنا فيه الى المدخل بحرف «م» والجزء الاول بحرف «ف» والجزء الثانى بحرف «ى» تمشيا مع نفس الاسلوب الذى اتبعنـــاه بالنسبة للفهارس المنشورة السابق الاشارة اليها •

وقد راعينا فى هذه الفهارس التى اعددناها ذكر المصطلحات الفنية بالمفرد والجمع مع ترتيبها ترتيبا ابجديا • مثال ذلك ، أثبتنا تحت حرف « الالف »

كلمة (اسكوب ، والجمـــع (اساكيب) ، و (ايوان) ، والجمع (أواوين أو ايوانات) ، و (بائكة ، والجمع (بوائك) ، و (توريق) والجمع (تـواريق أو توريقات) ، و(سارية) والجمع (سوارى) ، وهكذا الى آخر الفهارس ، مع اثبات أماكن وجود هذه المصطلحات فى الاجزاء المنشورة من الموسوعة · هذا ومـع كل مصطلح فنى ، أوردنا تفصيليا اشكاله وانواعه وعناصره الزخرفية · مثـــال ذلك ، تحت كلمة « الخط العربى » ، أشرنا الى «الخط الكـــوفى» واشكـــاله وعناصره الزخرفية · فهناك الكوفى البسيط ، والكوفى المتطور ، والكـــوفى المزهر ، والكوفى المعشق أو المضفر ، والكوفى المحصر ، والكوفى المورق · ثم

اعقبنا ذلك بحصر عناصر الخط الكوفى الزخرفية ، مثل الاسنان ، والاطـراف والاطناب ، والاهداب ، والباغة الزهريه ، والسيقان ، والعــروة ، والعروق ، والمحاجر ، والنواجذ ، الى آخره · ومايقال عن الخط الكوفى يقال عن بقية الخطوط العربية · مثال آخر ، كلمة (عقد) وجمعها (عقود) · وقد حصرنا اشكاله التى تبلغ خمسه وثلاثين شكلاً نذكر منها العقد الاحدب ، والعقد الثلاثى الفتحـات ، والعقد الخماسى ، والعقد شبه المنفوخ ، والعقد الفارسى ، والعقــد المتــدرج . والعقد متعدد الفتحات ، والعقد المدبب · واعقبنا ذلك ببيان عنـــاصر العقـــد الزخرفيه ، مثل اطار العقد ، وباطنه ، وحلقه ، وكتفه ، مع اثبات اماكن وجود كل هده المصطلحات فى الاجزاء المنشورة من الموسوعة · فضلا عن ذلك ذكـرنا قباله كل مصطلح فنى ، كافة المصطلحات الفنية التى لها علاقة به · مثال ذلك ، تحت حرف «العين» مصطلح (عمود) والجمع (اعمدة او عمد) ، حيث احلنـا القارىء الى مصطلحات ذات صلة به ، مثل اسطوانه ، ودعامة وسارية · مثال آخر ، تحت حرف «القاف» ، ونجد كلمة (قاصرة) والجمـــع (قواصر) ، حيث احلنا القارىء الى مصطلحات ترتبط به · مثل باذكة ، وطاقة ، وعقد ، وقوس ، الى آخـــــره ·

لقد اتبعنا هذا الاسلوب على امتداد الفهارس التى قمنا باعدادها ، والتى تقع فى ست وعشرين صفحة من القطع الكبير ، وذلك وفقا لمنهج جون ديوى المتعـــارف عليه دوليـــا ·

الى روح استاذى ومعلمى ، اتقدم بهذا الاسهام المتواضع ، بمناسبة احياء ذكراه الاولى · وهى ذكرى ستظل ابدا ماثلة فى قلوب ابنائه وزملائه ومريديه ، فى مصر وفى مختلف ارجاء الوطن العربى ، وفى عالم الثقافة بوجه عام ·

معجم المصطلحات الفنية لموسوعة
« مساجد القاهرة ومدارسها »

للاستاذ الدكتور احمــد فكــرى

اعــداد

الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف

(أ)

اخراج فنى ؛ ف ١٧٤ ــ ١٧٦ ٠

ارابسك ؛ ف ١٨٢ ، ١٨٣ (١) ، ١٩٠ (٣) ٠

ازار (ازارات) ؛ م ١٢٣ ؛ ف ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٨ و (١) ، ٧٠، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ و (١) ، ٨٥ و (١) ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٧٧ ، ١٩٩ و (١) ؛ ى ١٧ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٦٧ ،

الاستنباط(نظرية)؛ ف ٢٠٩ ، ٢١٠ ٠

اسطوانة او اسطونة (اسطــوانات او اساطين) ؛ وينظر : دعـامة ، سارية ، عمود ــ م ٣٨ ، ١٠٥ ، ١٧٠ ــ ١٧٤ ؛ ى ٨٨ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ٠

اسكوب (اساكيب) ؛ وينظر : بلاطة ، رواق ، محراب ــ م ٧٢ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٩٢ (٢) ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ (١)، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٤٢ ، شكل (٤١) ، ١٧٠ ، ٣٠٤ ــ ٣٠٧ ؛ ف٢٩ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ و (٢) ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، و (٢) ١٢٧ (٤) ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ و (٣) ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ و (٣) ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦١ ، ١٦٢ (٢) ، ٢٠٢ ، لوحات (١٢) و (١٩) و (٢٧) و (٣٥) ، ى ٨٩ ، ٩١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٨٤٠

(ت)

(ج)

(ح)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(و)

دور المغاربة فى الحروب الصليبية فى المشرق العربى

دكتور احمد مختار العبادى

أود ان اشير فى البداية الى ان الحـــركات الاستقلالية التى قـــامت فى المغرب الاسلامى لم تكن تهدف الى فصل المغرب عن جســم الدولة الاسلامية اذ اثبتت الحوادث ان المغرب قد سعى جاهدا ، سواء على الصعيد السيـاسى او الشعبى ، الى لقاء المشرق والاستفادة من نظمه وحضارته ، والدفاع عن حوزته ضد المستعمر الصليبى ٠

وامثلة هذا اللقاء بين المشرق والمغرب كثيره ومتعددة منذ الفتــوح العربيه فاذا نظرنا مثلا الى دولة الأشراف الأدارسة ، وهى من اوائل الدول الاسلامية التى استقلت بالمغرب ، نجد انها سعت الى الاتصـــال بالمشرق رغم العـــداوة السياسية التى كانت بينها وبين الخلافة العباسية ٠

ففى مكتبة الرباط بالملكة المغربية ، توجد قطعة خطية من رسالة للامــام ادريس الاول الى اهل مصر ، يذكرهم فيها بفضائل اهل البيت النبوى الــذى ينتمى اليه ، ويصف التضحيات التى بذلوها فى سبيل حقهم الشرعى الموروث عن الرسول ، ويطالبهم بتاييده ومساندته(١) ٠

وهذه الرسالة ان دلت على شىء فانما تدل على ان الادارسة لــم يفكــروا فى فصل المغرب عن العالم الاسلامى ، بل ربما كانوا يريــدون توحيده تحت قيادتهم ، مستندين فى ذلك الى اصلهم الشريف وشرعيتهم فى الحكم ٠

---

(١) هذه الرسالة وردت فى الجزء الثانى من سيرة امام اليمن المؤيد بالله محمد بن القــاسم ٠ وهى ضمن رسالة وجهها هذا الامام الى اهـــل المغــرب سنة ١٠٤٨هـ يدعوهم فيها بالتمسك بدعوة اهل البيت٠وهو مخطوط بمكتبة الامبروزيانا Ambrosiana بميلانو رقم ١١٥ ورقة ٧١ ــ ٧٥ وتوجد صورة منها فى الخزانة العامة بالرباط ٠

ويبدو أن الخلافة العباسية قد خشيت من اتساع اهداف الدولة الادريسية، فأقامت دولة الاغالبة سنة ١٨٤ هـ فى افريقية (المغرب الادنى) لتكون حدا فاصلا أو دولة حاجزة بين بلادها وبلاد الادارسة • ولكن على الرغم من هذا الحاجز ، حاول الادارسة من جانبهم أستمالة الاغالبة وكسب صداقتهم ، اذ يشير المؤرخون الى ان الامام ادريس الاول كتب الى ابراهيم بن الاغلب يستكفيه عن ناحيته ويذكره بقرابته من رسول الله (صلعم) ، فاجابه عن كتابه وادعه ولم تجر بينهما حرب • ويبدو ان هذا الاتصال السياسى بين الاغالبة والادارسة استمر بعد ذلك ، اذ يروى المؤرخون ان زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب حينما أمره الخليفة العباسى المامون بالدعاء لوالى مصر عبد الله بن طاهر، رفض ان ينفذ هذا الامر ، وهدد غاضبا بمبايعة جيرانه الادارسة والانضمام اليهم • وفى هذا المعنى ارسل الى المامون مع رسوله كيسا مملوءا بالدنانير المضروبة باسماء بنى ادريس ، ففهم المامون مغزاه ولم يعاتبه ابدا •

وهكذا ترى من الروايات السابقة ان الادارسة كانوا على اتصال باهل مصر كما كانوا على اتصال باهل تونس على عهد الاغالبة رغم العداء السياسى بين الادارسة والعباسيين •

ولما قامت الدولة الفاطمية فى المغرب ، استطاعت بفضل تاييد بعض القبائل المغربية أن تحقق وحدة سياسية مركزها القاهرة وتشمل تونس ومصر والشام واليمن والحجاز والنوبة وصقلية • وكان من نتائج هذه الوحدة أن استقرت فى تلك البلاد جاليات مغربية عديدة شاركت فى جهاد البيزنطيين فى البر والبحر •

غير ان الوضع السياسى فى المشرق والمغرب لم يلبث أن تغير فى أواخر القرن الخامس الهجرى او الحادى عشر الميلادى •

ففى المشرق قامت الحركة الصليبية التى تمثل هجوما اوروبيا استعماريا على الشرق العربى ، وتكوين امارات صليبية فى شمال الشام والجزيرة ثم انتزاع بيت المقدس وفلسطين من ايدى الفاطميين •

اما فى المغرب (والمقصود هنا المغرب والاندلس) فقد سقطت الخلافة الاموية فى الاندلس وقامت على انقاضها دويلات طائفية متنازعة لم تلبث

أن خضعت للضغط الاسبانى ، وكاد الاندلس أن يضيع لولا مجيء يوسف بن تاشفين وجماعته من المرابطين الملثمين فانقذوا الاندلس وانتصروا على الاسبان فى موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦م) واسسوا دولة المرابطين التى شملت المغرب والاندلس معا ٠

وهكذا بدا المشرق فى يد الفاطميين الشيعة الاسماعيلية ، والمغرب فى يد المرابطين السنة المالكية ، وبينهم مساحات شاسعة وعداوات راسخة تحول دون لقائهم بسبب العداء السياسى والمذهبى من جهة ، وبسبب الاعباء الجهادية الملقاة على كاهل كل منهما من جهة اخرى ٠

فقد كان على الفاطميين ان يكافحوا الغزو الصليبى فى المشرق ، كما كان على المرابطين أن يجاهدوا الاسبان فى الاندلس ، وان يحاربوا قبائل البربر المارقة عن الاسلام فى المغرب مثل قبائل غمارة فى جبال الريف شمالى المغرب، وقبائل برغواطة فى تامسنا فى غرب المغرب ، بل كان عليهم أيضا ارسال الجيوش جنوبا لمحاربة دولة غانا الوثنية فى السودان الغربى وهكذا تبدو لنا الاوضاع السياسية وكان كل دولة منصرفة عن الاخرى بمشاكلها الخاصة « لكل امرىء يومئذ شان يغنيه » ٠

وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل هذه الفرقة السياسية والعداوة المذهبيه بين الدولتين ، حالت دون لقائهما على الصعيد الشعبى ؟ لا اعتقد ذلك ، لان الامة الاسلامية تمثل وحدة تاريخية، ولان حتمية الاتصال بين الشعوب الاسلامية، وما يجرى بينها من تبادل وتداخل وترابط ، كانت تحول دون هذا الانفصال السياسى بل كانت لا تعترف به فى الواقع ٠ والشواهد على ذلك كثيرة فى مختلف المجالات ، ولكننا نقتصر منها على ما يتعلق بموضوعنا ، ولدينا من النصوص ما يفيد بوجود مثل هذا التعاون المشترك على الصعيد الشعبى بين هاتين الدولتين ضد الخطر الصليبى فى الشام ٠

مثال ذلك ما يرويه ابن الاثير من أنه « فى سنة ٤٩٩ هـ ، ورد الى بغداد أمير من الملثمين (اى المرابطين) ملوك المغرب قاصدا دار الخلافة ، فاكرم٠ وكان معه انسان يقال له الفقيه من الملثمين ايضا ، فوعظ الفقيه فى جامع القصر ، واجتمع له العالم العظيم ٠ وكان يعظ وهو متلثم، لا يظهر منه غير

عينيه • وكان هذا الملثم قد حضر مع الافضل امير الجيوش بمصر وقعته مع الفرنج ، وابلى بلاء حسنا • وكان سبب مجيئه الى بغداد ان المغاربة كانوا يعتقدون فى العلويين اصحاب مصر (الفاطميين) الاعتقاد القبيح فكانوا اذا ارادوا الحج يعدلون عن مصر • وكان امير الجيوش بدر الجمالى والد الافضل اراد اصلاحهم ، فلم يميلوا اليه ، ولا قاربوه ••• فلما ولى ابنه الافضل ، أحسن اليهم ، واستمان بمن قاربه منهم على حروب الفرنج• وكان هذا الملثم ، من جملة من قاتل معه ، فلما خالط المصريين ، خاف العودة الى بلاده ، فقدم بغداد ثم عاد الى دمشق • ولم يكن للمصريين حرب مع الفرنج الا وشهدها ، فقتل فى بعضها شهيدا ، وكان شجاعا فتاكا مقداما»(٢)

هذا النص يدل على ان العداء بين الدولتين الفاطمية والمرابطية لم يحل دون وجود بعض المتطوعين من كبار رجال المغاربة الذين شاركوا اخوانهم المشارقة فى جهاد الصليبيين فى الشام •

على أن دولة المرابطين لم تعمر طويلا للاسف اذ عجزت عن مجابهة الاخطار الداخلية والخارجية التى واجهتها ، فسقطت فى النصف الاول من القرن السادس الهجرى (١٢م) ، وقامت على انقاضها دولة مجاهدة اخرى وهى دولة الموحدين على يد مؤسسها المهدى بن تومرت •

وتختلف هذه الدولة الجديدة عن سابقتها فى أن لها اهدافا توسعية اصلاحية ، كما أقامت لنفسها خلافة دينية خاصة ، حاولت باسمها توحيد العالم الاسلامى تحت سلطانها ، وتخليص بيت المقدس والشام والاندلس من المستعمر الصليبى •

وقام بتنفيذ هذه السياسة التوسعية خلفاء الموحدين الاوائل امثال عبد المؤمن بن على وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور • ولقيت سياسة الموحدين استجابة وتاييدا شعبيا كبيرا فى المغرب والمشرق خصوصا بعد أن فتحت الباب على مصراعيه امام المتطوعين من المغاربة للسفر الى مصر والشام ومشاركة اخوانهم المشارقة فى جهاد الصليبيين برا وبحرا •

---

(٢): راجع (ابن الاثير : الكامل جـ١٠ ص ٤١٤ ، طبعة صادر) •

ولقد واكبت هذه الصحوة المغربية ، صحوة اخرى مماثلة فى المشرق ،قادها رجال أقوياء أمثال عماد الدين زنكى ، وابنه نور الدين محمود ، وقواده نجم الدين أيوب واسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين الايوبى الذى تم على يديه سقوط الدولة الفاطمية فى مصر ٠ وقد رحب هؤلاء القادة المشارقة بجميع المجاهدين الوافدين من المغرب واستعانوا بهم فى جيوشهم البرية واساطيلهم البحرية ٠

وهنا يظهر دور المغاربة بوضوح فى جهاد الصليبيين سواء فى مصر أو الشام ، ونجد فى هذا الصدد مادة خصبة فى كتب التراجم والرحلات التى تصف اعمالهم وبطولاتهم ، ونذكر اسماء من استشهد منهم ودفن هناك فى فلسطين٠ وحسبنا أن نشير بصفة خاصة الى الرحالة الاندلسى ابن جبير(٢) الذى زار الشام ومصر ومات هنا بالاسكندرية فى اوائل القرن السابع الهجرى(١٣م) مما جعل بعض المستشرقين يعتقد ان مقامه هو مقام سيدى جابر ، وان اسمه حرف من جبير الى جابر

وكيفما كان الامر ، فان هذا الرحالة المغربى اعطانا معلومات قيمة عن نشاط المجاهدين المغاربة فى الحروب الصليبية ، فيشير مثلا الى الضريبة الاضافية التى فرضها الصليبيون فى الشام على التجار المغاربة فقط دون سائر تجار المسلمين ، والسبب فى ذلك يرجع الى أن طائفة من انجاد المغاربة حاربوا مع السلطان نور الدين محمود زنكى ، واستولوا على احد الحصون الصليبية بعد ان ابدوا شجاعة نادرة كانت مضربا للامثال فجازاهم الافرنج على ذلك بان فرضوا على كل تاجر مغربى يمر بمستعمراتهم فى الشام دينارا اضافيا دونا عن سائر تجار المسلمين كعقاب لهم على شجاعتهم ٠ كذلك يشير ابن جبير الى اهتمام ملوك المسلمين وأهل اليسار والخسواتين من النساء فى الشرق العربى بفداء الاسرى من المغاربة لبعدهم عن بلادهم ٠ هذا الى جانب الاوقاف الكثيرة التى خصصت للمقيمين من المغاربة فى الشام ٠

---

(٢) هو ابو الحسين بن احمد بن جبير الكنانى الاندلسى وصف رحلته فى كتابه المسمى «تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الاسفار» وقد نشر عدة مرات تحت اسم رحلة ابن جبير ، وقد تحول فى آخر رحلة قام بها الى الاسكندرية حيث اقام يحدث بها الى أن توفى ودفن بها سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ٠

اما العماد الاصفهانى ، كاتب صلاح الدين ، فانه يشير الى شخصيـــة مغربية جليلة صاحبت صلاح الدين فى جهاده للصليبيين ، وهى شخصيةالامير عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس الذى كـــان جــــده تميـم بن المعز بن باديس الصنهاجى أحد ملوك الدولة الزيرية فى افريقية • ويضيف العماد أن هذا الامير المغربى أخبره بأن صلاح الدين لما مرض مرضـــه الشديد سنة ٥٨٢ هـ ، نذر اذا أبل من مرضه بألا يقاتل من المسلمين أحدا ، وان يكرس جهاده ضد الصليبيين ،وانه اذا انتصر وظفر بالبرنس ارناط صـــاحب الكرك Renaud de Chatillon تقرب الى الله باراقة دمه • فلما شفى صلاح الدين وتحقق له النصر على ارناط وأسره فى حطين ، بر بنذره فكان هـــذا هـــو السبب فى اراقة دم البرنس ارناط(٤)•

هذه الرواية مهمة لانها تختلف عن الرواية الاخرى الشائعة التى تقـــول بان سبب مقتل ارناط هو استيلاؤه على قافلة مصرية كبيرة كانت فى طريقها الى دمشق ، فاقسم صلاح الدين بأن ينتقم منه وأن يقتله بيده •

وهكذا نرى مما تقدم أن هناك عددا كبيرا من المغاربة قـــد جاهـــدوا الصليبيين فى الشام بغية تخليص الاراضى المقدسة من ايديهم •

ولعله من المفيد فى هذا الصـــدد أن نشير الى تلك الروايات الشعبية التى جعلت من خلفاء الموحدين فى المغرب رمزا للجهاد والتضحية وان خلاص بيت المقدس سيتم على أيديهم •

الرواية الاولى وردت على لسان احد دعاة المهدى بن تومرت فى الشـــرق ويرويها المؤرخ الفاسى ابو الحسن على بن القطان ت ٦٢٨ هـ ـ ١٢٣٠ م فى كتابه نظم الجمان فى اخبار الزمان ، يقـــول :

« دخلت فى ارض القدس رباطا يعمره رهبان الروم ، فرأيت فيه رخـــامة بيضاء ، قد نقش فى سطحها الظاهر منها احد عشر سطرا ، على كل سطـــر منها اسمان، الا السطر الاوسط، فعلية اسم واحد وهو اسم الامام المهدىوحده،

---

(٤) راجع (ابو شامة : كتاب الروضتين فى اخبـــار الدولتين النـــورية الصلاحية جـ٢ ص ٨٠) •

وعلى السطر السابع، اسم الخليفة الآخذ عنه فى حياته ، المسمى عبد المؤمن ابن على القيسى »(٥)٠

هذه الرواية السالفة تصور اسم امام الموحدين ، واسم خليفته من بعده، منقوشا فى القدس المحتلة ، فى وقت كانت فيه دولة الموحدين فى بداية نشأتها فى أقصى المغرب وبعيدة كل البعد عن القدس ٠ فلا شك انها تعبر عن الامل المعقود على وصول الموحدين الى فلسطين لتخليص بيت المقدس من ايدى الصليبيين ٠

اما الرواية الثانية ، فيرويها المؤرخ الدمشقى شهاب الدين أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٨ م) فى كتابه الروضتين فى اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، فيقول :

« قال ابن طى ، حدثنى والدى عن احد التجار قال : كنت بالموصل فى سنة خمس وستين وخمسمائة ، فزرت الشيخ عمر الملا ، فدخل اليه رجل فقال : ايها الشيخ رايت البارحة فى النوم وكانى بارض غريبة لا اعرفها وكانها مملوءة بالخنازير ، وكان رجلا فى يده سيف وهو يقتل الخنازير ، والناس ينظرون اليه ، فقلت لرجل : هذا عيسى بن مريم ؟ هذا المهدى ؟ قال لا ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا يوسف ، وما زادنى على ذلك ٠ قال فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا ، وقالوا انه سيقتل النصارى رجل يقال له يوسف وحدثت الجماعة انه يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب ٠ قال : ونسيت انا هذه الواقعة ، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها ، فكان يوسف هو الملك الناصر يوسف صلاح الدين(٦)٠

هذه القصة تبين بجلاء أن تفكير الناس فى المشرق حول المخلص المنتظر لبيت المقدس ، كان متجها الى خليفة المغرب والاندلس فى ذلك الوقت يوسف بن عبد المؤمن ، ولم يفكروا فى الملك الناصر يوسف صلاح الدين لانه كان فى بداية ولايته على مصر ولم يكن اسمه قد اشتهر بعد فى ذلك الوقت ٠

---

(٥) ابن القطان : نظم الجمان فى اخبار الزمان ص ٦٩ ٠ نشر محمود على مكى ٠

(٦) ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ٥٨

اما القصة الثالثة ، فيرويها المؤرخ الاربلى ابو العباس احمد بن خلكان (ت ٦٨١ هـ ـ ١٢٨٢ م) فى كتابه « وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان » حيث اشار الى أن خليفة الموحدين يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، لم يمت بأرض المغرب ، وانما مات فى فلسطين بعد أن ترك ملكه وبلاده ورحل الى الاراضى المقدسة لجهاد الصليبيين . بل ويذهب ابن خلكان الى انه رأى فى البقاع قبراً بالقرب من بلدة المجدل بفلسطين ، وان الناس هناك يؤكدون على انه قبر يعقوب ملك المغرب ويتباركون به»(٧) .

ولا شك أن هذه القصة لا تدخل الا فى نطاق الاساطير الشعبية ، اذ أن جمهرة المؤرخين قد كذبوها وعلى رأسهم الشريف الغرناطى (ت٨هـ) الذى وصفها بأنها تخرص واباطيل(٨)، بل ان ابن خلكان نفسه رغم روايته السالفة عاد وقال ان المنصور قد مات ودفن فى المغرب ، وهذا هو الثابت المعروف . ولا يسعنا فى تفسير هذه القصة الا انها تعبير عن انطباعات شعبية لما كان يدور فى خلد المسلمين من امانى وآمال نحو أخراج الصليبيين المستعمرين من بلادنا على يد هذا المجاهد المغربى الكبير يعقوب المنصور الذى حطم القوى الاسبانية فى موقعة الارك المشهورة بالاندلس Alarcos (سنة ٥٩١هـ ـ ١١٩٥م) .

ولعل هذه المقبرة التى اشار اليها ابن خلكان ، كانت مقبرة للمجاهدين المغاربة الذين استشهدوا فى فلسطين ثم اطلق عليها اسم يعقوب كرمز تذكارى باعتباره امام هؤلاء المجاهدين المغاربة .

على أن شهرة المغاربة فى المشرق قد ذاعت بصفة خاصة فى الجهاد البحرى لمهارتهم فى قيادة السفن والملاحة ، وفى فنون القتال البحرى . ولهذا عرفوا بفرسان البحر منذ وقت مبكر ، واستعان بهم الفاطميون والايوبيون والمماليك والعثمانيون فى ادارة اساطيلهم البحرية .

فالرحالة ابن جبير السالف الذكر ، ينص على ان الحملات البحرية التى

---

(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٢ ص ٤٣١ ـ ٤٣٣

(٨) الشريف الغرناطى : رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة جـ١ ص ١٥٥ .

قادها حسام الدين لؤلؤ ضد الصليبيين فى البحر الاحمر على عهد صلاح الدين، كانت تضم عددا كبيرا من انجاد المغاربة البحريين(٩)٠

كذلك يشير العماد الاصفهانى الى ان وحدات الاسطول المصرى التى هاجمت اساطيل الصليبيين فى مدينة صور أيام صلاح الدين ، كانت بقيادة قائد مغربى يدعى عبد السلام المغربى(١٠) ٠

ولعل اكبر دليل على اختصاص المغاربة بالاساطيل البحرية فى ذلك الوقت هو ما ترويه المصادر من أن صلاح الدين أرسل سفيره عبد الرحمن بن منقذ الى عاهل المغرب يعقوب المنصور الموحدى يطلب منه مساعدة بحرية لمنازلة ثغور الصليبيين بالشام ٠ وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور رفض طلب صلاح الدين لانه لم يلقبه فى رسالته بأمير المؤمنين اى لم يعترف بخلافة الموحدين ، فقد ذهب المؤرخ المغربى السلاوى الناصرى الى أن المنصور أرسل الى صلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع سفن الصليبيين من سواحل الشام(١١) ٠

وبعد وفاة صلاح الدين استمرت الدولة الايوبية فى سياسة استخدام المغاربة فى اساطيلهم ، وقد لاحظ ذلك الرحالة الاندلسى ابن سعيد المغربى حينما زار مصر فى ذلك الوقت ، اى فى النصف الاول من القرن السابع الهجرى(١٣م) ، فذكر ان الحكومة المصرية لجأت الى تجنيد المغاربة المقيمين فى مصر للعمل فى الاسطول استنادا الى الفكرة الشائعة فى المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر(١٢)٠

ولما ورث المماليك دولة اساتذتهم الايوبيين فى مصر والشام ، وأصلوا سياستهم الجهادية نحو اخراج الصليبيين من الشام ومن جزر البحر المتوسط ولا سيما جزيرة قبرص التى تزعم ملوكها آل لوزجنان Lusignan مشروعات الصليبيين فى الشرق العربى ٠

---

(٩) رحلة ابن جبير ص ٣٤ (طبعة صادر بيروت) ٠

(١٠) ابو شامة : كتاب الروضتين حـ ٢ ص ١١٩ ٠

(١١) السلاوى الناصرى : الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى حـ٢ص١٦٣

(١٢) المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب حـ٣ ص ١١١ ــ ١١٢

وكان السلطان الظاهر بيبرس أول سلطان مملوكى اهتم بغزو هذه الجزيرة اذ ارسل اسطولا بقيادة جمال الدين مكى بن حسون لغزو قبرص • وواضح من اسم هذا القائد ابن حسون انه من أصل اندلسى لان اسمه فى الاصل حسن ، أما مقطع الواو والنون فى آخر اسمه فليس الا المقطع الاسبانى On فى آخر للدلالة على التعظيم أو التكبير ، فهو تاثير اسبانى فى الاسماء العربية الاندلسية ، كقولهم خلدون على خالد ، وحفصون على حفص ، وغلبون على غالب ، وعبدون على عابد ، وعلون على على ، وزيدون على زيد ••• الخ

ويروى المؤرخون ان هذا القائد ابن حسون حينما قام بغارته على قبرص سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠م) لجا الى سلاح الحيلة والخدعة لمباغتة العدو وذلك بان طلى ظاهر السفن بالقار ورسم على اعلامها الصلبان كما يفعل الصليبيون فى سفنهم • وقد انكر بعض المجاهدين على قائدهم هذا العمل ، ولكنهم اضطروا الى تنفيذ اوامره بعد اقتناعهم بان الحرب خدعة وان من مصلحة المسلمين ايهام العدو بأن سفنهم مسيحية(١٣)• وعلى الرغم من فشل هذه الحملة بسبب العواصف ، وتحطم معظم سفنها على صخور ميناء ليماسول فى جنوب الجزيرة، الا ان هذه الهزيمة لم تؤثر فى قوة السلطان بيبرس تجاه الصليبيين خصوصا بعد أن استرد منهم قيسارية وأرسوف وصفد ويافا وانطاكية فى الشام(١٤)•

وجاءت بعد ذلك اسرة قلاوون التى قضت على الامارات الصليبية الباقية فى الشام، فاستولى السلطان قلاوون على طرابلس(١٥) سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م)، ثم استولى ولداه الاشراف خليل على عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١م) ، والناصر محمد على جزيرة لرواد شمال طرابلس سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢م) ، وبذلك خلت السواحل الشامية من الصليبيين •

---

(١٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك حـ١ ص ٥٩٤

(١٤) القلقشندى : صبح الأعشى حـ١٤ ص ٣٩ ـ ٥١ ، مختار العبادى : قيام دولة المماليك الاولى فى مصر والشام ص ٢٢٤ •

(١٥) كانت مدينة طرابلس قاعدة لجالية مغربية من المجاهدين والتجار والعلماء ، نذكر منهم على سبيل المثال : ابا عبدالله الطليطلى الاندلسى النحوى. متولى دار العلم بطرابلس قبل سقوطها فى أيدى الصليبيين ، ومثل الشيخ عبد الواحد المكناسى المغربى أحد الأولياء الذين نزلوا طرابلس بعد أن استردها قلاوون من الصليبيين وبنى فيها مسجدا سنة ٧٠٥ هـ عرف باسمه • راجع (عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٣٨٧ ، ٤٠٧)

ولا شك ان المغاربة لعبوا دورا كبيرا فى هذه العمليات العسكرية بدليل ما ذكرته المصادر من ان امير البحر الرئيس البطرانى المغربى ، كان من بين قادة الحملة البحرية التى اطبقت على جزيرة ارواد واستولت عليها(١٦) ٠

على ان طرد الصليبيين من الشام لم يحل دون استمرار غاراتهم على الثغور المصرية والشامية ٠٠ ولقد تزعمت جزيرة قبرص هذه المشروعات الصليبية العدوانية بحكم طبيعة موقعها الجغرافى بين شواطى المسلمين فى مصر والشام وآسيا الصغرى ، وبحكم منفعتها الخاصة من الحروب الصليبية كمركز تجارى هام وسوق عالمية للمالك الصليبية الغربية فى حوض البحر المتوسط ٠ وكل هذا دفع بملوكها من آل لوزجنان الى تبنى الفكرة الصليبية، ومحاولة استعادة بيت المقدس من جديد ٠

ولعل الذى يهمنا من هؤلاء الملوك القبارصة هو الملك بطرس الاول لوزجنان (١٣٥٠ ـ ١٣٦٩م) الذى امتاز بحماسه الشديد للاعمال الصليبية ، وتمسكه بلقب مملكة بيت المقدس التى لم يعد لها وجود فى ذلك الوقت ٠

ويقترن اسم هذا الملك بطرس لوزجنان بالغارة الوحشية التى شنها على مدينة الاسكندرية ، وعاث فيها فسادا وتخريبا فى المحرم سنة ٧٦٧هـ (اكتوبر سنة ١٣٦٥م) ومرجعنا فى وصف احداث هذه الغارة مؤرخان معاصران لها ، احدهما عربى والآخر أوروبى ٠ الاول هو محمد بن قاسم النويرى السكندرى فى كتابه الالمام بما قضت به الاحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية(١٧) ٠ والنويرى السكندرى شخص آخر غير شهاب الدين احمد النويرى صاحب كتاب نهاية الارب فى فنون الادب الذى عاش قبله بنحو قرن تقريبا (٧٣٢ هـ ـ ١٣٣٢ م) (١٨) ٠ وكلاهما على كل حال ينسب الى بلدة نويره

---

(١٦) ابو الفداء : المختصر فى أخبار البشر حـ٤ ص ٤٧ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٨ ص ١٥٦

(١٧) توجد لهذا الكتاب عدة أصول خطية فى الهند وبرلين ودار الكتب المصرية ٠ ولعل احسنها مخطوطة الهند ٠ وتوجد بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية صور شمسية لهذه المخطوطات ٠

(١٨) شهاب الدين بن احمد بن عبد الوهاب النويرى عاش قبل صنوه النويرى السكندرى بنحو نصف قرن ، وطبع كتابه نهاية الارب بدار الكتب المصرية كما نشر منه المستشرق الاسبانى جاسبار ريميرو الجزأين ٢٢ ، ٢٣ الخاصين بالمغرب والاندلس (مدريد ١٩١٧) ٠

بنواحى الفيوم بمصر الوسطى ، وان كان مؤرخنا النويرى السكندرى ينحـدر من أصل اندلسى مالقى حسبما جـاء فى كتـاب الدرر الكامنة لابن حجـر العسقلانى(١٩) ولعل هذا هو السبب الذى جعل كتابه الالمام يتضمن معـلومات هامة فى دور المغاربة المقيمين بالاسكندرية فى مقاومة هذه الحملة القبرصيـة، بل نلاحظ ايضا ان هذه المعلومات كلها اطراء ومديح فى المغاربة بصفة عـامة وبشكل يثير الانتباه ٠

اما المؤرخ المعاصر الثانى الذى كتب عن هـذه الحملة فهو الكاتب الفارس جيـوم دى ماشـو Guillaume de Machaut الذى اشترك فى حملة بطرس لوزجنانوالف كتابا بالشعر (تسعةآلافبيت)بعنوان La Prise D'alexandrie اى الاستيـلاء عـلى الاسكنـدرية ، نشـر فى جنيف سنـة ١٨٧٧م، وهو يمثل وجهة النظر الصليبية ، بينما كان معاصره النويرى يمثل وجهـة النظرالاسلامية ٠ويرى دىماشو انالمغاربة كانت لهم جالية كبيرة فىالاسكندرية تقدر بنحو عشرين الف مغربى ، وهذا الرقم قد يبدو مبالغا فيه ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن الاسكندرية كانت على صلة وثيقة بالمغـرب حتى عرفت ببـاب المغرب وقد اشار الرحالة ابن جبير ان عدد الفقراء فقط من المغاربة فى المـدينة بلغ اكثر من الف شخص يتقاضون جوامك من الحكومة المصرية ، وهـذا يـدل على كثرة عدد المغاربة بالاسكندرية(٢٠)٠

واخيرا نجح الصليبيون بقيادة بطرس لوزجنان فى اقتحـام مدينـه الاسكندرية وقتلوا عددا كبيرا من رجالها ونسائها وعاثوا فى المدينة فسـادا وتخريبا ونهبا اسبوعا كاملا ، ثم انسحبوا منها بعـد أن امتـلأت سفنهم بالاسلاب والغنائم(٢١)٠

(١٩ ، ٢٠) ابن حجر : الدرر الكامنة حـ٤ ص ١٤٢ ؛ سعد زغلول : الأثر المغربى والاندلسى فى المجتمع السكنـدرى فى العصـور الوسطى الاسلامية ص ٢٦٢ (مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٧٥)

(٢١) بول كاله : صورة عن وقعة الاسكندرية من مخطوطة الالمام للنويرى، ترجمة درويش النخيلى واحمد قدرى (فى مجـلة جمعية الآثار بالاسكندرية العدد ٣ سنة ١٩٦٩) وراجع كذلك ٠

Atiya Surial : Crusades in the later middle ages p. 345 - 370.

اثارت هذه الغارة الوحشية على السكان الامنين فى الاسكندرية ، موجة من السخط والغضب فى انحاء العالم الاسلامى ولا سيما فى بلاد المغرب والاندلس التى كانت صلتها بالاسكندرية وثيقة قوية كما سبق أن ذكرنا •

ففى الاندلس لم يجد المسلمون وسيلة للتعبير عن سخطهم سوى الاغارة على جيرانهم الاسبان فى مدينة جيان Jaen التابعة لملك قشتالة ، رغم المعاهدات المبرمة بينهما • ففى الرسالة التى كتبها ملك غرناطة محمد الخامس الغنى بالله الى سلطان بنى مرين بفاس ، حول احداث هذه الحملة ، نجد وصفا صريحا لدوافعها بقوله :

« فنوينا أن نرفع بها هضم جانب الاسكندرية ، ونقوم بفرض الكفاية المرضية ، فاستدعينا أهل الجهاد ، وتقصنا اطراف البلاد ، ممن أولى الجلاد، فى المحرم سنة ٧٦٨ هـ ، بعد سنة من حادث الاسكندرية ، ونادى منادى الحمية ، يالثارات أهل الاسكندرية ! يالثارات أهل الاسكندرية ! »(٢٢)•

لا شك أن هذه الصيحة الجميلة التى كانت شعار الاندلسيين فى هجومهم على جيان ، تعبر عن موجة الغضب التى اثارتها بالاندلس غارة القبارصة على الاسكندرية ، كما انها تحمل فى طياتها معانى الاخوة والتضامن بين الشعوب الاسلامية مهما بعدت بينهما المسافات •

ويسوق لنا النويرى فى هذا الصدد قصة طريفة ، وهى أن رجلا من أهل بلدة مليج(٢٣) ، كان قد دخل الاسكندرية يتسوق منها لدكانه التى ببلده على جارى عادته ، فصادف بها وقعة القبرصى حين ظفر بها ، فأسر بجملة من أسر من اهلها ، ووقع فى سهم رجل من نصارى اسبانيا ، وانتقل معه الى مدينة جيان • فلما ظفر السلطان ابن الاحمر (محمد الخامس الغنى بالله) بها ، كان فى جملة من اسره منها ، قال الاسير المليجى : لما وقفت بين يدى سلطان

---

(٢٢) ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (القسم الذى نشره المستشرق الاسبانى جاسبار ريميرو بعنوان :
(Gaspar Remiro : Correspondencia diplomatica entre Granade y Fez en el. siglo XIV p. 318).

(٢٣) مليج بلدة فى محافظة المنوفية بمصر ، وبها مسجد سيدى على المليجى

غرناطة ابى عبد الله محمد بن الاحمر ، قلت له مستغيثا : «أيها الملك المنصور، اننى رجل مسلم من ذرية المسلمين ، ولم اكن نصرانيا ولا آبائى ولا اجدادى نصارى » • قال : ومن اين انت ؟ قلت : انا من بلدة يقال لها مليج من ارض مصر بين القاهرة والاسكندرية ، دخلت الاسكندرية ابتضع منها على جارى عادتى بدكانى التى هى ببلدتى ، فصادفت وقعة القبرصى بها ، فنهبت واسرت، فاتت بى النصارى الى هذه الارض ، واستوفيت ما كتب على ، وقد خلصنى الله تعالى من الاسر على يديك بما فتح الله عليك ، وقد حصلت بين يديك ، وانا الآن فى جملة اسراك ، وانا مسلم مثلك ، أقرا ما تيسر من القرآن، واصلى على سيد الانبياء محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، سيد ولد عدنان • ثم تشاهدت وقرأت سورة من القرآن ، فعلم انى من المسلمين لامن النصارى الكافرين • ثم قال لى : « ووقعة الاسكندرية صحيحة كما قيل؟ » • قلت له : ظفر بها صاحب قبرص ، نهبها واسر منها ، وانا من جملة تلك الاسارى • ثم اخبرته بخبر ظفره بها ، وفرار اهلها منها حتى تسلمها الملعون منهم في يوم واحد ، وهو يوم الجمعة فى اواخر المحرم سنة ٧٦٧ هـ • فقال السلطان عند ذلك : « لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، انا لله وانا اليه راجعون ، لقد هتكتنا أهل الاسكندرية بين النصارى ، اتاهم كلب من كلاب الجزر فل عددهم، ونهب بلدهم، ولاأخذ لهم بثار فآه آه ! ، لو كنا بالقرب من قبرص ، لكانت قبرص اكلة رجل من أهل الاندلس » • قال الاسير المليجى: ثم ان السلطان احسن الى واطلق سبيلى ، ولى الآن نحو سنة اقطع السهل والوعر ، الى ان وصلت الى الاسكندرية صحبة الركب المغربى ، وها انا سائر الى بلدى مليج»(٢٤)ق•

ويضيف النويرى أن بعض الاندلسيين القادمين فى الركب المغربى بسبب الحج ، أخبروه بان ملك قشتالة ارسل الى سلطان غرناطة يطلب منه الصلح بعد أن داخله الرعب بسبب تخريبه لدائنه • فقال السلطان لرسوله : « هو يريد أن يصالحنى بينما تمضى النصارى الى سواحل المسلمين بارض مصر يقاتلونهم !؟ لا كان ذلك ابدا حتى ترد اموال الاسكندرية اليها مع اسراها ،

---

(٢٤) النويرى : كتاب الالمام ، لوحات ١١٠ ـ ١١٤ (مخطوطة دار الكتب الكتاب المصرية رقم ١٤٤٩)

وياتيني كتاب صاحب مصر بانكم اصطلحتم معه لانه خادم الحرمين الشريفين، وانا خادمه بسبب ذلك ، وحينئذ اصالح صاحبك القند (القمط أو الكونت) والا فالسيف بيني وبينه حتى أملك اشبيلية وقرطبة وطليطلة ، واعيدها للمسلمين كما كانت لهم» . فلما بلغ القند مقالته قصر لسانه عن رد جوابه(٢٥).

اما على الصعيد الشعبي ، فقد عبر المغاربة عن استيائهم وحزنهم بانشاد المراثي والقصائد التي يرثون بها الاسكندرية بمناسبة هذه الغارة الوحشية. ومثال ذلك قول الشاعر الصوفي المغربي احمد بن أبي حجلة(٢٦) التلمساني الاصل ، هذه الابيات التي يشيد فيها بالمجاهدين المغاربة في خلال قصيدته التي يرثي بها الاسكندرية :

وحقق عندي للفرنج مكائد ∴ فليت ولي الامر يدري ما أدري
فمن لي بفرسان الجزيرة عندما ∴ تعامل اهل الكفر في البحر بالنحر
ومن لي باسطول أهل سبتة(٢٧) ∴ بغربانهم مثل النسور اذا تسري

وقد شرح النويري هذه الابيات بقوله :

« والشاعر هنا يعني بولي الامر اتابك الاتابك يلبغا الخاصكي حاكم مصر، وقصد بقوله مكائد الحرب ، ان تلك المكائد يعرفها أهل سبتة ومن جاورهم من المسلمين بجزيرة الاندلس ، اذ أن الفرنج التي بجزيرة الاندلس يخشونهم لحذقهم ومعرفتهم بقتالهم وغربانهم المرصدة لذلك . وقصده أيضا تحريض الامير يلبغا على تكثيره بالاسكندرية قواد المغاربة لانهم فرسان البحر لاعتيادهم لذلك . وقيل ان عدة ابواب سبتة واحد وثلاثون بابا منها باب واحد للبر والباقي من دار الصناعة للبحر . وداخل كل باب منها غراب راكب على حماره

---

(٢٥) المرجع السابق .

(٢٦) احمد بن ابي حجلة الحنبلي ١٣٢٥ – ١٣٧٥م. ولد في تلمسان وصار شيخا لتكية منجك . حج ثم استقر في القاهرة وتوفي بالطاعون . له ديوان الصبابة الذي عارضه الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب في كتابه محبة الله أو روضة التعريف بالحب الشريف . نحا ابن ابي حجلة في شعره نحو ابن العربي في التغزل الصوفي .

(٢٧) سبتة مدينة في شمال المغرب تطل على مضيق جبل طارق ولا تزال في يد الاسبان لأهميتها الاستراتيجية ويطلقون عليها اسم Ceuta

من الخشب المعتدلة ، فاذا جرت حركة مع الفرنج ، او انتهم افروطة (اسطول Flotte) اخرجت القياد (القواد) تلك الغـــربان تجرهم حمرهـــا فترمى تلك الغـــربان فى البحـــر دفعـــد واحـــدة ، وقد شحنت برماتها وقيادهـــا واسلحتها وازوادها ، وقد صاروا على الكفار كاشتعال النار • فلو كان بصناعة الاسكندرية امثالهم ، لحفظت بحفظ الله دارها ، وانتفى عنها عارها ، لكن كان ذلك فى الكتاب مستورا ، وكان امر الله قدرا مقدورا »(٢٨) •

أما فى مصر والشام فقد تجلى الغضب على شكل اجراءات سريعة اهمهـــا جمع الاموال وأعداد الاساطيل والاسلحة • وهنا يشير النويرى الى ان اعدادا كبيرة من رجال البحر المغاربة قيدوا اسماءهم باجر معلوم للعمـــل فى هـــذه الاساطيل • ثم يضيف خبرا طريفا آخر وهو أن مجاهدا مغربيا عـرض علـى أمير الاسكندرية سيف الدين الاكز سلاحا جديدا عبارة عن قدور كفيات صغيرة من الفخار ، ضيقة الافمام ، مملوءة جيرا ناعما مطفيا بالبول • وكانت الواحدة منها ملىء الكف فى حجم الرمانة Grenade مسدودة الفـــم الضيق بمشـــاقة (فتيلة) • (مثل القنبلة اليدوية الآن) ثم حكى له قصة استعمال هذا السلاح ومدى تاثيره على العدو فقال : «بينما كنا مسافرين فى البحر المالح(البحـر المتوسط) بين سفاقس وطرابلس ، صادفنا مركب للافرنج فيه مقاتلة وتجار، فلما راونا قصدونا ، فلما قربوا منا ، القوا الكلاليب بمركبنا ، وكانوا باجمعهم عليهم سرابيل من الحديد • وكنا قبل تكليبهم لمركبنا نرمى عليهم بالسهام فلا تؤثر فيهم فلما تكلبت المركبان ، وصار الجنب ملتصقا بالجنب قفز من مركبنا رجال حصلوا بمركبهم فصاروا يضربونهم فلا يؤثر فيهم ، وكنت قد اعـددت بمركبنا هذه القدور الكفيات ، فامرت من بمركبنا من اصحابنا ان يرموا الفرنج بها ، وكانت الواحدة منها ملىء الكف ، فصار كل واحد يتناول واحدة ويرمى عليهم فتصكهم فيصعد الجير بعد انكسارها فى وجوههم ويدخل فى اعينهـم ويصعد فى خياشيمهم ، ويفسد انفاسهم ويعمى ابصارهم ، وصار المسلمون يلقونهم فى البحر فيغوص الى قعر البحر لثقل ما عليه من الحديد ••• فرمينا منهم نحو ستين علجا ، وهربت بقيتهم نزلوا فى بطن المركب ، فعمدنا الى باب بطنها سددناه عليهم وسمرناه بالمسامير ، وطلعنا من مركبهم الى مركبنـــا

(٢٨) النويرى : كتاب الالمام لوحة ١١٤ (مخطوطة دار الكتب المصرية) •

ثلاثين تاجرا مسلمين ، وعشرين مملوكا ، وخمس عشرة جارية ، كانت الفرنج أسرتهم • ثم اخذنا ما كانوا اخذوه لهم من حرير وبسط وقوت ، واخـــــذنا ما كان للفرنج من الاثاث وقلاع مركبهم ، وعمدنا الى بئر مركبهم خسفناهــــا ومضينا الى مركبنا سالمين ، فغمر مركب الفرنج بالماء من ذلك الخسف الـــذى خسفناه بها ، فامتلأت بالماء وغرقت •

وكان انتصارنا عليهم بعون الله تعالى وبتلك القدور الكفيات الملـــؤة جيرا وبولا • قال : فلما رآها الامير الاكز اعجبه مرآها واستحسنهـا وأمـر القرموسى(٢٩) ان يصنع مثلها عدة كثيرة ، فعملوا عشرة آلاف واحدة ، ملئت جيرا ناعما مطفيا بالبول ، ورفعت بقصر السلاح(٣٠) فى المدينة حاصلا لوقتها المحتاج اليها ، وعملوا ايضا من القدور الكبار كثيرا صارت حـــاصلا لـــرمى المجانيق بما يعمل فيها من المكائد المضرة للفرنج الكفرة(٣١)•

ويفرد النويرى بعد ذلك الصفحات الطوال فى وصف الاعمـــال البطـولية التى قام بها ضد الصليبيين فى البحر المتوسط ، قائد الاسطول المصرى ورئيس دار الصناعة بالاسكندرية الرايس ابراهيم التازى المغربى • وعلل النـــويرى هذه الانتصارات الى تلك القيادة المغربية بقوله « والفرنج لا يقهرهم ســوى المغـــاربة ، وذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الاندلس ، فيعرفون طــرق حربهم وطعنهم وضربهم فى بر وبحر(٣٢)•

---

(٢٩) القرموسى او القرموصى كلمة دخيلة من اصل يونانى معناها الخزاف او الفخـــارى Potier راجـــع
(Dozy : Supplement aux Dic. Arabes, II, p. 337.

(٣٠) هذا القصر كان بمثابة مخزن قد شحنت قاعاته بالاسلحة المختـــلفة التى تمون المقاتلة فى الحرب • ويفهم من كلام النويرى أن هذه القـاعات كانت تسمى باسماء السلاطين بدليــــل أن السلطان الاشرف شعبان حينمـــا زار الاسكندرية سنة ٧٧٠ هـ رسم بأن يعمل له به أيضا قاعة سلاح تسمى به كما سميت قـــاعات الملوك بهم ، فبنيت له فيها من الســلاح الجديد شىء كثير • وكان هذا القصر يقع بالقرب من جامع عمرو الذى يحتل دير الفرنسسكان الآن جزءا منه •

راجع (النويرى : كتاب الالمام ص ١٤٤ ب ، نسخة دار الكتب المصرية)

(٣١) النويرى : نفس المرجع السابق لوحات ٢٠٦ ـ ٢٠٧ (نسخة الهند)•

(٣٢) النويرى : نفس المرجع لوحات ٩٧ وما بعدها ، ٢٧٤ ـ ٢٧٧(الهند)•

على انه بالرغم من هذه الاعمال البطولية التى قامت بها الاساطيل العربية، فان اعتداءات قراصنة قبرص ظلت مستمرة على البلدان والسفن المصرية والسورية حتى اوائل القرن الخامس عشر الميلادى • ولم تكن تلك الاعتداءات فى الواقع قاصرة على القبارصة وحدهم ، بل شارك فيها قراصنة مسيحيون من مختلف الجنسيات ، اتخذوا من سواحل جزيرة قبرص المتعرجة قواعد وأوكارا يخرجون منها للاغارة على البلدان والسفن الاسلامية ، كما وجدوا من ملوك قبرص ورجالاتهم خير مشجع ومعاون على اعتداءاتهم ، وخير مشتر لبضائعهم التى نهبوها من المسلمين • لهذا كانت السياسة المصرية تعتبر جزيرة قبرص مسؤولة عن اعمال هؤلاء القراصنة الذين يعيشون فى البحر فسادا •

وكان من المستحيل على دولة المماليك فى مصر والشام ان تصبر على تلك الاعتداءات المتكررة على اراضيها ومراكبها • واذا كانت ظروفها فى الماضى لم تمكنها من القيام بعمل انتقامى سريع ضد جزيرة قبرص ، الا انها لم تهمل هذا المشروع فى الواقع ، بل ظلت تنتظر الوقت المناسب للانتقام لشهداء الاسكندرية • ثم جاءت تلك الفرصة المناسبة على يد السلطان الاشرف سيف الدين برسباى احد سلاطين دولة المماليك الثانية ، الذى تمكنت جيوشه واساطيله من الاستيلاء على جزيرة قبرص واسر ملكها جانوس لوزجنان سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٦ م) ، اى بعد حوالى ستين سنة من تاريخ عدوانها على الاسكندرية • وهكذا انتقمت مصر لنفسها من عدو الحرب ، وكان انتقاما رائعا ولو بعد حين(٣٣) •

على ان دولة المماليك وان كانت قد نجحت فى القضاء على نشاط القبارصة الا انها لم تلبث ان اصطدمت بقوى اخرى جديدة مثل قوة الاتراك العثمانيين

---

(٣٣) اطلق سراح الملك جانوس بعد ان تعهد بدفع فدية قدرها مائتى الف دينار ، دفع نصفها قبل رحيله ، والنصف الآخر بعد عودته الى جزيرته• وظلت قبرص منذ ذلك الوقت تابعة للقاهرة وتؤدى لها جزية سنوية حتى نهاية حكم المماليك على يد العثمانيين سنة ١٥١٧ م• فصارت الجزية ترسل الى السلطان العثمانى حتى سنة ١٥٧١ م حينما احتلها الاتراك العثمانيون وحكموها حكما مباشرا عن طريق ولاتهم الاتراك • على أن المهم هنا هو أن المغاربة قد شاركوا فى غزو قبرص سواء على عهد المماليك أم على عهد العثمانيين بعد ذلك • وقد نص ابن اياس (بدائع الزهور حـ٣ ص ٣٠٣). على أن الوالى التركى فى مصر كان يركب الى سواحل بولاق ومصر العتيقة ويقبض على النواتية والمغاربة والفلاحين لاجل المراكب •

فى البحر الابيض المتوسط من جهة ، وقوة البرتغاليين ـ بعد اكتشافهم الجغرافى ـ فى المحيط الهندى والبحر الاحمر من جهة اخرى • وهكذا اصبحت دولة المماليك محاصرة بين هذين الخطرين ، وعجز سلاطينها عن ابعاد خطرها التجارى والحربى •

يضاف الى ذلك ان المماليك كانوا فرسانا بطبيعتهم ، عشقوا الفروسية ولم يقبلوا عنها بديلا • ولهذا لم يتجاوبوا مع الاسلحة النارية والمدافع التى اخذت تنتشر فى ذلك الوقت ، وأقبل العثمانيون والبرتغاليون على استخدامها فى البر والبحر ، بينما اعتبرها المماليك اسلحة منافية للرجولة وللانسانية • واضطر سلاطين المماليك لانقاذ دولتهم آخر الامر ، الى تكوين فرق غير مملوكية من المغاربة والعبيد السود لحمل هذا السلاح الجديد ، عرفوا باسم النفطية او البارودية(٢٤)•

واستخدام المماليك للمغاربة أمر له مغزاه ، اذ يفهم من المصادر المغربية المعاصرة سواء أكانت اسلامية أو مسيحية أن المغاربة والاندلسيين توصلوا الى اختراع المدفع قبل الاوروبيين • فالمعروف ان اول استعمال للمدفع فىاوربا كان فى موقعة كريسى Creasy بفرنسا سنة ١٣٤٢ م حينما التقت جيوش ملك فرنسا فيليب دى فالوا مع جيوش ملك انجلترا ادوارد الثالث الذى كتب له النصر باستعماله للاسلحة النارية •

اما استعمال هذا السلاح الجديد فى المغرب والاندلس ، فكان قبل ذلك التاريخ المذكور انفا بعشرات السنين ، فابن خلدون عند حصار السلطان ابى يوسف المرينى لمدينة سجلماسة (حاليا الريسانى بتافيلالت) فى جنوب المغرب سنة ١٢٧٣م يقول : «ونصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد، ينبعث من خزانة امام النار الموقدة فى البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة بارئها»(٢٥) •

---

(٢٤) ابن اياس : بدائع الزهور حـ٤ ص ٨٤ ، ٣٠٨ وكذلك
(David Ayalon : G)
Gunpower and firearms in the mamluk King dom p. 74, 79, 85)

(٢٥) ابن خلدون : كتاب العبر حـ٧ ص ١٨٨ •

وهذا النص يعتبر من أقدم النصوص التاريخية حـــول استعمال المـــدفع ويبدو أن هذا الاختراع الجديد لم يلبث ان انتقل الى مملكة غرناطة الاسلامية فى اسبانيا . ففى كتاب اللمحة البدرية لابن الخطيب ، نجد وصفا هاما للمدفع الذى استعمله الغرناطيون عند احتلال قلعة اشكر Huescar فى جنوب الاندلس سنة ١٣٢٤ م ، وما احدثه هذا السلاح من هدم وتخريب فى الحصون ، وذعر فى صفوف المقاتلين الاسبان. وهذا الوصف يعتبر من أقدم النصوص التاريخية ايضـــا فى هذا الموضوع . وفى ذلك يقول ابن الخطيب : « ونازل السلطان اسماعيل بن الاحمر قلعة اشكر ، ونشر الحـــرب عليها ، ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط، كرة محماة، طاقة البرج المنيع ، فعـــاثت عياث الصـــواعق السماوية ، ونزل اهلها قسرا على حكمه ، وفى ذلك يقول شيخنا الحكيم ابـو زكريا بن هـــذيل :

فظنوا بان الرعد والصعق فى السما .·. فحاق بهم من دونها الرعد والصعق

غـرائبا اشكال سمـا هرمس بها .·. مهنـدمة تاتى الجبـــال فتنهـــد

الا انها الدنيـــــا تريك عجـائبا .·. ومافى القوى منها فلابد ان يبدو(٣٦)

ومن الغريب أن المصادر الاسبانية المعاصرة عند وصفها لاحــــداث هـــذه الحرب ، ايدت هذا الاختراع واشارت اليه كسلاح جديد مبيد ، ففى حوليـــات ثوريتا نجد العبارة الآتية :

Se extendiá el rumos en Alicante que el rey de Granada estaba en posesion de una nueva arma mortifera.

وترجمتها : « وانتشرت الاشاعات فى مدينة لقنت (شرقى اسبانيا) بان ملك غرناطة يمتلك سلاحا جديدا مميتا »(٣٧)

وتجدر الملاحظة هنا ان كلمة نفط فى العصور الوسطى ، اطلقت فى بادىء الامر على قذائف النار الاغريقية الحارقة التى كانت تقذف نحو الهدف لاضرام النار فيه ، ثم تطور معناها فى اواخر القرن الثالث عشر الميــــلادى ، بحيث

---

(٣٦) ابن الخطيب : اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص ٧٢

(٣٧) راجـع

(J. Zurita : Los Anales de la Corona de Aragon, Vol. II p. 31)

صارت تعنى المدفع أو الاسلحة النارية التى تحدث عند انطلاقها فرقعة وهديرا مثل الصواعق ، وكانت قذائفها كورا معدنية تهدم وتحطم كما هو واضح فى الابيات الشعرية السالفة • ولعل السبب فى اطـــلاق كلمة نفط على هـــذين السلاحين المختلفين ـ الحارق الهادم ـ أن العنصر الاصلى فى تركيبات النفط فى الحالتين هو ملح البارود ، استعمل فى بادىء الامر للاحراق شأنه شـــأن المواد الاخرى المتهبة كالفحم والكبريت • ثم اكتشف فيما بعد أن له خاصية الانفجار فاستخدم كسلاح مدمر(٢٨)•

وهكذا نرى مما تقـــدم ان المغـــاربة كانوا من اوائل الدول التى عرفت الاسلحة النارية واستخدمتها فى حروبها • ولعل هذا هو السبب الـــذى جعـــل بعض سلاطين المماليك فى اواخر عهدهم بمصر والشام ، يعتمدون فى استعمال هذا السلاح الجديد على العناصر الغير مملوكية كالمغاربة والسودان ، كمحاولة اخيرة لانقاذ دولتهم •

غير انه يبدو أن دولة المماليك ، رغم كل هذا ، كانت قد هرمت وتحجرت على انظمتها العتيقة التى تقوم على الفروسية والمبارزة بالسيف ورمى النشاب فلم يتقبل سلاطينها وامراؤها هذا السلاح الجديد بسهولة •

ففى هذا الصدد يروى ابن زنبل ان مغربيا عرض بندقية على سلطان مصر الملك الاشرف قانصوه الغورى ، واخبره بأن هذه البندقية جلبها من بلادالبندق (البندقية أو فينيسيا) وأن جيوش العثمانيين والمغرب قد استخدمتها • عندئذ طلب السلطان الغورى من المغربى ان يـــدرب بعض مماليكه على استخدامها ، ففعل ذلك• وبعد مدة جاء بهؤلاء المماليك الى حضرة السلطان حيث قاموا باطلاق النار من بنادقهم أمامه• ولكن السلطان لم يعجبه هذا العمل وقـــال للمغربى: نحن لن نترك سنة نبينا ونتبع سنة المسيحيين ، وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » • عندئذ عاد المغربى آسفا الى بـــلاده وهو يقول : من عاش ينظر هذا الملك كيف يؤخذ بهذه البندقية !(٢٩) •

---

(٢٨) راجع مقالنا حول كتاب البارود والاسلحة النارية فى الدولة المملوكية لدافيد ايالون فى مجلة هسبريس • Hespéris 1959, 3-4 Trimestres

(٢٩) ابن زنبل : فتح مصر ص ٣١ (القاهرة ١٢٧٨ هـ) ؛
(David Ayalon : Op. cit. p. 95 ;

وقد كان كذلك ، فلم تلبث دولة المماليك أن انهارت امام جيوش السلطان العثمانى سليم الأول فى موقعتى مـــرج دابـــق شمالى حلب سنة ١٥١٦ م والريدانية شمالى القاهرة سنة ١٥١٧ م ، فصارت كل من الشام ومصر مجرد ولاية فى الامبراطورية العثمانية .

دكتور احمد مختار العبــادى

المدارس الاسلامية فى العصر العباسي
واثرها فى تطوير التعليم

الدكتور حسين أمين
الامين العام لاتحاد المؤرخين
العــــرب

ان من ابرز ما يميز الحضارة العربية الاسلامية فى العصر العباسى هــو ذلك الاهتمام الكبير بالجـــانب الثقافى وما بلغته المعـــرفة من تطوير كبــير وما اصاب التعليم من ازدهار واسع ٠ وانشاء المدارس فى الاسلام من المنجزات العظيمة التى حققت الاهداف العــلمية والتربوية وقدمت الخــــدمات الجليلة للانســـانية جمعاء٠

وتشير المؤشرات التاريخية ان مدينة نيسابور كانت رائدة المدن الاسلامية فى انشاء المدارس ، فقد شيد اهلهــــا مدرسة للفقيه الشافعى ابى اسحـــق الاسفراييتى المتوفى سنة ثمانى عشرة واربعمائة للهجرة(١)٠ كمـــا تشــير المصادر ان مدرسة أخرى انشئت فى تلك المدينة للعالم ابى بكر البيهقى المتوفى سنة ثمان وخمسين واربعمائة للهجرة(٢)٠

نلاحظ ان اهتمام اهل نيسابور كان منصبا على العناية بالمذهب الشافعى ودراسة اصوله ومن هنا على ما اعتقد كانت سببية انشـــاء المدارس فيهـــا كمعاهد للدرس والعلم ، ونيسابور كانت مركز من مراكز اهل السنة والشافعية بخاصة، وبرزت فيها طائفة من كبار اصحاب الحديث واعلام الفقهاء كالبيهقى والحاكم النيسابورى ، فالحركة المدرسية فى الاسلام على ما ارجح نشـأت فى كنف الفقهاء الشافعية ورعايتهم وذلك ان الشافعية عندما راوا ضعف مركـزهم

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ٠٩

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٥٧ / المقريزى ـ الخطط جـ٢ ص ٣٦٣ ٠

وانصراف الحكام فى هذا القسم الشرقى من العالم الاسلامى عنهم واعتماده فى نفس الوقت على الفقهاء الحنفية ببغداد ، بدأوا يعملون لدراسة وتدريس المذهب الشافعى واصول فقهه والدعوة له فنشأت بهذا حركة هدفها الاول العناية بالمذهب الشافعى واصول ذلك المذهب الذى لم تكن الدولة تعترف به وقتـــذاك فى تلك المناطق •

ان انشاء المدارس فى الاسلام يظهر انها مبادرات شعبية حققت للنـــاس طموحاتهم فى أن تكون تلك الامكنة مراكز علمية تدرس فيها مختلف العـــلوم والآداب ، وهى فى عهدها الاول وان لم تستكمل شروط المدرسة فقـد تكـــونت من بيت له رحبة واسعة فيه بعّض الغرف للدرس ، وقد تختلف المدرســـة من حيث السعة ومن حيث الوقـــوف التى توقف للصرف عليها ، وكذلك من حيث الشيوخ الذين يدرسون بها ومكانتهم العلمية واشتهارهم •

وفى سنة ٤٥٩ هـ شيد الوزير السلجوقى نظـام الملك المدرسة النظامية فى الجانب الشرقى من بغداد ، والحق ان المدرسة النظامية تعتبر من اقـدم مدارس بغداد واشهرها ، وقد انشئت لتدريس الفقه الشافعى وشرط الواقف ان يـكون المدرس بها والواعظ ومتولى الكتب من الشـافعية اصلا وفرعـا (٣) ، وكان نظـام الملك قد امر بانشاء عـدة مدارس فى العالم الاسـلامى اصبحت نموذجا للمدارس الجديدة وغدا نظام الملك نفسه قدوة حسنة يحتذى به كبار رجال الدولة من الوزراء والامراء فى انشاء المدارس ، كما ان اهمية عمل نظام الملك ترجـع الى كونه بداية عصر جـديد من الازدهار للمدرسـة أذ اصبح السلطان ورجـال الطبقة العـالية مولعين بتاسيس المدارس كما ان تـكوين المدرسة على الوضع الذى رسمه نظام الملك وما الحقه من اقسام داخلية لاقامة الطلاب اصبح فيما بعد نموذجا يحتذى به فى سائر المدارس التى انشئت فى العصور التالية (٤) •

ويبدو ان نظام الملك كان اول من خصص الرواتب والاجور للمدرسين وكل

---

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ٦٦ •

(٤) ENCYCLOPEADIA OF ISLAM : Art Masjid P. 357

العاملين فى مدارسه كما تكفل باعاشة الطلبة وتحمل جميع مصروفاتهم ، ومن الجدير بالذكر ان علماء ما وراء النهر ، اصابهم الهم والحزن عندما كوشفوا ببناء المدارس ببغداد والتنظيمات التى استحدثها نظام الملك فيهـا ، فاقاموا ماتم العلم وقالوا : كان يشتغل به ارباب الهمم العلية والانفس الزكية الذين يقصـدون العلم لشرفه والكمال به ، فياتون علمـاء ينتفع بهم وبعلمهم ، اذا صار عليه اجرة تدانى اليه الاخساء وارباب الكسـل (٥) .

ان الدافـع على ما ارجحـه من تاسيس المدارس النظـامية كان مذهبيـا وسياسيا ، لقد كان نظـام الملك شـافعيا اشـعريا حريصا على مذهبـه ، وعاصرت نظـام الملك اراء وافكار متباينـة مختلفة كانت منتشرة فى العـالم الاسلامي كالمعتزلة والباطنية وبقايا القرامطة وغيرهم من اصحاب الملل والنحل وكان نظام الملك يرمى بدرجة كبيرة الى توجيه الرعية وجهة تخدم مصـلحة الدولة وتبعث على الاستقرار والسكينة والامن ، لذا كان هم نظام الملك التاكيد فى مواضيع الدراسة على افهام الناس عامة ومنتسبى النظامية خاصة اصول الدين الصحيحة ، ولما كان نظـام الملك شافعيا ، كان يرى ان يحرس الفقـه والاصول المستمدة من افكار واراء الشافعية ، وكان من شروط النظامية ان يكون المدرس من الشافعية اصلا وفرعا .

ولما كانت المـدارس الحكومية هى فى الحقيقة امتـداد لحركة التعليم فى المساجد لذا نرىأن التعليم فى بداية امره فى مدارس نظام الملك كان قائما على العلوم الدينية واللغوية ، واعتقد ان هذا انما كان استجابة لروح العصر الذى شـيدت لاجله المدرسـة النظامية ، وقد اعتمدت النظـامية فى تدريس ونشر وتطبيق الفقه الشافعى واهتمت بتدريس القـرآن والحديث والادب واللغة ، ثم اخذت هذه المدرسة تتوسع يوما بعد يوم واخذت العلوم الرياضية طريقها الى هـذه المدرسـة .

ونلاحظ فى المدرسة النظامية نوعا من الاختصاص فنجد مثلا ابا زكريا التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ استاذا للفقه والادب فى المدرسة (٦) ثم اصبح

---

(٥) حاجى خاليفة كشف الظنون ج ١ ص ٥٣ .
(٦) ياقوت : معجم الادباء ج١٩ ص٢٧

على بن محمد الفصيحى المتوفى سنة ٥١٦ هـ صاحب ذلك الكرسى بعد وفاة التبريزى (٧) •

وكان ابو المبارك الملقب بالوجيه النحوى متفقها حنفيا ولما شغر منصب تدريس النحو بالمدرسة النظامية وشرط الواقف ، ان لا يفوض الا الى شافعى المذهب فانتقل ابو المبارك الى مذهب الشافعى وتولاه (٨) ، اى تولى تدريس النحو فى المدرسة النظامية ومن هذا نستدل على ان بعض الاساتذة كانوا ينتقلون من مذهب الى مذهب فى سبيل الحصول على منصب رسمى ، كما يدل على اقتصار الشافعية لوظائف المدرسة النظامية ، وهناك اساتذة اختصوا فى تدريس الفقه والحديث والاصول وعلم الكلام والتفسير وغيرها من العلوم.

اما كيفية التدريس فى النظامية ، فان ابن جبير اعطانا صورة واضحة لها حين زار المدرسة اواخر القرن السادس الهجرى وحضر مجلس وعظ فى الخامس من صفر سنة ٥٨٠هـ ووصف مجالس العلماء انها مجالس علم ووعظ ، وقال عنهم ان لهم طريقة مباركة ملتزمة (٩) ، وكان التدريس مرتبطا على الاكثر باوقات الصلاة ، خاصة بعد صلاة العصر ، بعد ان يتفرغ اكثر الناس من أعمالهم ، ــ اقصد هنا دروس الوعظ لعامة الناس ــ ، يقول ابن جبير : « واول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وفقيه النظامية والمشار اليه بالتقدم فى العلوم الاصولية ، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة اثر صلاة العصر من يوم الجمعة (١٠) • وطبيعى ان المدرس كان يجلس على مكان عال وهو متطيلس (اى يرتدى الطيلسان) والطريقة المتبعة ان الطلاب يجلسون امامه على شكل نصف حلقة . ويبدا الطلاب بالقراءة،«وكانوا يقرأون بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة(١١) » (ثم يبدأ الشيخ بتفسير الدرس) « ويتصرف فى افانين العلوم من تفسير

---

(٧) ياقوت : معجم الادباء ج ١٥ ص ٦٧ •
(٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٥٦٢ •
(٩) ابن جبير : الرحلة ص ١٧٤ •
(١٠) ابن جبير : الرحلة ص ١٧٤
(١١) المصدر السابق •

كتاب الله عز وجل وايراد حديث رسـوله عليه الصلاة والسـلام والتكلم على معانيـــة (١٢) » ٠

وتعددت المدارس فى العالم الاسلامى وتنوعت فى دراساتها وتخصصاتها وصارت بعض الموضوعات تدخل التدريس فى قاعاتها كالطب والصيدلة وعلم الفلك والحساب والجبر والهندسة وغيرها من المواضيع ٠ ولعل من ابرز واشهر المدارس التى انشئت فى اواخر الدولة العباسية المدرسة المستنصرية والتى امر ببنائها الخليفة المستنصر بالله العباسى وافتتحت للتدريس فى سنة ٦٣٠هـ ، والمدرسة المستنصرية لها اهمية خاصة لانها تعتبر خطوة جديدة فى تطور تاريخ المدارس فى العالم الاسلامى ، اذ المعروف ان المدارس السـابقة كانت كل واحـدة منها تبنى لدراسة مذهب واحد بعينه ، ولكن هذه المدرسة هى اول مدرسة عرفهـا العالم الاسلامى كله تشيد لتدريس المذاهب الاربعة، ويبدو ان الخليفة المستنصر استهدف من عمله ذلك جعل مدرسته محط انظار اهل السنة جميعا فلا يقف شروط مذهبى امام الطالب كما جعـــل نظام الملك من شروط القبول فى النظامية ان يكون الطالب شافعيا اصلا وفرعا(١٣) ٠

وهذا يعنى ان عامه الناس سواء كانوا من الحنفية او الشافعية او المالكية او الحنابلة لهم حق الدخول فى المدرسة المستنصرية وطبيعى فان الخليفـة المستنصر وهو الذى انشـا المدرسة فمن غيـر المعقول ان يخصصهـا لطائفة دون أخـــرى ٠

ومن الجدير بالذكر ان بناء المدرسة المستنصرية يعتبر من اجمل الآثار العباسية وسط مدينة بغداد فى الجانب الشرقى منها والبناء يعد نوعـا مـن الطراز العباسى الذى يمتاز باستخدام الاجر والمتاثر بالاساليب المعمارية الساسانية وتفضيل الاكتاف او الدعامات على الاعمدة فى حمل البوائك كما يمتاز بالاقبال على استخدام الحجـر فى كسوة العمائر (١٤) ٠

ولاول مرة فى تاريخ المدارس الاسلامية يلحـق الخليفة بالمدرسة اربعـة

---

(١٢) المصـــدر السابق ٠
(١٣) ابن الجوزى / المنتظم جـ ٩ ص ٦٦ ٠
(١٤) زكى حسن / فنون الاسلام ص ٥٤ ٠

معاهد معهد لتدريس القرآن وآخر للحديث النبوى الشريف ومدرسة للطب وأخرى للصيدلة • وانخرط بالمدرسة الطلبة من جميع انحاء العالم الاسلامى •

وعنيت المدرسة المستنصرية كما عنيت المدارس الاسلامية المنتشرة من مشرق الخلافة الى مغربها بالمكتبات الفخمة واعمارها بالكتب النفسية ، وكانت المكتبة عصب المدرسة، وكانت الكتب تبوب وترتب حسب فنونها ليسهل على المطالعين تناولها واذا اراد احدهم نسخ بعض مخطوطاتها فان الموظفين كانوا يمدونه بما يحتاج اليه من الاقلام والورق(١٥) ، وكان للمكتبة خازن ومشرق ومناول ، واعتقد ان اعظم مكتبة كانت في مدارس بغداد ايام العباسيين هى مكتبة المدرسة المستنصرية فقد ذكر ابن عنبه ان مكتبة المستنصرية كان تحوى ثمانين الف مجلد (١٦) •

ان المدارس الاسلامية فى العصر العباسى ادت دورها البناء فى الحفاظ على التراث العربى الاسلامى وتطوير وازدهار الدراسات الدينية والادبية والعلمية وقدمت خدمات جليلة للثقافة الانسانية •

ومما لا شك فيه ان المدارس الاسلامية فى اول نشاتها بذلت عناية فائقة فى دراسة العلوم الدينية وكان لهذا الامر الاثر الكبير فى تطوير وتعميق المواضيع الدينية كعلوم القرآن والحديث والفقه،وقد ساعد هذا على تفهم الناس لتلك المواضيع وظهور الدراسات العلمية والتى تميزت بالمتانة والوضوح وبالجدية واصالة البحث • ثم دخلت المواضيع الادبية كاللغة والنحو والصرف والعروض والاخبار والادب الى المدارس الاسلامية وكانت العناية فائقة بتطوير تلك الدراسات وبذل مجهودات قيمة من اجل خدمة التراث الادبى العربى وتقديم البحوث القيمة فى هذا المجال ، كما عنيت المدارس بالعلوم الرياضية وهى تشمل الحساب والجبر والهندسة والمساحة ، وبالعلوم العقلية التى تضم المنطق وعلم الكلام والاصول ، وكذلك العلوم الطبيعية والتى تشمل الطب والصيدلة وعلم الحيوان ، وقد ارتقى مناصب التدريس لهذه المواضيع نخبة من علماء العرب والمسلمين وبذلوا مجهودات قيمة من اجل دراسة تلك العلوم

---

(١٥) لسترانج / بغداد فى عهد الخلافة العباسية ص ٢٢٦

(١٦) ابن عنبة/عمدة الطالب ص ١٩٥ •

وتوسيع مدارك الطلبة وتقديم البحوث القيمة فى مجالات العلم المختلفة مما اضاف حصيلة فى الميدان العلمى ٠

والمدارس الاسلامية التى عنيت بالدراسات الدينية والادبية والعلمية قامت بتخريج اعداد كبيرة من الطلاب الذن انتشروا فى العالم الاسلامى وصاروا ينقلون ما تعلموه فى تلك المدارس وارتقى العديد من خريجى تلك المدارس الوظائف السامية فى مختلف الامصار الاسلامية ٠

ان المدارس الاسلامية والتى على ما اعتقد كان هدفها واحدا هو العناية بالمواضيع الدينية اساسا ومن ثم الاهتمام بالدراسات الادبية والعلمية ، ان هذه المدارس ساعدت على اشاعة العلم والمعرفة بين الناس عامة وربط المسلمين برباط الثقافة ، وان اتاحة الفرصة للمسلمين القبول فى اى مدرسة فى بغداد او البصرة او القاهرة او تونس او الرباط او اصفهان كان له الاثر المحمود فى توحيد الفكر الاسلامى وزيادة الترابط الانسانى مما يساعد على اتاحة الفرص للعراقى والمصرى والسورى والمغربى والفارسى والتركى ان يتعارفوا وان تتماس العقول وتحتك الافكار وتنصهر جميعها فى بودقة العلم لتبرز افكارا مدروسة وآراء مجدية فى حقول الادب والعلم ، وهذا على ما اعتقد من ابرز ما قدمته تلك المدارس فى ذلك العصر من خدمة للانسانية ولتراثها الخالد ، كما ساعد ذلك اللقاء بين البلدان المختلفه ، فى تعرفهم على عادات وتقاليد بعضهم البعض وانتشار اللغة العربية والتى اصبحت لغة الدراسة والثقافة والعلم ، مما ادى الى الاهتمام بهذه اللغة وتطويرها وازدهارها ٠

ان الانظمة الحية المتطورة والتى جاءت بها المدارس الاسلامية كان لها الاثر المحمود فى تطوير الدراسات فى العالم الاسلامى بخاصة والعالم بعامة ، ونلاحظ ان النظام التعليمى فى المدارس الاسلامية ونأخذ المدرسة النظامية على سبيل المثال انها عنيت بالتنظيم الذى يمكن ان نسميه بالجامعى ، فالهيئة التدريسية فيها تتكون من المدرسين والمعيدين، ويحدد القلقشندى وظيفة المدرس بانه الذى يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف ونحو ذلك (١٧) وكان تعيين المدرس فى اول تاسيس النظامية من صلاحية الوزير نظام الملك كما كان ذلك عندما عين نظام الملك ، ابا اسحق

---

(١٧) القلقشندى / صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٤ ٠

الشيرازى للتدريس فى نظامية بغداد (١٨) وكما عين هو الامام الغزالى للتدريس فى المدرسة ذاتها بعد ذلك (١٩) ٠ وان المدرسة كانت حريصة على التخصص العلمى ويختار المدرس من الذين عرفوا بالعلمية الواسعة والشهرة فى تخصصه الدقيــق ٠

اما وظيفة المعيد ، فوظيفة حضارية تؤكد اهميــة التعليم وتطوره عنــد المسلمين ومن المعتمد ان هــذه الوظيفة ، ظهرت فى القرن الخامس الهجـرى وذلك لعدم ورود مثل هذه الوظيفة قبل هذا التاريخ ، وارجح أن هذه الوظيفة ظهرت وهى على علاقة وثيقة بوظيفة المدرس بعد تاسيس النظامية ، والطريف فى هذه الوظيفة ومحفزاتها انها جعلت الطلبة فى المدرسة النظامية يتنافسون تنافسا علميا من اجل الحصول على الدرجـات العلمية الممتازة التى تؤهـلهم لوظيفة المعيد ، وهذا بالطبع سيؤدى الى رفع المستوى العلمى لطلاب المدرسـة الاسلامية والى ابتكار المواضيع العلمية المختلفة وهناك اسماء كثيرة من الذين كانوا طلبة فى النظاميــة او المستنصرية عينــوا معيدين لكفاءاتهم وقدراتهم العلميــة الممتــازة ٠

كما ان المعيد اذا ما اثبت جدارة واهلية واصالة بحث رقى الى درجة مدرس وهذا عامل اخر مهم ساعد على تركيز الدراسات وتعميقها كما عمل على تطوير العلوم الاســلامية كافــة ٠

وكانت مجالس المدارس الاسلامية ومكتباتها مراكز لقاء المسلمين وتلقى العلوم والمواعظ والارشادات الدينية مما يقوى الرابطة الدينية ويعمل على وحدة الفــكر الاســـــلامى ٠

ان ابنية المدارس الاسلامية والتى تبارى فى اظهار جمالها وروائع رونقها الخلفاء والسلاطين والامراء والوزراء والموسرون كانت امثلة رائعة للفن العربى الاسلامى ، فالمدرسة المستنصرية ببغــداد والتى انشئت سنة ٦٣٠ هـ اتفق المؤرخون المعاصرون لها انه ما بنى على وجه الارض احسن منها (٢٠) ، وانها

---

(١٨) ابن الاثير / الكامل جـ ٨ ص ١٠٥ ٠
(١٩) ابن خلكان جـ ١ ص ٥٨٧ ٠
(٢٠) القرمانى ــ اخبار الدول ص ١٨٠ ٠

جاءت فى نهاية الحسن (٢١) ، وصفها غريب وحسن ترتيبها عجيب شامخة الى عنان السماء (٢٢) ، وهى اعظم من ان توصف وشهرتها تغنى عن وصفها (٢٣) ، وحقا فان هذه المدرسة العربية الاسلامية هى اليوم من اجمل الاثار التى خلفها العباسيون ببغداد تشير الى سلامة الذوق الفنى وجمال الهندسة وتعبر عن مجد بنى العباس الزاهر ، وهى اضافة الى جمال بنائها تمتاز بالزخارف الرائعة التى تتكون من قطع من الاجر المهندسة باشكال وحجوم مختلفة محفورة على شكل زخارف هندسية ونباتية وتتفاوت فى الحجم والعمق ، وهذه القطع بعد ان تتم زخرفتها على انفراد تجمع بعضها الى بعض وتلصق على الجص فى واجهة الجدار أو السقف المراد زخرفته كما امتازت بالكتابات العربية الفريدة والتى مازالت واضحة مقروؤة حتى عصرنا هذا والتى تدل بوضوح على سلامة الذوق وروعة الخط وقدرة الخطاطين البغداديين وقتذاك ٠

ان المدارس الاسلامية والتى برزت بشكلها المنظم فى النصف الثانى من القرن الخامس وامتدت من المشرق وحتى المغرب كانت تطورا كبيرا فى الحياة الثقافية والتعليمية وادت رسالتها من اجل تطوير وأزدهار التعليم فى العالم الاسلامى كما كان لها دورها البارز فى تنشيط الاداب والعلوم وساهمت باخلاص فى توحيد الفكر الاسلامى والحفاظ على التراث الثقافى والاهتمام باصول البحث والعناية بالفرد من الناحية الاجتماعية كما كان انشاء المدارس مساهمة فعالة وبناءة فى رقى البناء واظهار روعة العمارة الاسلامية باساليبها الجميلة ٠

---

(٢١) مجهول ـ انسان العيون ورقة ٢٤٩ مخطوط ٠

(٢٢) الاربلى ـ خلاصة الذهب المسبوك ص ٢١٢ ٠

(٢٣) ابن الطقطقى / الفخرى ص ٢٤٢ ٠

اللقاء الحضارى فى الاندلس

دكتور عبد العزيز الأهوانى

كل من يدرس تاريخ الحضارة فى العصر الوسيط يعرف ويسلم بان الاندلس كانت موطنا للقاء طويل بين حضارتين حضارة اسلامية عربية مشرقية من جانب ، وحضارة مسيحية لاتينية اوربية من جانب آخر • ويسلمون ان هذا اللقاء كانت له آثاره التى يمكن رصدها فى حياة اسبانيا المسيحية حتى العصر الحاضر وفى حياة اوربا الغربية فى آخر القرون الوسطى وفى عصر النهضة • وقد كتب الباحثون الاسبان فى تأثر أسبانيا بالحضارة الاسلامية كتبا وابحاثا عديدة ، لعل اشهرها لقرب العهد به ولما اثاره من نقاش ومعارضة ما كتبه العالم الاسبانى Américo Castro (١) فى هذا السبيل • وكذلك كتب الباحثون الاوربيون عن تاثير الحضارة الاسلامية فى الغرب الاوربى وسجلوا ما ترجم الى اللاتينية من مؤلفات عربية وما دخل عن طريق اسبانيا العربية الى ذلك الغرب من آثار فى فروع العلم المختلفة وفى نظم الحياة المادية والاجتماعية والفنية • ويعتبر كتاب السيدة الالمانية Sigrid Hunpse (شمس الله على الغرب) (٢) من الكتب الحديثة فى هذا المجال ويمتاز بالشمول وان لم يلتزم فيه المنهج الاكاديمى الدقيق • وآخر ما صدر محاضرات لمنتجمرى وات عن الموضوع •

ولكن القضية التى لم تكد تطرق هو قضية التاثير العكسى اى تاثير الحضارة المسيحية اللاتينية فى الاندلس العربية •

---

(١) صدر الكتاب بالاسبانية فى بيونس ايرس بالارجنتين سنة ١٩٤٨ بعنوان : España en su Historia.
ثم صدرت بعد ذلك طبعات مجددة بالانجليزية والاسبانية (Cristionos, Morosy Iudios).

(٢) ترجم الى الفرنسية بعنوان : باريس سنة ١٩٦٣ Le Soleic D'Allah Brille sur.
ثم ترجم الى العربية •

افرد ابن خلدون فصلا قصيرا فى مقدمته بعنوان « فصل فى ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده » وكان ابن خلدون قد زار غرناطة وعاش فيها فترة قبل تاليف المقدمة . فاتخذ من الاندلس مثالا تطبيقا لهذا المبدأ الذي ذكره فقال : « حتى انه اذا كانت امة تجاور اخرى ولها الغلب عليها فيسري اليهم من هذا التشبيه والاقتداء حظ كبير كما هو فى الاندلس لهذا العنصر مع امم الجلالقة فانك تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء والامر لله » ص ١٤٠ طبعة بولاق ١٣٢٠ هـ .

ولا يهمنا فى هذا المجال بحث اسباب الاقتداء والتشبه وتفسير ابن خلدون لهما ، وانما يهمنا ما سجله ابن خلدون من مشاهدته لتاثير المجتمع الاسبانى المسيحى فى المجتمع الاسلامى الاندلسى ثم لنسأل هل اقتصر على الجانب المادى والاجتماعى من الحياة ام شمل جوانب اخرى عقلية وروحية ؟

ذلك هو الموضوع الذىلم يجد بعد ما يستحقهمن عناية المؤرخين والباحثين حقا . لقد كانت الحضارة العربية فى الاندلس اكثر ازدهارا وتقدما من الحضارة اللاتينية فى كثير من الجوانب ، وذلك يقضى بطبيعة الحال الى ان يكون العطاء من الطرف الاكثر تفوقا وان يكون الاستقبال ممن هو دونه .

ومع ذلك فان الظروف التاريخية للحضارة العربية فى الاندلس كانت تتيح اتصالا وثيقا لابد ان تكون له بعض النتائج فى الحضارة الاندلسية ذاتها . منها أن المنطقة الاسلامية من اسبانيا كانت تشتمل على جماعات ضخمة منالمسيحيين يعيشون داخل المجتمع الاسلامى حيث يمارسون شعائرهم الدينية ، ويحتفلون باعيادهم ومواسمهم ، ويحتفظون بتقاليدهم الشعبية ، ويقيمون علاقاتهم الاجتماعية حسب اعرافهم القديمة ـ ومنها ان اللغات الاعجمية ظلت حية داخل المنطقة العربية وان كثيرا من العرب ومن المسلمين المستعربين كانوا يعرفون الاعجمية ويتكلمون بها فى حياتهم اليومية بجانب اللهجات العامية العربية . ومنها ان الاندلس العربية كان يعيش فيها عدد من علماء المسيحية الذين يعرفون اللاتينية ويتدارسونها ويعتبرون انفسهم حملة لهذه الثقافة اللاتينية . ولم يكن الجدال الدينى لينقطع بين العلماء من أهل

الملتين • الى ظروف اخرى لعل اهمها ان الحدود بين المنطقتين العربية واللاتينية لم تكن ثابتة ، وانما ظلت متأرجحة ، بحيث يفاجأ كثير من سكان الدولتين الاسلامية والمسيحية بتغير تبعيتهم السياسية نتيجة الحروب والتوسع أو التقلص فى حدود الدولتين • ومن هذه الظروف ايضا اعتماد اهل الدولتين الاسلامية والمسيحية على مناصرة اخوانهم فى الدين ممن هم خارج حدود اسبانيا ، فاعتمد المسلمون على المغاربة واعتمد المسيحيون على دول العالم المسيحى فى اوربا الغربية فكان يتدفق على كلا الجانبين انصارهما من الجنوب والشمال طلبا للجهاد او التماسا للمغانم •

وقد كان لهذا كله آثاره الواضحة فى الحياة السياسية فى الاندلس ، وفى انواع الفتن والثورات التى قامت • وفى النظم الادارية وفى الحياة الاقتصادية •

ومع ذلك فان المؤرخين السياسيين لاسبانيا خلال العصر الوسيط لا يكادون يبرزون فى وضوح اثار هذه الظروف وابعاد هذا اللقاء او الصراع فى كتاباتهم التاريخية والاقتصادية ، فضلا عن الاجتماعية والثقافية ، وهم — اميل الى ان يعالجوا قضايا التاريخ السياسى فى كل منطقة على حده ، منفصلا عن مشاكل المنطقة الثانية ، ويتناولوا الغزوات والمعارك الحربية بين الطرفين فى اطار العلاقات الخارجية بين الدول اكثر من تناولهم لها باعتبارها جزءا من التكوين الداخلى للمجتمعين المتحاربين • وكذلك نجد العناية بالجانب الاقتصادى من حيث تاثره المباشر بهذا اللقاء الحضارى ، ضيق النطاق محدود الابعاد •

واذا عدنا الى القضية الاولى وهى تاثر الاندلس الاسلامية حضاريا باسبانيا المسيحية وجدنا ان مجال الدراسة كان ولا يزال شديد الضيق • ولا اعرف لاحد جهدا كبيرا فى هذا السبيل الاجهد المستشرق الاسبانى سيمونت .Simonet فى الجانب اللغوى • فانه فى كتابه او معجمه عن الالفاظ اللاتينية الاصل الذى استخدمها المستعربون (٢) يقدم احصاء لتلك الالفاظ كما وردت فى المؤلفات العربية • وقد اضيف الى هذا الجهد جهد آخر

---

(٢) Fn. J. Simonet, Slesorio de Voces Ibéricas y lathnes usades entre los Mozàrales. Madrid 1888.

للمستشرق الهولندى دوزى فى تكملته للهجات العربية ، كما اضاف كاتب هذه السطور الى القائمة ما استخرجه من كتاب ابن هشام اللخمى عن لحن العامة. كانت هناك اضافة اخرى صدرت عن اكتشاف الخرجات الاعجمية وعن دراسة ديوان ابن قزمـــان واسهم فيها كثيرون وعـلى رأسهم المستشرق الاسبـــانى جارثيا جومث ، كما كان لكاتب هذه السطور جهد فى ذلك •

فاذا تجاوزنا الجانب اللغوى ، او جانب المفردات اللغوية بعبارة ادق فان دراسة اساليب التعبير اللغوى لم تدخل فى نطاق هذه الجهود ـ الى جوانب اخرى وجدنا جهد الاستاذ جارثيا جومث فى مجال الاوزان الخاصة بالموشحات والازجال ومحاولته اثبات ان هذه الاوزان تاثرت باوزان اسبانية قديمة ، وانها تسير على غير النمط العربى الكمى ، بل على عدد المقاطع ومواضع النبر •

وليس من شك فى أن هنالك صعوبات موضوعية وعقبات تحول دون اكتشاف تاثير الحضـــارة الاسبانية فى الحضـــارة العربية ، اهمها فى نظرنا ضياع كثير من النصوص وخاصة النصوص النثرية التى تتصـــل بالاداب شبه العامية من قصص واساطير ، وخلو المكتبة الاندلسية من مؤلفات تصف الحياة اليومية للناس وتتحدث عن عاداتهم وتقاليدهم وانماط معيشتهم • فمن المعـــروف ان المثقفين القـــدامى كانوا يحتقرون هذه الانواع الادبيـــة غيـــر الكلاسيكية • فلما افلت ديوان ابن قزمان وجدنا فيه ما يدل مثلا على احتفال الاندلسيين براس السنة الميـــلادية (ينير) ، وما يـــدل على الاحتفال بزمن العصير بما يشبه ما يعرف فى اوربا باسم Vendimia

وسبب آخر اقرب لان يكون سببا نفسيا لدى الباحثين العرب المحدثين فانهم ـ فيما يبدو ـ يعتقدون ان القول بتاثر الحضارة الاسلامية العربيـــة بالحضارة المسيحية اللاتينية مما ينقص من قدر ثقافتنا القومية ، وهم اميل لان يجعلوا تطورها وما يستحدث فيها صادر من داخلها او من ذاتها ، لا من تاثير اجنبى وافد عليها من الخارج • ولا أرى داعيا لهذا التحرج ولا أجد ان الاخذ عن الاجنبى ينتقص من شان الاخذين ما دامت الحضارة الآخذة لا تفقد شخصيتها ولا تقع فى التقليد الاعمى •

بناء على هذا أرى انه مما ينبغـــى علميا لاستكشاف تطورنا الحضـــارى ورصد ثقافته فى الاندلس وغيرها من مواطن اللقاء الحضارى ان يكون الدارس منتبها الى احتمال هذا التأثر وهو يقرأ ما بين يديه من نصوص •

وقد حاولت شيئا من هذا اثناء قراءتى للادب الاندلسى ، وخرجت باشياء قليلة أضعها بين ايدى الدارسين لعلها تفتح بعض النوافذ فى هذا الجدار الاصم القائم بين الحضارتين اللتين عاشتا معا فى اسبانيا خلال قرون طويلة ، لا سيما فيما يتصل بتاثر الحضارة العربية ، نظرا لان تاثيرها أكثر معرفة ووضوحا ٠

اولا ـ الترجمة عن اللاتينية :

١ ـ معروف ان حركة الترجمة الى اللغة العربية قديما كانت فى المشرق من اليونانية فى المرتبة الاولى ، ثم من الفارسية والهندية ٠ ولا نكاد نعرف شيئا ترجم عن اللاتينية ٠ وقد استفادت الحضارة الاندلسية من هذه الترجمات المشرقية ٠ ولكنها التفتت بحكم المجاورة والمعايشة الى اللغة اللاتينية ٠

ومن الثابت ان كتابا للمؤرخ اللاتينى (هروشيين) Paulus Orosius من اهل القرن الخامس الميلادى قد ترجم الى العربية فى عهد عبد الرحمن الناصر او الحكم المستنصر وهو الكتاب الذى عنوانه فى اللاتينية Historoarum aduersus paganos. (٤) وتوجد الترجمة العربية لهذا الكتاب محفوظة فى مكتبة جامعة كولومبيا فى نيويورك (٥) وقد استفاد ابن خلدون والمقريزى من هذه الترجمة واشار الى الكتاب ابن جلجل (٦) ٠

وفى الترجمة العربية لهذا الكتاب اضافات تكمل تاريه القوط الى دخول طارق بن زياد عليهم ، وقد نقلت هذه الاضافات عن مؤرخين لاتينيين ٠

---

(٤) B. Sànchez Alonso, Historia de la historiografia española Atadrid 1976.
الجزء الاول ص ٦١ ٠ ولد هورشيوس فى طركونه اوبراغة حوالى سنة ٣٩٠

(٥) انظر دراسة المستشرق الايطالى Y. Leui Della Viola عن المخطوط فى مجلة Al - Anolaus سنة (١٩٥٤)ص٢٥٧ ٠وما بعدها volxlx Faes 2 ويشير الكاتب الى ان نسخة غير كاملة من ترجمة هروشيش توجد فى مسجد عقبة بالقيروان بناء على مكاتبة من حسن حسنى عبد الوهاب(هامش٢ص٢٥٩)

(٦) انظر طبقات الاطباء لابن جلجل ـ تحقيق فؤاد سيد ص٢ (القاهرة المعهد الفرنسى ١٩٥٥) ٠
ـ نصوص عن الاندلس ـ تحقيق عبد العزيز الاهوانى ـ مدريد ١٩٦٥٠

ب ـ وحين يتحدث العذرى (احمد بن عمر بن انس المعروف بابن الدلائى ٤٧٨ هـ) عن مدينة طالقة Italica القريبة من اشبليه ويذكر حكامها قبل الفتح الاسلامى نجد مثل هذه العبارة « ويذكر فى بعض الكتب المؤرخة للاخبار القديمة ان اشبان بن طيطش ٠٠٠ الخ » وحين يذكر الملك القوطى ششفوط Sisabuto ٦١٢ ـ ٦٢١ حكمه) يقول « وكان بصيرا بالكلام عارفا بالكتاب ٠ وكان عصره عصر علوم ٠ واهله اهل تهمم وفى ايامه كان اشيذر العالم يعلم الكتاب» ٠

والشيذر الذى يشير اليه هو san Isioloro اسقف اشبليه المشهور صاحب المؤلفات المعروفة (توفى ٦٣٦) بما يدل على ان المسلمين فى اسبانيا عرفوا كتب هذا العالم لاسيما ما يتصل بالتاريخ ٠ وفى الحق ان مراجعة ما كتبه العذرى عن ملوك القوط على ما أورده اسقف اشبليه عنهم يوحى بان العذرى كانت بين يديه نصوص للقديس ايزيدور ٠

جـ ـ ومما ترجم أيضا الى العربية من كتب لاتينية تلك المجموعة التى تشتمل على قرارات المجامع الكنسية الكاثوليكية ٠ وهى المجموعة التى تحمل فى العربية هذا العنوان « جميع نواميس الكنيسة والقانون المقدس » وهى من محفوظات المكتبة الاهلية بمدريد (رقم ٤٨٧٩) وقد ترجمت هذه المجموعة فى عهد الطوائف ٠

حقا ان هذه الترجمة الاخيرة قصد بان ينتفع بها رجال الدين المسيحى ممن تعربوا فى اسبانيا ، ولكن الصراع الدينى فى الاندلس والحواريين اللتين كان يدعوا المسلمين الى الاطلاع على النصوص المسيحية ٠ وقد كان بين يدى ابن حزم نصوص مسيحية ، هى غالبا مما ترجم عن اللاتينية فى الاندلس ، يستغلها فى كتابه (الفصل) ٠

وكذلك توجد اشارات فى نصوص عربية الى اللسان اللاطينى والى كتب الاعاجم ورواة العجم مما يدعو الى مزيد من التفتيش والبحث والتعقب لتوضيح هذا الجانب من الثقافة العربية وما اقتبسته عن اللاتينية او عن الاسبانية ٠

ثانيا ـ على ان قضية التأثر بالثقافة المسيحية او الاسبانية لا ينبغى ان

يقتصر فيها على بحث مترجم من اللاتينية او اللغـــات الرومانسية الى العربية • ولعـل هذا ان يكون اقل الجـوانب تاثيرا ، وانما ينبغى ان يشمل الامور الثقافة الحيـة او الثقافة الشعبية التى تسربت مشافهـة الى الثقافة الاندلسية ـ فاذا وضعنا هذا فى الاعتبار ونظرنا الى بعض ما ورد فى التراث الاندلسى وجدنا الكثير :

أ ـ هذه الالفاظ الاعجمية التى استخدمها العرب والتى سجلتها كتب لحـن العامة ، لها او لبعضها دلالات بعيدة • مثل كلمة ـ ذنتيلة ـ(٧) التىذكرها بن هشام اللخمى حيث يقـول :

(ويقولون للطعام الذى يصـنع عند نبات الاسنان للاطفـال الذنتيلة باللام ، والصـواب الذنتينة بالنـون ، وهو اسـم اعجمى • وحـكى الزبيدى فى كتاب طبقات النحويين واللغويين قال : اخبـرنى بعض الشيوخ انه نبت سن لبعض ولد الامير عبد الرحمن بن الحكم رحمه الله ، فاحدث فيه ما يحدث الناس عند نبات اسنان الصبيان • فقـال الامير للوزراء : هذا الذى يسميه الناس بالاعجمية الذنتينة هل يروى عن العرب فيه شىء • • • الخ (٨) •

ومثل الفاظ بيطيرو فيجه و مرنده و كنبوش وهى فى الاسبانيـة to abadero — Faja — Merienda — Cambuj — يضاف الى ذلك لفظ (ينر=يناير) عند ابن قزمان للدلالة على عيد راس السنة الميلادية وكلها تدل على نفوذ المرأة المسيحية فى المجتمع الاسلامى وعلى تقاليد اسبانية انتقـلت الى مسـلمى الاندلس •

ب ـ وحين نتجـاوز الالفاظ الى الاخبـــار والقصص سنجد فى كتب التـاريخ الاندلسى امثال قصة البيت المقفل فى طليطلة وكيف امر لذريق آخـر ملوك القوط على فتحه فكان نذيرا بدخول العرب الى اسبانيا • وقصة بنت يوليان صاحب سبته مع ذلك الملك وكيف غيرت التاريخ • وكلها

---

(٧) نصوص عن الاندلس ـ تحقيق عبد العزيز الاهوانى ـ مدريد ١٩٦٥•

(٨) انظر : الفاظ مغربية من كتاب ابن هاشم اللخمى فى لحن العـــامة ، مجلة معهد المخطوطات سنة ١٩٥٧ ـ المجلد الثالث ـ عبد العزيز الاهوانى •

قصص اخذت بغير شك من التراث الشعبى المسيحى • وسيجد من يبحث نظائر لهذا فى كتب التراث الاندلسى،وخاصة فى كتب الجغرافيا وما ورد فيها من عجائب البلاد والاثار القديمة والحقائق السحرية لبعض العيون والاشجار والازهار وفيما اورده العذرى ، وفيما نقله القزوينى عن الاندلسيين قدر صالح من هذا • وكذلك سيجد الباحث فى الكتب التى تتحدث عن صوفية الاندلس وكرامات بعض اوليائه ما يستشف ما وراءها من اساطير اسبانية الاصل (٩) •

جـ ـ والشعر العربى ، لانه التراث الاصيل عند العرب ، يفترض انه الحصن الممتنع على التاثير الاجنبى ، والشعر الاندلسى بغير شك كان يسير فى فلك الشعر العربى • ومع ذلك فاننا نلمح احيانا فى هذا الشعر ما يجعلنا نتوقف ونفكر فى قضية التاثر بالثقافة الاسبانية القديمة ، وان اختلفت الطرائق •

فقول الشاعر الاندلسى ابى عبد الله محمد بن مسعود (١٠)

حيران من دهشة كانى قلبق خانة الغدير

وذكر ابن عبد ربه للدب وتحطيمه خلايا العسل ، وان ارتد ذلك الى امثال عامية فهو لا ينفى ان هذه الامثال فى بعض الاحيان ثمرة لقاء حضارى مرتبط بلغات عامية تعايشت وتبادلت التاثير •

هذا التراث الشعبى المشترك بين الثقافتين هو فى تظونا وفى نظر بعض الباحثين هو المصدر الذى انبثقت عنه الموشحات الاندلسية • ولا تزال الخرجة العامية او الاعجمية فى موشحات الاندلسيين تحمل من المعانى والاخيلة والاساليب ما يجعلها نمطا مختلفا عن الشعر العربى التقليدى (١١) • ويكفى ان يكون لكثر الغزل فى الخرجات على لسان

---

(٩) انظر على سبيل المثال ما نقله الدميرى فى حياة الحيوان جـ ١ ص٢٩١ عن كتاب النصائح لابن ظفر عن راهبين اسلما ، وما رواه جـ ٢ ص ١١٢ عن ابن بشكوال عن طائر فى بلاد الروم يحفظ دعاء •

(١٠) الذخيرة ١ ـ ٢ ص ٧٨ •

(١١)ناقشنا هذه القضية بشىء من التفصيل فى كتابنا الزجل فى الاندلس ـ القاهرة ١٩٥٧ •

الفتاة تتغزل فى الفتى وتشكو حبهـا لامها لندرك مدى مخـالفة هذه الخرجـات من الغزل فى القصـيده العربية ومـدى قربه من الاشـعار البرتغـالية القـديمة التى تعـرف باسـم (Cantigas de amigo) مما يدل على تراث محـلى مشترك ٠

ثالثا : اما من حيث الفنـون ٠ فقد اوردنا نص ابن خـلدون عن التماثيل أو الصور فى بيوت الاندلسيين ، وهناك نصوص كثيرة تذكر التماثيل فى حمامات المدائن الاندلسية والصور على الابسطة ، فضلا عما وصل الينا من ادوات مصنوعة من العاج ٠ ولدينا فى الموسيقى نص صريح للتيفاشى عن نوعين من الغناء عاشا فى الاندلس نوع اعجمى ونوع عربى ٠ (وذلك فى كتابه المخطوط ، متعة الاسماع فى علم السماع (١٢) وان ابن باجـة وافق بينهما ٠

وفى تجويد القرآن يقول الطرطوشى استنكارا لما يفعله المجودون حين يبلغ القراء فيـه ذكر المسيح « فمثـلوا اصواتهم فيه باصـوات النصارى والرهبان والاساقفة فى الكنائس » (١٣) ٠

ان كل ما قصدته بهذه الاشـارات السريعة هو التنبيـه الى ان الدارسين للحضارة العربية فى الاندلس ينبغى لكى يستكشفوا الصورة الدقيقة لتلك الحضارة العظيمة ان يعيد بعضهم قراءة التراث العربى الاندلسى لعلهم يجدون فيه ما يزيدنا معرفة باثار هذا اللقاء الحضارى الخصب الذى حدث على تلك الارض الغنية التى كانت حلقة اتصال بين عـالمين وحضـارتين ٠

---

(١٢) المخطوط حسبما ذكر جاريثاجومث فى مكتبة ابن عاشور بتونس٠ وهذا الكتاب جـزء من تاليف ضخم للتيفاشى بعنوان « فصل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لاولى الالباب» والمؤلف احمد ابن يوسف التيفاشى من اهـل القرن السابع (ديوان ابن قزمان ج٣ ص٣٥ ٠ وقد نشر النص الخاص بالموسيقى فى مجلة (الفكر) التونسية بتحقيق حسن حسنى عبد الوهاب عدد يونيو١٩٥٩٠

« حـــــول الاخضر »

للدكتـور كاظم ابراهيم الجنابى
مدير الابحاث الاسلامية بمديرية الاثار العامة
بغـــداد ـ العــــراق

الاخيضر واحد من اكبر القصور العربية الاسـلامية القائمة فى البـادية الغربية من العراق يقع على بعد ٦٠ كيلو مترا غربى مدينـة كربلاء ٠

ومنذ اكتشاف هذا القصر فى نهاية القرن الماضى (١) خضـع الى تقارير وبحوث كثيرة متضاربة زادت فى غموض تاريخه وجعلته امرا معلقا يصعب تحديده ، لان قصر الاخيضر بالرغم من عظمته البنائية غفل من جميع الكتابات التى تؤرخ له وغفل من المصادر التاريخية التى تتحدث عنه ٠

ومما يؤسف له ان البعض من الباحثين حاولوا دفع الاخيضر عن محور تاريخه وجعلوه من مبانى الدولة الساسانية (٢) والصاقه بها الصاقا دون دليل وهو امر نفاه بعض المستشرقين ممن بحثوا للأخيضر عند اكتشاف مسجده ومحرابه (٣) زيادة فى ذلك ان المسوحات الاثرية الحديثة التى اجريت فـى بعض اماكن من القصر وما حوله (٤) نفت هى الاخرى عن يقين ان يكون القصر من مبانى الدولة الساسانية تلك ، ثم ان الاعمال الحفرية الاثرية لم تكشف عن لقى او اثار او نقود او مبانى تعود لزمن الدولة الساسانية وقد فاتهم ان الدولة الساسانية دولة مدن تفر من السكن فى الصحراء لان الصحارى اماكن لا يعرفها الا العرب ، ونحن نعرف فى تاريخ تخطيط المدن الاسلامية الاولى فى العـراق كانت لا تخط الا فى حدود الصحراء لان الصحراء خط حماية عسكرية تساعدهم عند الانسحاب اليها فى حالة الهجوم او الغزو ، ومنطقة الاخيضر صحراء لا تسيطر على شىء من العـــوارض الطبيعية المعـــوقة وليس فيها من الحمـــاية الدفاعية الكافية فى اوقات الحروب ، من ذلك ابتعدت الدولة الساسانية عـن سكن الصحراء وفضلت ابان حكمها للعراق (المدائن) و (الحيرة) ، وقـد حاول البعض زعما بان الاخيضر هو قصر (السدير) (٥) وقصر « السـدير » كما هو معروف من قصور الحيرة ياتى اسمه مقرونا « بالخورنق » والحيرة فيما

نعلم تقع فى ظهر الكوفة ويرى البعض ايضا ان قصر الاخيضر هو « دومة الجندل » وان الذى بناه هو اكيدر بن عبد الملك (٦) ودومة الجندل هذه من أعمال المدينة (٧) وان اكيدر هذا كان قد قتل على يد خالد بن الوليد بعد نقضه الصلح وامتناعه عن دفع الجزيه بعد وفاة النبى (ص) (٨) •

فلو كان الاخيضر قد شيد قبل دخول العرب المسلمين الى العراق لذكره رجال الفتح الاسلامى على الاقل وبخاصة قربه من مدينة « عين التمر » التى تبعد عن شماله الغربى بمقدار ٢٠ كيلو مترا •

ويرى البعض ان قصر الاخيضر كان قد شيد فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (٩) فى نحو سنة ٦٣٥ م ويرى الاخر ان قصر الاخيضر كان قد شيد فى العهد الاموى (١٠) ، ويزعم الاخر انه شيد فى العصر العباسى من قبل عيسى بن موسى ابن اخ المنصور وولى عهده (١١) ويرى البعض ايضا ان ثمة قصر فى منطقة الاخيضر ويعرف باسم « قصر بنى مقاتل » وان عيسى بن على عم المنصور كان قد خرب القصر وجدد عمارته فمن المحتمل ان يكون الاخيضر من ابنية عيسى بن على هذا(١٢) ، ولكن يذكر صاحب تقويم البلدان قول(١٣) نعرضه بحذر دون جزم خشية تحميل التاريخ هو ان ثمة قصر يعرف بـ (قصر ابن هبيرة) وكان هذا القصر مدينة قريبة من عمود الفرات •• وكربلاء محازى قصر ابن هبيرة من الغرب فى البرية •

وفى تلك البرية لا يقع الا الاخيضر وقصر اخر فى شماله الشرقى على بعد (١٠) كيلو مترات يمين الطريق الذاهب الى عين التمر ويعرف ذلك القصر محليا باسم (القصير) تصغير قصر ، فايهما ان صح قول صاحب تقويم البلدان ــ قصر ابن هبيرة ، الاخيضر ام « القصير » ؟ وبخاصة ان كلا القصرين يقعان غربى كربلاء • وابن هبيرة هذا هو يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى والى العراق فى ايام مروان الحمار آخر خلفاء بنى امية وكان ابن هبيرة واليا على الكوفة سنة ١٠٣ هـ / ٧٢١ م و ١٢٩ هـ / ٧٤٦ م •

نضع هذه الاقوال جانبا ونستعين بالمنهج المقارن ما دمنا نبحث فى التاريخ ونعمل فى حقول الاثار حفارين وبنائين على حد سواء وما دمنا قد اجرينا بعض الاعمال الميدانية الاثرية فى قصر الاخيضر وما حوله وما توصلنا اليه من مكتشفات تقرب من تاريخه الزمنى وتجعله من مبانى نهاية العصر الاموى وذلك استنادا الى هذه الملاحظات التى سنعرض لها فيما يلى :

قصر الاخيضر من ناحية موقعه الجغرافي واختياره على اطراف البادية الغربية من العراق يشبه تماما اختيار القصور الاموية فى بادية الشام كقصر الحير الغربى والشرقى فى ـ سورية ـ وقصر المشتى والحرانه وقصير عمرء (الحمام) والحلابات فى بادية ـ الادرن ـ ، وان هذه القصور تقع جميعا فى تقاطع طرق حيوية كانت تصل بلاد الشرق بالبحر المتوسط،من ذلك فلا غرابة ان يقام قصر الاخيضر فى تقاطع تلك الطرق الحيوية وفى البادية الغربية الجنوبية من العراق ، هذا من جهة اما من جهة اخرى فان كل القصور الاموية المذكورة بما فيها الاخيضر تتفق جميعها من ناحية تناول المواد البنائية وذلك باستعمال قطع الحجارة المهندمة او غير مهندمة واحيانا الآجر والسبب فى ذلك توفر هذه المادة فى البيئة الصحراوية ٠

اما من ناحية التصميم والتخطيط لها بصورة عامة وطريقة البناء فى رفع الاسوار وتسقيف البيوت والحجر وبناء العقود والاروقة او التحصين فى اقامة البروج فى اسوارها وعمل المتاريس والمزاغل ورفع الشرفات فوقها تتشابه جميعا من ناحية التخطيط مع فوارق جزئية بسيطة ٠

وقصر الاخيضر كذلك يشبه ايضا دار الامارة بالكوفة (١٤) الذى بناه رجال الفتح الاسلامى عند اتخاذهم الكوفة عاصمة لهم عام ١٧هـ/٦٣٨م بل صورة متطورة منه ٠

فدار الامارة بالكوفة يضم على سورين عظيمين سور خارجي وسور داخلي يحتوى على مرافق القصر ، ويدعم كل سور من الخارج ابراج اسطوانية تقوم على قواعد مربعة ،وكذلك وجد هذا النوع من التصميم فى قصر الاخيضر مع فارق باستعمال مادة البناء من حيث ان دار الامارة بالكوفة مشيد بالآجر وقصر الاخيضر مشيد بكسر من الحجارة مع استعمال قليل من الآجر فى تسقيف العقود وبعض الاورقة على غرار تشييد عقود قصر المشتى فى بادية الاردن ٠

يضم دار الامارة بالكوفة فى وسطه على رحبة كبرى ورواق يؤدى الى قبة مربعة ومرافق سكن شيدت على الطراز الحيرى ، وقصر الاخيضر ايضا يضم فى وسطه رحبة كبرى وايوان مركزى ودور اربعة مشيدة جميعها على الطراز الحيرى ايضا ولكن بأنواع ثلاثة منه طراز حيرى كامل وطراز حيرى ناقص وطراز حيرى موسع ناقص ٠ والطراز الحيرى هذا كانت قد كشفت

اصوله بوادى الرافدين فى العهدين السومرى والاكدى ثم استمر استعماله فيما بعد حتى العصور الاسلامية وبخاصة بالدور والقصور التى اقيمت فى سامراء العباسية .

اضافة الى ذلك فقد عثر فى الاخيضر على نمط من التخطيط هو وجود سلم ومدخل الى جانب ايوان البيوت يؤدى الى مجاز يتصل بملحقات الدار كالمطبخ والحمام وتصريف المياه المختلفة ، وهذا النمط من الابناء شاع استعماله لاول مرة فى العصر الاموى .

وقصر الاخيضر بعد ذلك يضم على مسجد ومحراب وقد اثبتت الحفائر الاثرية فى ان هذا المسجد ومحرابه هما من صلب بناء القصر وتخطيطه ولم يكن مضافا او مستحدثا فيه وله خصائص المساجد الاسلامية الاولى كما ان محرابه يعد اقدم المحاريب المجوفة القائمة التى وصلتنا من آثار العراق الاسلامية ومعروف ان المحاريب المجوفة ادخلت اول مرة فى عام ٧٠٩ م فى زمن الوليد بن عبد الملك لما عمر جامع المدينة .

ويضم مسجد القصر فى جدار مؤخرته من الداخل على عقدين مفصصين على غرار ما هو موجود فى الجدار الجنوبى « لمسجد الحلابات » فى بادية الاردن من العصر الاموى ايضا ، ثم ظهرت العقود المفصصة بعد ذلك بوضوح فى مبانى سامراء العباسية .

كما تضم زوايا مقدمة المسجد فى الاخيضر على انصاف عقود مخوصة او محارية معمولة بالجص وهذه العقود فيما تعرف اشتهرت فى الطراز الاموى وعندنا فى العراق محراب جميل من الرخام اعلاه بهيئة قوقعة محارية قيل ان المنصور كان قد جلبه من بلاد الشام حينما شرع فى بناء مسجد الجامع ببغداد ويعرف هذا المحراب باسم محراب (جامع الخاصكى) احد مساجد بغداد العثمانية .

ولا ريب فى ان المعمار لقصر الاخيضر حاول ان يؤلف بين هذه العقود المحارية وجعلها بشكل قبة دائرية مخوصة من الداخل وتقع هذه القبة ما بين سقف مجاز مدخل القصر وجدار قاعة الاستقبال وتعدهذه القبة اقدم قبة دائرية قائمة وصلتنا من اثار العراق الاسلامية حتى الآن .

زيادة فى ذلك ان فى قصر الاخيضر عقـود شـبه مدببة او دائريـة او بيضاوية وكذلك عقود سقوف الحجر (البرميـلية) التى تشبه اتيبـة قصر المشتى الاموى فى بادية الاردن ٠

وملاحظة اخرى انه بعد التحقيق والمقارنة بين اسوار القصور الاموية فى بادية الاردن وقصر الاخيضر وجـدنا ان بعض المزاغل الدفاعيـة المشـيدة بشكل سهام فى رأسـها مربع موجودة فى سور قصر الحـرانة وسـور قصر الاخيضر على حد سـواء ٠

ويبدو ان هذا التصميم من المزاغل لم يصلنا من العمـــائر العباسية فى العراق وبخاصة عمائر سامراء ، فلو كانت هذه المزاغل من خصائص العمـارة العباسية لظهرت بوضوح واستعملت فيما بعد كاستعمال الشرفات المعروفة بـ (البارابيت) المستعملة بشكل انصاف متدرجة بنظام المربعات فى اسوار قصر الاخيضر واسوار قصر الحيـر الغربي او بهيئة كاملة كما فى سـقوف مسجد الاخيضر وواجهة ايوانه المركزى او واجهة ملحقه الشرقى ٠

ولا يخفى ان نظام الشرفات هذا يرجع الى اصول قديمة فى حضارة وادى الرافدين ووجد نظام منه كاملا مرسوما بالالوان فى دار الامارة فى الكوفة من العصر الاموى ولسهولة استعماله وجمال تشكيله فقد استمر استعماله حتى الآن فى العراق وبخاصة فى المساجد والمآذن والبيوت ٠

وثمة ملاحظة اخـرى ان البحث الاثـرى كان قد توصـل قبل اعوام الى اكتشاف كتابة كوفية مؤرخة سنة ٦٤ هـ اى من العصر الاموى ٠ وهذه الكتابة وجدت منقوشة على حجرة كبيرة فوق كتف وادى الابيض على مسافة يسيرة من قصر الاخيضر، وهذه الكتابة لها اهميتها فى تاريخ المنطقة التى يقوم فيها الاخيضر حيث تعد اقدم كتابة كوفية وصلتنا حتى الآن وتعرف هذه الكتابة باسم كتابة حجر حفنة الابيـض (١٥) ٠

والسؤال الذى يقابلنا بعد ذلك هل قصر الاخيضر وما حوله يشكل مدينة ؟ وهل مدى البحث الاثرى باكتشاف اثار امـوية حول الاخيضر ؟

فى المخططة التى تحت يدنا والمنقولة فى الاصل عن صورة جوية لمنطقة

الاخيضر ترينا هذه المخططة ان القصر وماحوله من كثبان محددة حسب رسمه الجوى يؤلف مدينة وان هذه المدينة تنتشر بعض علائمها فى شـمال القصر وشرقيــه واجــزاء من غربيه ، وان وادى الابيض الذى يمر من امــام القصر يشطرها الى نصـفين النصف الشمالى الذى يقع على مســافة كيلو مترين من بوابة القصر الرئيســية فوق الكتف الايسر للوادى المذكور • يؤلف مستوطنا واسعا ويعرف هذا المستوطن محليا باسم « تلول الاخيضر » •

وبالنظر لاهمية هذا الموقع فقد خضع لاعمال حفرية اثرية عام ٧٣ـ٧٤ـ ١٩٧٥ وكشفت تلك الاعمال عن مجموعةمن بيوت السكنومسجد وبقايا محراب وكانت تلك البيوت مشيدة باللبن المربع ومطلية من الداخل بالجص اضافة الى استعمال الاجـر • كما كشفت تلك الاعمال عن مجموعة من زخـارف الجص والفخار وقوارير الزجاج ، وقد اسفرت النتائج الاولية طبقا لهذه المكتشفــات ان « تلول الاخيضر » مستوطن يعود الى العصر الامـوى •

اما للكتف الايمن من الوادى المذكور كما نشاهد من المخططة المذكورة ، مجموعة من بيوت السكن تنتشر امام القصر وشرقيه ثم يقترب امتدادها الى الركن الشمالى الشرقى لسور قصر الاخيضر بمسافة ٣٠ مترا وفى خلال عملنا لصيانة واعمال قصر الاخيضر عام ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ اجـرينا حفـائر اثريــة تجريبية فى تلك المسافة على اثر ظهور الجدران بعد امطار شديدة ــ وبعــد الحفر التجريبى كشفنا عن دار مستطيلة الشكل طول ضلعها ٥ر٢٤م وعرضها م تضم فى جنوبها خمس حجر مربعة قياس كل حجرة ٤×٤ م ويؤدى بعضها الى البعض الاخر عن طـريق مداخل وهذه الحجر تطـل على مساحة مستطيلة هى فناء الدار على جانبيها الشرقى والغربى اربعة حجر •

اما قسمها الشمالى فلن نهتدى الى كشفه لدثور كل المعالم نتيجة التخريب الذى حصل للموقـع •

والدار المكتشفة مشيدة باللبن المربع قياسه ٣٢×٣٢×٧ سم ، الوجه الداخلى منها مطلى بالجص والخارجى غفل منه وان ارضية هذه الدار وطريقة بنائها تشبه تماما الدور المكتشفة فى تلول الاخيضر الانفة الذكر وقد حددت لنا كسر الفخار المزججة واساليب البناء على ان الدار المكتشفة هذه تعود الى العصر الاموى ايضا بعد الحجاج •

وثمة ملاحظة ان احد اركان البرجين المشيدين خارج سور الاخيضر وجد مشيدا فوق الركن الغربى لتلك الدار المكتشفة مما يؤيد ان الدار هذه اقدم بقليل من بناء قصر الاخيضر .

واستنادا الى المخططة الجوية لمنطقة الاخيضر والحفائر التى اجريت اخيرا فى المستوطنات القريبة منه كان يؤلف مدينة وان وادى الابيض كان يشطرها الى نصفين وان آثار السكن المنتشرة حوله ترجع الى نهاية العصر الاموى كما بشرت نتائج الحفائر التجريبية التى اجريت فيها مؤخرا وان قصر الاخيضر يعود لها ، ومع ذلك اننا نضع كل هذه الملاحظات ونهيب بكل العاملين فى حقول الحضارة العربية الاسلامية ان يضعوا حدا معنا لتاريخ قصر الاخيضر الذى ظل لغمة الباحثين حتى الآن .

الدكتور كاظم ابراهيم الجنابى
مدير الابحاث الاسلامية بمديرية الاثار العامه
بغداد - العراق

المراجـــــع

(١) أول من زار قصر الاخيضر الرحالة « الدنيماركى » نيـور وقد ذكره فى رحلته الى ديار العرب المطبوع فى كوبنهاكن سنة ١٧٧٤ م ٠

(٢) LOUIS MASSIGNOR — Lechatean dàl — okhaider — Extraitdes comptes Rendus des sénces de L'ettres, 1909. p. 202 et seq.

(٣) BELL, PALACE and Mospue cet ukhaidlr. p. 158. coxford, 1914
K.R.C CRESWELL A shortaccount of Early MUSLIM Architectvre P. 196 - 200.

(٤) باقـر الحسنى سومر مجلد ٢٢ ص ٧٩ ـ ١٩٦٦ ٠

(٥) مجـلة لغـة العـرب العدد (٢) آب ١٩١٢ ص ٤٧ ٠

(٦) نفس المصـــــــدر ص ٤٨ ٠

(٧) ياقوت : معجم البلدان مجلد ٤ ص ٣٩٥ ٠

(٨) الطبرى حـوادث سنة ١٢

(٩) مجلة لغة العـرب العـدد (٢) آب ١٩١٢ ص ٤٧ ٠

(١٠) BELL. P. 158

(١١) CRESWELL. P. 20L

(١٢) د ٠ صالح احمد العلى / سومر مجلد ٢١ ص ٢٤٥ / ١٩٦٥ ٠

(١٣) ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ طبع باريت ١٨٤٠ ٠

(١٤) د ٠ كاظم الجنابى : تخطيط مدينة الكـوفة ص ١٩ و هـ ١٣٠ طبـع بغـــداد (١٩٦٧) ٠

(١٥) عـز الدين الصندوق : حجر حنة الابيض سومر المجلد ١١ ص ٢١٣ ـ ٢١٦ / ١٩٥٥ ٠

من تراث مصر العلمى
فى العصر المملوكى

دكتــور عبــد الرحمــن زكى

ان عصر المماليك المصريين قد يسكون فى نواحى كثيرة ازهى عصور الاسلام فى مصر بالرغم من الحروب المتواصلة التى خاضتها البلاد ضد الصليبيين والمغول فى عشرات من المعارك الدموية دامت اكثر من قرنين ونصف القرن • والحق اننا ندين لهؤلاء المماليك لمواقفهم المجيدة فى انقاذ الشرق العربى من التسلط الاوربى ومن غارات المغول الهمجية ، وما احدثوه من الخراب والنهب وسفك الدماء فى العراق والشام وغيرهما •

وصورة مرحلة الحكم المملوكية فى مصر لا سيما فى القاهرة والاسكندرية لا تتمثل فقط فى تلك العمائر التى شيدوها فى القاعدة الاسلامية ، من مساجد ومدارس • وخانقات ووكالات واسبلة وحمامات واضرحة ، مازالت نماذج منها باقية حتى اليوم بل تنجلى ايضا فى ذلك التراث الرائع الضخم الذى خلفه العلماء والفقهاء والادباء والعلماء فى مؤلفاتهم التى مازالت تعتبر فى طليعة مراجع البحوث والدراسات فى شتى الوان الثقافة الاسلامية •

والواقع أن ما كشف من هذا التراث لضئيل جدا • وفى رأى معظم المشتغلين فى هذا الحقل أن التاريخ العلمى للدولة المملوكية ، سواء اكانوا مماليك بحرية ، او مماليك شراكسة لم يكتب ويدرس بعد : ونقصد بهذا التاريخ مجالات علوم الطب والفلك والكيمياء والفيزيقا والرياضيات والهندسة والنبات والحيوان وعلم الارض (الجيولوجيا) ــ فضلا عن حقل العمارة الاسلامية والفنون ايضا •

وينبغى قبل الافصاح ببعض الاراء القاسية ، ان نعترف ان جهودا طيبة قد بذلت فى السنوات الاخيرة ، بذلها العلماء العرب والعلماء الغربيون ، فسلطوا الاضواء وانارو بدراساتهم وبمؤلفاتهم ، معارف كثيرة كانت غامضة

من قبل ٠٠ تم ذلك فى مناسبات هامة وندوات علمية ، نذكر منها على سبيل المثال فقط وليس الحصر بحوث ندوة الفية القاهرة بمناسبة الاحتفال بمرور الف سنة على انشائها وكان ذلك فى عام ١٩٦٩ ثم جاء فى اعقاب تلك الندوة نشر جميع الدراسات التى بحثت فى عدة مجـلدات نفيسة صدرت فى اللغـة العربية فى شتى اللغات ألاجنبيـة ٠

اما المثال الثانى ، فيتمثل فى ندوة المؤرخ المصرى الشيخ عبـد الرحمـن الجبرتى فى مناسبة مرور مائة وخمسين سنة على وفـاته ٠٠ تلك النـدوة الناجحة التى اقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ومجهود رئيسها المؤرخ الجليل الاستاذ احمد عزت عبد الكريم واصدقائه وتلامذته من مؤرخى مصر الحديثـة ٠

والمثال الثالث : هذا المهرجـان الفخم الذى عرف باسم مهرجان حضـارة الاسلام ٠٠ الذى اقامه نفر من محبى ومقدرى الحضارة الاسلامية البريطانيين واسهم فيه علماء افاضل فى شتى مجالات حضارتنا الانسانية الخالدة : من الملايو وايران واندونيسيا والعراق وسورية ومصر والشمال الافريقى٠وكانت المعارض والمتاحف والندوات والمحاضرات وما صدر من المؤلفات القيمة باللغـة الانكليزية وما نشر فى المجلات العلمية المتخصصة عملا ممتازا جديرا بالتقدير والاعجـاب ٠

والمثال الرابع هو ندوة الحضارة الاسلامية التى يحققها اليوم علماء كلية آداب جامعة الاسكندرية ، وهم من الصفوة الممتازة من الاعلام الاجلاء ارادوا ان يجمعوا فى ذكرى مرور عام على وفاة العزيز العالم الاستاذ احمد فكرى وليسلطوا انوار المعـرفة فى ندوة تدور بحوثها حـول شتى الوان الحضـارة الاسلامية٠٠٠انه حقا الاحساس بنبل وشعور سام يستحق الشكر والامتنان٠

كم نحن فى حاجة لبث مثل هذا التقدير البار لعلماء تفانوا وأفنوا أنفسهم فى البحث والكشف والريادة وعمـلوا جادين فى تربية اجيـال تتعاقب من بعـدهم ٠

تراث مصر قبل العصر المملوكى :

وارجو ان لا يظن احد ان مصر قبـل العصر المملوكى كانت مجـردة من

تراث حضارى او انجازات علمية ، فقد اخذت مصر الاسلامية منذ استقر الاسلام فيها وعلى ايام الولاة فى عصور الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين ان تسهم بدورها فى بناء صرح الحضارة الاسلامية .. لقد اخذت البلاد منذ ايام الطولونيين ثم الفاطميين فى بناء حضارة اسلامية الى جانب دعم سيادتها السياسية ، ففى مجال العلوم الطبية لمع فى عصر الفاطميين كثير من الاطباء المسلمين والنصارى واليهود ، فمنهم الطبيب احمد بن محمد البكوى (ت ٩٩١م) والطبيب محمد بن سعيد التميمى المقدسى المولد ، وكان فى مصر حتى عام ٩٨٠ م ، ومن كتبه « المرشد الى جواهر الاغذية وقوى المفردات » . كما ان له رسالة فى ماهية الرمد وانواعه واسبابه وعلاجه ، وموسى بن العازار احد اطباء المعز لدين الله مؤلف « شراب الاصول » ، والطبيب على بن سليمان ومن مؤلفاته « الحاوى فى الطب » وكتاب الامثلة والتجارب ، والكحال ابو القاسم عمار بن على الذى عمل طبيبا للعيون اثناء حكم الحاكم بامر الله ، ولمع اسم الطبيب على بن رضوان (٩٨٠ ـ ١٠٦١ م) الذى برع فى الطب وعمل رئيسا للاطباء بالقاهرة ، فى ايام الحاكم بامر الله ، والظاهر، والمستنصر بالله . ولابن رضوان رسالة هامة عنوانها « فى دفع مضار الابدان بارض مصر» ترجمها الى الانكليزية الطبيب المستشرق ماكس مايرهوف (عام ١٩٢٨). ونقابل فى العصر الفاطمى الطبيب العالم « المبشر بن فاتك » الذى اجاد علوم الهيئة والعلوم الرياضية كما اشتغل بالطب ، وله مجموعة من الامثال نسبت الى قدماء الحكماء عنوانها « مختار الحكم ومحاسن الكلم » وترجمت هذه المجموعة الى اللغة الاسبانية بعوان «قطع الذهب» ... وقد ترجم فيما بعد الى الانجليزية وكان اول مطبوع انكليزى طبعه « وليم كاكستون » سنة ١٤٧٧ الذى كان رائد الطباعة فى انكلترا .

ونلتقى فى العصر الفاطمى بالحسن بن الهيثم اعظم علماء الفيزياء المسلمين ، وعبد الرحمن بن يونس ـ المصرى الفلكى ومن مشاهير الرياضيين الذين لمعوا بعد البتانى ، وكانت مؤلفات ابن الهيثم البصرى المولد ـ المرجع المعتمد فى علم البصريات عند علماء اوروبا حتى القرن السادس عشر وقال عنه جورج سارتون مؤرخ العلم انه « اكبر عالم فيزيقى مسلم ومن اكبر المشتغلين بعلم المناظر فى جميع الازمان » وكان فلكيا ورياضيا وفيزيقيا ، وكتب شروحا شتى على مؤلفات ارسطو وجالينوس .

الحضـــارة فى ايام الايوبيين :

وحينما كان الايوبيون يعاركون الصليبيين فى الشام وفلسطن ، كان العلماء فى تلك الحقبة يواصلون ابحاثهم العلمية ويؤلفون كتبهم ، فمن ابناء العصر الايوبى ابراهيم بن الرئيس بن ميمون الذى زاول عمله طبيبا فى خدمة السلطان الكامل وفى الماريستان ايضا (ت بعد عام ١٢٣٣ م) وهناك الطبيب جمال الدين ابو الحسن بن يوسف القفطى صــاحب كتاب « اخبــار العلمــاء باخبار الحكماء » ولم يكن يحب من الدنيا سوى الكتب فأوصى بمكتبته للملك الناصر الايوبى ملك حلب ٠٠٠ وازدهر من الاطباء فى ذلك العصر ايضـا ابو البيان بن المدور « (ت بالقاهرة حوالى ١٢٨٤ م) وكان طبيب صلاح الــدين الخاص وله رسالة المجربات فى الطب » ، والطبيب ابو المكارم ابن هبة الله بن الحسن صاحب المؤلفات الطبية الكثيرة ، والطبيب ابو المعــالى ابن هبة الله ، والكمال احمد بن عثمان ابو العبــاس ، الذى اطلـق عليه « رئيس الاطبــاء بالديار المصرية » وقد الف رسالة فى امراض العين عنوانها : كتاب نتيجة « الذكر فى علاج امراض الابصر » وغير هؤلاء كثيرون ٠

ومن علماء الفلك فى مصر الايوبية « قيصر بن ابى القاسم بن عبد الغنى وهو العالم الرياضى والفلكى والمهندس ٠ ولد باصفون من اعمال قنا حوالى عام ١١٧٨ /٧٩٠م وتوفى عــــام ١٢٢٥ صنــع كــرة فلكية (سموية) انتقلت الى خزينة كاردينال بورجيا فى فلليترى حتى عام ١٨٠٩ ثم آلت الى متحف نابولى الوطنى حيث توجد اليوم وقد نقش على الكرة اسم صانعها بالخط الكوفى وعام ٦٢٢ هجـرية ٠ ٠

العلوم فى مصر المملوكية

ولعل اول من نلتقى بهم من اطباء مصر المملوكية اللامعين : على بن ابى الحزم المشهور بابن النفيس (١٢١٠ ـ ١٢٨٨) الذى لمع اسمه فى مارستان المنصور قلاوون بالقاهرة ، وقد الف فى الطب مالا يقل عن اربعة عشر كتابا ، من اهمها : كتاب الشــامل فى الطب وهو موسوعــة ضخمة تضــاهى كتــاب « الحاوى للرازى » وقد اهتدى هذا الحكيم المصرى النابه الى حقيقة الدورة الدموية الصغرى ـ دورة الدم من البطين الايمن فى القلب الى الرئتين ثم الى

البطين الايسر قبل أن يكتشفها الاوربيان : ميشيل سرفتسن (١٥١١–١٥٥٣) وريالدو كولونبد سنة ١٥٥٩ فسبقهما الى ذلك بقرابة ثلاثة قرون · والجدير بالذكر ان ابن النفيس كرر أراءه في الدورة الدموية الصغرى في خمسة مواضع في كتابه مما يدل على انه فهمها فهما لا يشوبه شك أو التباس(١) ·

ونذكر من المع اطباء العيون في ايام المماليك البحرية ، صدقة بن ابراهيم المصرى الشاذلى ، عاش في مصر خلال النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، والف كتابا عن مرض الرمد عنوانه « كتاب العمدة الكحلية فى الامراض البصرية » قسمه الى خمسة اقسام ، اولها : تشريح ووظائف العين ، ثانيها : اشياء عامة طبية ورمدية ، ثالثها : – الامراض المرئية فى العين وتشخيصها ومعالجتها ، رابعها : الامراض غير المرئية ، خامسها : وسائل طبية متعلقة بالطب والرمد· ولا شك ان كتاب الطبيب صدقة بن ابراهيم يعتبر من المؤلفات الممتازة لشموله واصالته النسبية· · اتبع فى تاليفه منهجا علميا· مازال الى اليوم ينهج على منواله اطباء هذا العصر· والجدير بالذكر ان الدكتور هيرشبرج المستشرق المشهور بدراساته كتب رسالة مسهبة فى تحليل فصول كتاب صدقة تحليلا وافيا ·

وفى هذا العصر المملوكى ، لمع اسم شهاب الدين ابو العباس احمد الفقيه والعالم القيزيقى · ولد بالبهنسا بالقرب من بنى مزار ومات فى دير الطين بالقرب من المعادى حوالى عام ١٢٨٥ م · كتب رسائل شتى فى فقيه مالك ودافع فيها عن الاسلام ، وشهر برسالته التى كتبها لبولس الراهب مطران صيدا · ومن اهم بحوثه العلمية « كتاب الاستبصار فيما تدركه الابصار » كتبها تلبية لرغبة السلطان الكامل ليبعث بها الى الامبراطور فردرك قبل عام ١٢٣٩ وقد تكلم فيها عن قوس القزح وكانت اولى الرسائل التى كتبت فى هذا الموضوع الهام(٢) ·

---

(١) د· سامى حداد : مكتشف الدورة الدموية الصغرى ومن هو ؟ مجلة المقتطف عدد اكتوبر عام ١٩٣٦ ، ص ٢٦٤ – ٢٧١ ·

(٢) Aydin m. Sajei : ac - Qarafir and his explanation of the rainbow, Izis 32, p. 16 - 26.

ومن اطباء العصر المملوكي ــ اميـن الدولة يعقوب بن اسـحق بن القف (ت حوالى ١٢٨٦ م) وهو من تلاميذ ابن ابى أصيبعة • ومن اهم مؤلفاته : كتاب الجـامع الغرض فى حفظ الصحة ودفع المرض ، ورسـالة فى الجراحة عنوانها : « كتاب العمدة فى صناعة الجراحـة » وهى مقسمة الى جـزئين ، احدهما نظرى والاخر عملى ، ويحتـوى كل منهما على عشرة فصـول ، وله ايضا « كتاب الاصول فى شرح الفصول » الذى اعتمد فيه على طب ابقراط(٣) •

وفى القاهرة عاش سعيد بن منصور بن سعد الذى اشتهر بابن كمونه الاسرائيلى وهو فيلسوف وطبيب وكيمائى • لمع فى منتصف القرن الثالث عشر واعتنق الاسلام والف شتى الرسائل فى الحكمة اعتمد فيها على رسالة لابن سينا وكتاب الاشارات والتبيهات » جعل عنوانها « التلويحات » اعتمـد فيها على بعض آراء السـهرودى ولابن كمونه هذا رسـالة فى الرمد عنوانهـا « الكافى الكبير » واخرى فى الكيمياء عنوانها « تفتيح الابحـاث عن الملل الثلاث » وقد ذكر بروكلمان مخطوطات ابن كمونه (٤)•

ومن المع اطباء عصر المماليك البحرية « محمد بن ابراهيم » المعروف بابن الدهاء الجرائحى • قـرأ الطب على ابن النفيس وغيره ثم قـرأ الحكمة وكان يتردد على شمس الدين الاصبهانى والى الخانقاه القرصوية بالقرافة القبلية • مهر طبيبا ومتفلسفا وتطلع الى الكيمياء فتحدث فيها وصحح اقوال المتقدمين ، وتوفى فى ايام السـلطان الصـالح عمـاد الدين اسـماعيل فى عام ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) •

ولدينا الكحال شمس الدين بن محمد بن برهان الدين ابراهيم الشهير بابن الاكفـانى ويعتبره كثيرون خاتمة اطبـاء العيون المشـهورين فى عصر المماليك البحرية وقد مات اثناء انتشار الطاعون الذى اجتاح القاهرة سنـة ١٣٤٨ • قال عنه صلاح الدين الصفدى احد تلاميذه : بانه اشتهر بكافة العلوم

---

(٣) Sarton, y. : Tutroduction to the History of Seience. Vol II, part II, p. 1099.

(٤) المرجع السابق ج٢ ، القسم الثانى ص ٨٧٥ وبروكلمان ج ١ ص ٤٣٧ و٤٥٤ و ٥٠٧ •

الطبيعية وفى الرياضيات وعلم الهيئة وقد درس عليه (اى للصفدى) كتاب اقليدس (المجسط) وكتبا اخرى • فاق ابن الاكفانى زملاءه فى معرفته باصناف الجواهر والاحجار الكريمة • وقد عمل طبيبا ومشيرا لناظر بيمارستان قلاوون فى القاهرة • الف ابن الاكفانى كتبا شتى ، منها : ارشاد القاصد الى اسمى المقاصد والباب فى الحساب و«غنية اللبيب عند غيبة الطبيب» ونخب الذخائر فى معرفة احوال الجواهر(٥) وكتاب « كشف الدين فى احوال امراض العين(٦) رتبه على ثلاث مقالات اشتملت على الفصول التالية(٧) :

الاولى : فى احوال العين وخواصها ومزاجها وحفظ صحتها ومعالجة اسقامها •

والثانية فى ذكر امراض العين واسبابها وعلاجاتها الجزئية وامراض العين وطبقات العين السبعة ورطوبتها الثلاث واعصابها وعضلاتها والتشنج فى العين •

الثالثة : فى الادوية المفردة مرتبة على حروف المعجم والعقاقير المركبة •

والطبيب علاء الدين بن عبد الواحد بن محمد المعروف بان صغير (ت ١٣٩٤) رئيس الاطباء فى مصر وبرع فى الطب ووصف بانه كان اعجوبة دهره •

ونحن اذا اردنا سرد اسماء الاطباء اللامعين لما اتسع هذا اليوم لذكر اسمائهم فقط ، ويكفى ان نشير الى ذلك المستشفى أو الماريستان الذى بناه السلطان المنصور قلاوون مؤسس اسرة القلاويين فى قلب القاهرة فكان خير مؤسسة للعصر الطبى الاسلامى الزاهر ، غير ان الايام قضت عليه حتى صار

---

(٥) حقق هذا الكتاب ونشره الاستاذ انستاسى مار الكرملى البغدادى ـ المطبعة العصرية بالقاهرة ١٩٣٩ •

(٦) مخطوط رقم ٤٦ طب جيم ـ دار الكتب المصرية

(٧) د• سامى خلف حمارنه : تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ص١٦ـ١٧ القاهرة ١٩٦٧ •

فى ايام الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) فى اسوأ حال كما شهد بذلك أطباء الحملة ٠

دراسة المعادن والاحجار الكريمة

وكانت دراسة المعادن او علم المعادن موضع عناية العلماء العرب منذ قيام الدولة العربية ٠ وقد وصلت الينا اسماء بعض العلماء ممن اشتهروا بدراسة الاحجار الكريمة ومنهم بيلق القبجقى الذى عاش فى القاهرة حوالى (١٢٤٢ ـ ١٢٨٢) وألف قبل وفاته كنز التجار فى معرفة الاحجار « وقد اهداه الى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون والجدير بالذكر ان بيلق هذا وصف فى كتابه البوصلة العائمة واستخدامها فى الملاحة ٠

ومن علماء الاحجار الكريمة (وعلمها كمالا يخفى ، يدرس فى الدراسات الفعالية الجيولوجية فى الامم المتقدمه ـ اعود فاقول ان من علمائها فى مصر فى القرن الثالث عشر شهاب الدين ابو العباس احمد التيفاسى (ت ١٢٩٣) الف كتابه « ازهار الافكار فى جواهر الاحجار » وصنف فيه خمسة وعشرين صنفا من الاحجار الكريمة فتناول كل صنف منها على حدة ذاكرا انواعها وخصائها واثمانها وقد نشره عام ١٨١٨ الكونت الايطالى انطونيوريندى بتنيا فى ايطاليا ثم ترجمه الى الفرنسية الاستاذ كلمنت فوليه بعد اضافة الشروح والزيادات ونشرته المجلة الاسيوية ٠

وفى علم الحيوان يقابلنا فى العصر المملوكى كمال الدين محمد بن موسى الدميرى مؤلف الموسوعة الكبرى فى علم الحيوان التى تعرف بكتاب « الحيوان الكبرى » الذى يقع فى حوالى اربعمائة صفحة (طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٤) وعلى هامشه كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للامام العلامة زكريا ابن محمد القزوينى ٠

كذلك نبغت طائفة من علماء الفلك فى العصر المملوكى ، منهم ابو زكريا يحيى الشهير بابن [illegible] (ت بعد ١٣١٧) وكان رياضيا [illegible] [illegible] (ت ١٤٤٩) [illegible] [illegible] نسخة منها فى مكتبة [illegible] فى [illegible] عام

١٣٣٣ / ١٣٣٤ ونقش عليه اسم صاحبه ناصر الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم . كما الف عدة رسائل فى آلات معرفة الوقت وكيفية استخدامها.

وفى الكيمياء حظيت مصر المملوكية بالكيميائى عز الدين على بن ايدمر الجلوكى فى ايام الناصر محمد بن قلاوون ، ويعتبر آخر علماء الكيمياء العرب الافذاذ – وقد خلف قرابة عشرين مصنفا فى علوم الكيمياء والحكمة ، من اهمها : « البرهان فى علم الميزان » مخطوط دار الكتب بالقاهرة رقم ٣٥ كيميـا) .

ولا يخفى ان البارود كشف مملوكى ينسب الى نجم الدين حسن الرماح المصرى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر وعنوان مخطوطه الذى ذكر فيه قاعدة البارود « كتاب الفروسية والمناصب الحربية » وتوجد مخطوطة بنسختيها فى دار الكتب الوطنية فى باريس . . .

مقصدنا

ونكتفى بهذ السرد الرتيب لاسماء طائفة من العلماء العلميين فى مصر المموكية . . لنقرر مقصدنا من هذه الكلمة فى تلك المناسبة الجليلة .. وهو . . . اذا كنا نريد حقا الافادة من تراثنا العلمى مملوكيا كان او ايوبيا أو فاطميا او عباسيا او عثمانيا فعلينا ان نواجه الحقيقة بجد وجدية . فان تحقيق هذا التراث الضخم لا يتم بتلك الجهود الفردية المتواضعة التى يقوم بها الافراد . . وليس تحقيق ونشر هذا التراث امرا سهلا وميسرا الى هذا الحد الذى نتصوره . صحيح كانت لدينا منذ نصف قرن او أكثر فى دار الكتب المصرية (الكتبخانة) جهاز قد يحقق ويصدر بعض كتب التراث فى الادب والتاريخ ولكننا اليوم تعوزنا المعاهد العليا لدراسة التراث العلمى الغربى ، وتهيئة جيل كفء من الاكفاء الذين يستطيعون مواصلة هذا العمل الجليل ...

ومن حسن الحظ اننى شاهدت منذ اعوام قليلة نموذجين طيبين محققا بجدارة هذه الفكرة ... شاهدت النموذج الاول فى مدينة استانبول متمثلا فى معهد تاريخ الطب الاسلامى ويشرف على هذا العمل العظيم الاستاذ الدكتور سهيل أنور ويقوم هذا المعهد فى الطابق الثالث فى بناء انيق فى مستشفى كبير فى حى « جـراح باشـا » .

ويصدر المعهد الى جانب مجلته النصف السنوية مطبوعات هامة فى تاريخ الطب الاســــــلامى ٠

اما النموذج الثانى فقد شاهدته فى جامعة حلب الجديدة ويعرف باسم « معهد التراث العلمى العربى » انشاه منـــذ عامين الاستاذ المهندس الدكتور احمد يوسف الحسن رئيس جامعة حلب ومن اجله عقد مؤتمران عامى ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ ٠

فهل آن الاوان ياترى ، لكى تنهض واحدة من جامعاتنا العريقة ، ولتكن جامعة الاسكندرية حفيدة الجامعة الخطيرة التى نهضت بالجليل من الاعمال بفضل مكتبتها النادرة وذلك منذ الفى سنة :

وهل ياترى يحقق العلمـاء المحدثون هذا الحلم ليكون لدى الاسـكندريين اول معهد للتراث الاسلامى فى مصر ؟ ٠ ٠ ٠

رجــاء رجــاء ، ونحن اليــوم نجتمــع فى ذكرى وفــاة العــالم المصرى الدكتور احمد فكرى وبحضور السيدة الجليلة زوجته الوفيه وبحضور جمهــرة من احبابه واصدقائه وتلامذته ومريديه ٠٠٠ رجاء ان تفكروا ايها الاعـزاء فى انشاء مثل هذا المعهد كما انشأت استانبول معهدها الجليل ، وكما احيت حلب الشهباء دار تراثها العــلمى العربى ٠

شكرا لتفضلكم بالاستماع الى كلمتى وشكرا لصبركم والســلام عليكم ورحمة الله

١٧ اكتوبر ١٩٧٦ م ٠

العمران نظرية لابن خلدون فى تفسير التاريخ

دكتـــور عبـد المنعم ماجـــد

العمران اسم بمعان متعدد ، منها البنيـــان ، والعمـارة من العمـران(١) ولكن عند ابن خلدون يقصد به اصطلاح علمى بمعنى : الاحوال فى الاجتماع البشرى أو الانسانى ٠

حقا ان ابن خلدون لم يتكلم عن الاجتماع البشرى ـ العمران ـ بعامة ، بقدر التكلم عن العمران العربى والبربرى ، على اساس انه على معرفة بهمـا أكثر من غيرهما ، ولانهما فى رايه العنصران الهامان المؤثران فى الزمن الذى عاشه ، الا إن كلامه عنها قد جره الى ان يتكلم على من عاصرهما من الامم منذ القدم ، مثل : القبط والسريان والمصريين وبنى اسرائيـل والروم والتـرك والفرنجة ، وان لجا الى الاختصار والايجاز عنهم ٠

هذه النظرية الواسعة والضيقة الى احوال العمران البشرى ، قد جعلته يتلمس ملاحظات ، كشفت له عن طبائع ومسالك غير متوقعة ، بحيث اعتبر اكتشافها وكانها بداية لعلم جديد ، ألهم اليه الهاما(٢) ، ولم يجـــده من قبـل فى علوم الاوائل كالفرس والفراعنة واليونان ، كما ان علماء العصر الحـديث بسبب اكتشافه لمعايير اجتماعية جعلوه مؤسس علم الاجتماع ٠

ومع ذلك ، فابن خـلدون يحتاط فى تناول عمـران المجتمعـات البشرية المختلفة ، فلا يجعلها تخضع لقواعد مطلقة ، اذ فى رايه ان لكل منها ظـروفا

---

(١) المصباح الصغير ، ص ٦٥٧ ، انظر :
Dozy : Supule, 2, p. 170 s99.

(٢) مقدمة ابن خلدون ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ٣٠ يقول : « مستحـدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ٠

ومقومات ترتكز عليها ، ترتبط بعناصر متعددة منها اللغة والموقع الجغرافى الخ ، وحتى كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا ، هو الآخر لا بد له من طبيعـــة تخصــــه(٣) •

ومن المؤكد ان ابن خلدون ـ مع ذلك ـ لم يقصد بعلمه الجديد،أو بنظريته الجديدة عن الاجتماع البشرى ، ان يخرج بقوانين اجتماعية ، وانما بالاولى قصد تقصى الأسباب والاصول وحركات العوامل لمعرفة التاريخ ، الذى هو احد رجاله، معرفة سليمة، فالتاريخ فى رأيه هو خبر عن الاجتماع الانسانى(٤) الذى هو العمران ، ولكن ليس على أساس ما كان يتناوله المؤرخون قبله ، من استبعاد الخبر و السرد لمجـرد النقل ، أو اضـــافة الاباطيـل ، وانمـا عـلى الخصوص على اساس العاية وسبر الغور ، ولذلك يطـــلق عليه الفن او فــن التاريخ(٥) ، ولا نعرف مؤرخا قد سبق ان استخدم هذا الاصطلاح •

فكان من مقاصده ، باستخدام هذا المنهج التاريخى الجديد ، ليس فقط معرفـة الماضــى لذاته ، وانما قصــد ايضا الاجيــال الناشــئة ـ على حـد قوله(٦) ، بالربط بين المــاضى والحـاضر ، فالتــاريخ ان تكلم عن المـــاضى فيقصد ان يعيش فى حاضر متطور ، ونحو مستقبل افضل • ولذلك لا يرى ان يرى ان يرد المؤرخون تفاصيل لا تهم الاجيال القائمة ويتساءل ما الفائدة من ذلك ؟ كما جعل الصدق اساس تناول التاريخ • وبالاختصار ، فان ابن خلدون اكتشف حركة التاريخ ، مما جعـــله ينبض بالحيـــاة •

هذه النظرة الجديدة للتاريخ ، اوجدت معايير وقواعد للاجتماع البشرى منها ، تطوره الدائم ، فيقـــول(٧) « ان احـــوال العالم والامم وعـوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ، ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف عـلى

---

(٣) نفسه ص ٢٨ ، س ١٣ ـ ١٤ •
(٤) نفسه ، ص ٢٧ س ٢٢ •
(٥) نفسه ، ص ٢٢ س٤ •
(٦) نفسه ، ص ٣٠س ٢٥ •
(٧) نفسه ، ص ٢٢ س ١٨ وما بعدها •

الايام والازمنة ، والانتقال من حال الى حال ، وكما يقول ذلك فى الاشخاص والاوقات والامصار ، فكذلك يقع فى الآفاق والاقطار والازمنة والدول ، سنة الله قد خلت فى عبـادة » ٠

كذلك من سمات الاجتماع البشرى ٠ الحضارة ، أو التمدن ، او المدنية(٨) أو التمدين ، ـ وكلها معاييـر مترادفة ـ ويصفها بانها احـوال زائدة عن الضرورى من العمران،وبمعنى آخر رفاهة العيش ، لذلك لا تظهــر فى البادية وإنما تظهر فى المدن والامصار والبلدان والقـرى ، اى فى الحضر ، حيث أن البدو هادمون للحضارة ، يمحاون الحياة ، ويجعلونها كالصحارى ، وان كانوا قابلين للتحضر(٩) ، اذ الانسـان مدنى بالطبع ، أى غايته التحضـر ، لذا فالحضر خـلاف البـدو ٠

ثم ان ابن خلدون يقابل الحضاره بما يسميه الملك(١٠) ، ويقصـد به السـيادة أو الـدولة ، لان الملك فى رابـه ضرورة لازدهـار العمران ، وهـذا استدراك حكيم منه ، فالحضارة لا يكفى ان تكون فى الحضر ، ولكن يجب ان تلازمها سيادة ، وبمعنى آخر نظام واستقرار ، حيث تنمو وتزدهر وتتطور ٠

ثم هو ايضا وان كان يرى ان الحضـاره ترتبط اساسـا بالحضر ، أى المدينة وما فى نوعها ، الا انه يجعلهـا ترتبط بالعلوم والفنون ، ويعتبـر ان ازدهار المدن يعنى ازدهار العلوم والفنون وان تدهورها تدهور لهما ، ولذلك فهو يأتى بعبارات لا توجــد الا عـنده منها مثـلا أن الزى من مظـاهر الحضـارة وفنونها(١١) ٠

ومع ذلك ، فان ابن خلدون يرى ان لكل حضارة عمرا معلوما ، وانه لابد ان ينزل بها الهرم ، بل يحدد لها ثلاثة اجيال ، والجيل عمر شخص واحد(١٢)

---

(٨) نفسه ، ص ٣٣٠

(٩) نفسـه ، ص ٩٧ ٠

(١٠) نفسه ، ص ٣٤ ، ١١١ وما بعدها ٠

(١١) نفسه ، ص ٣٢٦ س ٢٢ ٠

(١٢) نفسه ص ١٣٤ وما بعدها ٠

فكل حضارة ــ فى رأيه ـ تحمل فى طياتها جرثومة عدم الكمال ، وفى اللحظة التى تبلغ فيها الحضارة اوجها يبدأ الانحلال والسقوط .

كذلك يرى ابن خلدون ان اشد اعداء الحضارة الترف ، اذ ان خلال الخير(١٣) تذهب ويزداد الشر ، فالحضارة تتدرج من الخشونة الى الترف الناعم ، وان الخشونة وحدها هى التى تحفظ الحضارة ، فلا شك ان ابن خلدون فى هذا الرأى متأثر بما ورد فى الآية الكريمة « واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » . ومع ذلك ، فهو لا يرى الاخشوشان المطلق ، وانما مستوى منه يبعد الرفاهة المطلقة .

ولنا فى هذا ملاحظة ، من حيث الازدهار والتدهور . فلا نرى ان الحضارة اعمار كالاشخاص ، وانما بالاولى هى اسلوب لحل مشاكل الحياة ، لذلك فمجيئها وذهابها بسبب تطور الحياة . يضاف الى ذلك ان طبيعة الخلق ان يسهم البشر كل منهم بنصيب فى تقدم البشرية ، فلا تستحوذ عليها جنس دون الآخرين فالنهاية لحضارة هى البداية لحضارة اخرى . ثم اليس الحضارة بتقدمها وتدهورها دليل جيد على ان الخير والشر من مستلزمات الانسان . فالتقدم دليل على عمله واجتهاده . والتدهور دليل على تقصيره . مما يدعو الى العمل من جديد . كذلك معنى وجود التدهور بعد التقدم ان العالم الى آخر الكون سيمر بالازدهار ، وان نهايته الانحلال ، وان كل ما مر من ازدهار وكأنه لم يكن ، وان كنا نعرف بالايمان ان ما فعلناه فى الدنيا هو زاد للاخرة، مما سيبقى للأبد كذكرى للجهاد الانسانى .

وبسبب معرفة ابن خلدون باحوال العمران الاسلامى اكثر من غيره من المجتمعات البشرية الاخرى ، فقد خصه بدراسة وبمعايير لا تتوافر الا عنده ، سيما وانه قد رأى ان الاسلام قد قلب احوال الدنيا(١٤) ، فالاسلام هو الذى حرر الانسان من الناحية الروحية ، وجعل لفرديته واخلاقه اهمية ، كما انه

---

(١٣) نفسه ، ص ١٣٣ .
(١٤) نفسه ، ص ٢٢ س ٢٥ .

بفضل الاسلام ظهرت حضارة مؤثرة تحمل اسمه شملت منطقة واسعة امتدت من المحيط الاطلسى الى سور الصين تقريبا ٠ فقد لاحظ ابن خلدون ان العمران الاسلامى بسبب الموقع الجغرافى يأخذ بمبدأ الاقتباس من امم متعددة مثل الفرس والهنود والمصريين واليونان ، مما جعل عناصر حضارية كثيرة تنصهر فى بوتقة واحدة بتجانس ، وان هذا الاقتباس حينما يكثر يبعد كثيرا عن الاصالة العربية(١٥) ٠

كذلك تناول ابن خلدون فى العمران الاسلامى مواضيع متعددة ، لم يسبق ان عولجت بهذا الترابط والعلمية من قبل ، فبصمات منهجه تظهر فى معظم عناصرها ، بحيث لم يترك شاردة ولا واردة عنها الا وتناول تطورها فى الدول الاسلامية المتعددة منها : الخلافة والامامة والوزارة والدواوين والقضاء والعدالة والجيش والاسطول والنظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، والمهن والحرف والصنائع ووجوه الكسب،والعلوم والتعليم والفنون والآداب واصنافها٠

ولعل القاسم المشترك فى كل ما ذكره عن العمران لاسلامى ، هو ارتباطه بالدولة ، على اساس ان العامل السياسى هو المحور الاول الذى تدور حوله الحياة(١٦) ٠ حقا انه قبل ابن خلدون وضعت قواعد للدولة المثالية من قبل فلاسفة مسلمين مثل الفارابى ، الا ان ابن خلدون وضعها على اساس من الواقعية والموضوعية والصدق ، تاركا المنظور المثالى فهو يرى ان دولة الاسلام لابد ان تعتمد اساسا على العصبية ، حتى لا تكون هناك قلقلة ، فهى ضرورية وان كان لا يهم ان تكون فى الحكام من النبلاء وانما حتى من المماليك ، اذ الشرف والحسب انما هو بالخلال(١٧)٠

كذلك يرى ان اشد اعداء الدولة ـ سيما الاسلامية التى يعرفها ـ الظلم ، فبين فى احد فصول مقدمته ان الظلم مؤذن بخراب العمران(١٨) ، فلابد تكون هذه بعيدة عنه ، ولها ادوات تمنعه ، فمن شروط تولى منصب الخلافة العدالة(١٩) ٠ فرأى ابن خلدون فى هذا الصدد يطابق معنى العدل فى الاسلام

---

(١٥) نفسه ، ص ١٦٥ س ١٨ ٠
(١٦) نفسه ، ص ٢٤٠ وما بعدها ٠
(١٧) نفسه ، ص ١٠٦ وايضا : ص ١٣٤ ٠
(١٨) نفسه ، ص ٢٢٧ ٠
(١٩) نفسه ، ص ١٥٢ ٠

وخصوصا ان القهر والبطش يجعل الناس اذلاء ، وبالتالى يفقدون كرامتهم .

وفى الواقع ، فان هذه النظرية . فى العمران عند ابن خلدون لم تات من فراغ ، أو انها عفوية أو وليد ، الصـدفة ، انما هى نتاج لتجـربة مع الدولة الاسلامية وحضـارتها مدة خمسين عـاما او اكثر ، كونتهـا عوامل دينيـة واجتماعية واقتصادية٦ ، وشملت رقعة واسعة ، وربطت بلادا عديدة هى دار الاسلام ، حيث تمثل ابن خلدون هذه التجربة بمنهجية وبعلمية لم تعـرف لواحد من المؤرخين قبـلـه .

كذلك ساعد على ظهور هذه النظرية ، ان ابن خلدون نفسه قـد عاش فى مصر صاحبة اطول تاريخ ، فضلا عن انها فى زمنه كانت مركز الثقل الاسلامى والعربى ، وانها وحدها اصبحت حاملة لشعل الثقافة العربية ، بعد افـول مراكزها فى الشرق ، سيما فى بغداد نتيجة لغزو المغول ، وفى الاندلس نتيجة لحركة الريكونيكستا ، حيث اصبحت مقصد العلماء من كل مكان ، يجـدون فى رحابها الانفتاح الثقافى ، وان الثقافة فيها قد رسخت بعد المشوار الطويل الذى قطعته ، بدليل قول ابن خلدون عن مصر : « ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى ام العالم ، وايوان الاسلام ، وينبوع العلم والصنائع(٢٠) » .

واخيرا ، فعبقرية ابن خلدون ، جعلته يلجـأ الى وسـائل فى البحث لم يستخدمها المؤرخون قبله ولا بعده الا فى العصر الحديث ، مثل : الاهتمـام بالوثيقة ، فيدعـو الى تصفح اوراق الدواوين(٢١) ، التى هى الوثائق الرسمية ، كما استخدم الآثار فى مصادره ، واعتبرها على نسبة قوة الدولة(٢٢) ، وغـير ذلك مما اوجده فى الصنعة التاريخيـة .

والخلاصة أن العمران نظرية لمفكر اسلامى كبير ، طبقت شهرته الآفاق ، اوجدت قواعد ومعايير جديدة فى فهم المجتمعات البشرية ، فمن يعقلها من مؤرخى الاسلام الحديثين ، تبعده عن نظريات حديثة فى تفسير التاريخ ،

---

(٢٠) نفسه ، ص ٤٥٣ .
(٢١) نفسه ، ص ١٦ س ١٠ .
(٢٢) نفسه ، ص ١٣٩ .

يحاول البعض اقتباسها ، لا عـلاقة لنا بتاريخنا ولا بمجتمعنا ، سـيما تلك النظرية المادية ، التى تفسر التاريخ على أساس الكفاح بين الطبقات ، بينما الذى كان يحرك الاسلام ـ ولا يزال ـ روح الدين والمجتمع الاسلامى نفسه ، ثم ان نظرية العمران عند ابن خلدون ليست نظرية متحجرة منغلقة ، محدودة الحدود ، انما هى نظرية قابلة للاخذ والاعطاء ، فيها مرونة وتفسيرات متعددة، مما يجعلها دائما سندا لتفسير التاريخ الاسلامى فى وقتنا او بعد وقتنا .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى سجلماسة عاصمة بنى مدرار

دكتور الحبيب الجنحانى
كلية الآداب ـ الجامعة التونسية

ا ـ الفلاحـــة :

يكاد ينحصر النشاط الفلاحى فى سجلماسة وضواحيها فى ميدانين :
أولا : الزراعة فى بساتين الواحة :

ثانيا : تربيـة الماشـية ٠

يذكر الجغرافيون العرب البساتين الجميلة بواحة سجلماسة المقسمة الى احواض ترويها مياه الوادى بفرعيه الشرقى والغربى ، وهى التى تمد سكان المدينة بانواع الخضر والثمار ، وقد اشتهر منها العنب ، وزبيبها المعرش ، يقول البكرى : « وهى كثيرة النخل والاعناب ٠ وجميع الفواكه ، وزبيب عنبها المعرش الذى لا تناله الشمس لا يزيب الا فى الظل ، ويعرفونه بالظلى وما أصابته الشمس منه زبب فى الشمس » (١) ٠ ويزعون القطن ، والكمون، والكرويا، والحناء ، التى يصدرونها الى سائر بلاد المغرب (٢) ، وأشهر انتاج الواحة هو انواع تمورها طبعا ، وقد بلغت فى سلجماسة ستة عشر صنفا ، قال ياقوت متحدثا عن رستاق النخيل بضواحى سجلماسة : « وفيه ستة عشر صنفا من التمر ما بين عجوة ودقل واكثر اقوات سجلماسة من التمر وغلتهم قليلة (٣) ٠ وتمثل انواع التمور هذه أبرز صادراتها الفلاحية الى جانب الحناء والماشية ٠

ان الارض المحيط بالواحة هى اراضى صحراوية لاتسمح بزراعة الحبوب مثل سهول وادى شلف بالقرب من تاهرت ، ولذا فاننا نجد السجلماسيين يزرعون الحبوب السقوية فى البساتين المقامة على الوادى ، ويشبه ابن

حوقل زراعتهم السقوية بزراعة المصريين على ضفتى النيل قائلا : « ٠٠ فيزرع بمائة حسب زروع مصر فى الفلاحة ، وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه ، وتواترت السنون بالمياه ، فكلما اغدقت تلك الارض سنة فى عقب اخرى حصدوه الى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير بحب صلب المكسر ، ولذيذ الطعم ، وخلقه ما بين القمح والشعير ، ولهـا نخيل وبساتين حسـنة واجنة ، ولهـم رطب اخضر من السـلق فى غـاية الحـلاوة » (٤) • ويسمى البـكرى هذا القمـح بالصينى ، ويسـع مد النبى (صـلعم) من خمسة وسبعين الف حبة •

أما معلوماتنا عن نوع الملكية العقارية فى امارة سـجلماسة اندر من الكبريت الاحمر ، وهى لا تختلف فيها عن نظام الملكية العقارية الذى نعرفه فى مناطق اسلامية فى نفس العصر ، ولا سيما ما نعرفه عن ملكية الاراضى ببلاد الشام والعراق • ولكن يبدو أن هناك تفرقة بين ملكية بساتين الواحة، وهى ملكية خاصة واضحة ، وبين ملكية المناطق خارج الواحة ، وهى تفرقه تفرقها طبيعية الارض فى منطقة صحراوية من جهة، ونظام الرعاى فى بيئة قبلية تعتمد تربية الماشية دعامة اساسية فى حياتها الاقتصادية ، هنالك اشارة سريعة اوردها ابن حـوقل سـمحت لنا بطرح هـذه النقطة ، فهو يخبـرنا : « انهم يبيحون البـلاد للمراعى والزرع والميـاه لورود الابل والماشـية (٥) فالميدان الثانى للنشاط الفلاحى فى امارة سجلماسة هو اذن تربية الماشية وقد ساهم الانتجاع الى واحتها بالمواشى فى اختيار مكان تاسيسها ، ان صحت الرواية التى تذكر ان ابا القاسم سمكو كان صـاحب ماشية ينتجع بها الى براح سجلماسة قبل تاسيس المدينة •

ب ـ الحـــرف :

ان المركز التجارى الذى اصبحت تحتـله سجلماسة ابتـداء من نهاية القرن الثانى الهجرى ، وما رافقه من تطور ديمغرافى ، وتقدم عمرانى قد ساعد كل ذلك على نشوء انواع من الحـرف وازدهارهـا ، وابرز هذه الصـناعات اليدوية صناعة النسيج المعتمدة على قطن الواحة ، وعلى الصوف المتوفـر بمنطقة تافللت، ولا سيما صوف حصن برارة فى الطريق بين فاس وسجلماسة، ويحدثنا عنه البكرى قائلا : « وهو بلد يحسن فيه الغنم • • • وصوفها من

اجود الاصــواف ، ويعمل منه بسجلماسة ثيـاب يبلغ الثوب منها ازيـد من عشرين مثقالا » • (٦) وقد اشتهر اللباس السجلماسى فى المشرق ، والمغرب ، والاندلس وهو يشبه الدرجينى فى ثوبه ولونه ، ولكنه يفوقه جودة (٧) •

وذاع صيت السجلماسيات بمهارتهن فى صناعة النسيج : « ولنسائهم يد صنـــاع فى غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الازر تفوق القصب الذى بمصر يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثين دينارا ،واكثر كارفع ما يكون من القصب الذى بمصر ، ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك . ويصبغونها بانواع الاصبـاغ (٨) •

والى جانب انواع الحرف المتعلقة بالبناء اشتهرت ايضا صناعة الاوانى الخشبية بسجلماسة ، وهى من شجر يعرف باسم الموضع الذى بنيت فيـه اى التامجائت ، ويصفه البكرى قائلا : وهو شجر يعظم ورقه هدب كورق الطرفاء ، ومنه آنية سجلماسة ودرعه ، وما والاهما » (٩) •

ولا شك ان هنالك بعض الصناعات المتصلة بوفرة الذهب المجلوب الى سجلماسة من بلاد السودان ، وهى باب تبرها ، وبما يستخرج من معـادن درعـــه التى وظف عليهـــا ابـو المنتصر اليســـع بن ابى القـــاسم ، وقد رأينا وجود معدن للفضة بجبل مجاور لسجلماسة •

ج ـ التجـــــارة :

سجلماسة هى اولا وقبل كل شىء مدينة تجارية ، ويعود الفضل فى ازدهارها ، وتقدمها المعمارى ، ومظاهر الترف فى حياتها الاجتماعية ، وهجرة الناس اليها من البصرة على شط العرب الى الاندلس ، وبلاد السودان الى نشاطها التجارى ، ومركزها الحساس فى مفترق مسالك تجارية شهيرة فى تاريخ التجارة المغربية فى العصر الاسلامى الوسيط ، ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان سجلماسة كانت مركزا تجاريا عالميا عصرئذ ، فالتجـارة ـ اذن ـ هــى مصدر الثروة الكبيرة التى تجمعت بالمدينة ، ولا سيما الثـروة الذهبية التى كانت بايدى سكانها ، وخاصة فئات التجار بينهم ، يقول عنهم ياقوت : « واهل هذه المدينة من اغنى الناس واكثرهم مالا ، لانها على طريق من يريد غانة التى هى معدن الذهب ، ولاهلها جراة على دخولها« (١٠)•

ويستغرب البكرى عن استغرابه من ان الذهب عند سكان المدينة جزاف عدد بلا وزن ، والكراث يتبايعونه وزنا لا عددا(١١)· ويروى ابن حوقل قصة طريفة عاشها بمدينة اودغست تصور مدى الثراء الذى بلغته فئة التجار بسجلماسة ، فبعد ان تحدث عمن سكنها من تجار البصرة والكوفة وبغداد ، وعن الحركة التجارية الدؤبة بها قال عن اهل سجلماسة : « ·· وسائر ارباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال ، وتتقارب بالعصبية اوصافهم ، وتتشاكل احوالهم ولقد رأيت باودغست صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار اودغست ، وهو من اهل سجلماسة مائتين واربعين الف دينار وما رأيت ، ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظير ، ولقد حكيتها بالعراق وفارس ، وخراسان فاستطرفت » (١٢) ·

وقد كانت التجارة مصدر القوة المالية وبالتالى السياسية والعسكرية للامامة المدرارية الصفرية ، فنجد مبلغ المكس التى وظفها اميرها المعتز على القوافل الخارجة والواردة او على ما يباع بها ويشترى يصل مع العشر والخراج اربعمائة الف دينار ، وهذا المبلغ جباية المدينة وعملها فحسب ، ويقوم ابن حوقل بمقارنة فيذكرنا بمبلغ جباية المغرب كله من اوله الى آخره فيقول : « انها بلغت من ثمانمائة الف دينار الى ما زاد على ذلك بيسير ، وربما نقص الكثير ، ويحدد جغرافيا منطقة سجلماسة وعملها التى جمع منها هذا المبلغ فتكون خمسة ايام فى ثلاثة (١٣) ·

اما علاقاتها التجارية فقد كانت متنوعة تنوع المسالك التى تربط بينها وبين المراكز التجارية نحو الشمال الشرقى : من سجلماسة الى وجده ، والى تلمسان ، وتاهرت ، ومنها الى بلاد الزاب وقسطيلية ، ومن بلاد الجريد الى القيروان عن طريق قفصة ، ثم الى مدن الساحل التونسى من جهة ، او الى طرابلس عن طريق نفزاوة ، ثم برقة ، فمصر ، فالمشرق الاسلامى ، وغربا نحو اغمات وريكة ، ثم الى مدن ساحلية تقع على البحر المحيط مثل نول لمطة ، وشمالا نحو فاس ، ثم الى مدن المرافىء على البحر الابيض المتوسط ·

وقد رأينا أن سجلماسة لم تكن تمثل خاتمة المطاف بالنسبة للقوافل فهى تتجه اليها باعتبارها مركزا تجاريا نشطا مع بلاد السودان،فهى ــ اذن ــ باب لمعدن التبر ، او ميناء صحراوى تتجمع فيه بضاعتان ثمينتان من بضائع

العصر : الذهب والرقيـق • ان جميع القـوافل التجارية القـادمة من المراكز التجـارية المذكورة ، والمتجهـة نحو بلاد السودان أو العـائدة منها تمـر بسجلماسة ، فهي ـ كما ذكر سلفا ـ مركز حساس من مراكز التجارة العالمية عهـدئذ •

يصف لنا البكرى المسلك بين وجدة سجلماسة فيقـول : « وعلى مدينـة وجدة طريق المارة والصادرة من بلاد المشرق الى سجلماسة وغيرهـا من بلاد المغرب ، والطريق منها الى سجلماسة تخرج من وجدة الى صاع وهى قـرية ذات نهر وثمار ومزارع الى تامللت ، ومنها الى جبل بنى برنسيسيان ، ومنه الى قبير ، ومنه الى الاحساء (١٤) • ومنها الى لامسلى ، ومنه الى دار الامير، ومن دار الامير الى سجلماسة (١٥) •

ومن تلمسان فى اتجاه الجنوب الغربى نحو سجلماسة تمر القوافل بقلعة ابن الجـاهل ، وهى قلعة منيعة كثيرة الثمار والانهار ، ويتصل بها جبـل نارنى ، وهو وما يليه جبال معمورة الى مدينة تبزيل ، وهى اول الصحراء ، ومنها يسافر الى مدينة سجلماسة ، والى وارجلان (١٦) •

ومن فاس فى اتجاه الجنوب نحو باب الصحراء : سجلماسة فتمر القوافل بمدينة صفروى مرحلة ، ثم الى الاصنـام مرحلة ، ومنها الى موضع يسمى المزى مرحلة ، ثم تاسغمرت مرحلة ، ثم الى مكان يقال امغاك مرحلة كبيـرة نحو الستين ميلا « ومنها تدخل فى عمل سجلماسة بين انهـار وثمار ثلاث مراحل الى مدينة سجلماسة»(١٧) ، ويصف البكـرى مسلكا آخـر بين فـاس وسجلماسة نقلا عن محمد بن يوسف الوراق (٢٣٢ هـ ـ ٣٦٢ هـ) •

ويمر الطريق من سجلماسة الى اغمات بموضع يسمى تيحمامين ، وفيـه معدن للنحاس ، ثم منه الى وادى درعة ، ثم الى مكان اسمه أذامست ، ومنه الى ورزازات ، فبلد هسكورة ، ثم منطقة قبيلة هرزجة ، ثم أغمات (١٨) •

اما فى اتجاه الجنوب فهنالك مسلك صحراوى نحو بلاد السودان طويل وصعب يقول عنه ابن حوقل : « وبين المغرب والبلدان التى قدمت ذكرها وبلد السودان مفاوز وبرارى منقطعة ، قليلة المياه ، متعذرة المراعى ، لا تسلك الا فى الشتاء وسالكها فى حينه متصل السفر دائم الورود والصدر (١٩) ، وهو طريق تجارة الذهب مع اودغست وغانة بالخصـوص •

وتود الاشارة الى البضائع التى كانت تحملها القوافل التجارية المتجهة الى سجلماسة ، او المنطلقة منها،وقد راينا ان الضرائب الموظفة على صادرات، وواردات المدينة ، وعلى ما يباع ويشترى من البضائع فى سوقها تمثل المورد المالى الرئيسى لخزينة الدولة المدرارية • اننا لا نملك قائمة كاملة بانواع البضائع ، ولكن ما نقلته لنا كتب الجغرافيين العرب تعطى فكرة واضحة عن هـذه البضـــائع • •

ويلوح لنا ان اهم صادرات سجلماسة من المنتوجات الزراعية،ومنتوجات الحرف اليدوية المختلفة كان نحو بلاد السودان ، وخاصة نحو مدينة اودغست، وغانة ، وتكرور ، ومن هذه المنتوجات :

القمح ، انواع التمور ، الثمار المجففة ، الزبيب ، المنسوجات ، النحـاس المصنوع ، الخرز ، الملح •

ويجلب من بلاد السودان الذهب والرقيق ، والعنبر ، واشجار الصمغ من جبل يشرف على مدينة اودغست ، ويصمغ بها الديباج ، ويصدر هذا الشجر عن طريق سجلماسة الى الاندلس (٢٠) •

يتحدث الحميرى عن تكرور فيقول . « واليها يسافر اهل المغرب الاقصى بالصوف والنحاس والخرز ، ويخرجون منها بالتبر والخدم (٢١) • ويحدثنا البكرى عن ثراء سكان اودغست قائلا « وكانت لهم اموال عظيمة ورقيق كثير كان للرجل منهم الف خادم واكثر (٢٢) ، ومن المعروف ان العملة المتداولة فى اودغست هى التبر الخالص ولا يستعملون الفضـة ، فالقـوافل التجارية القادمة من سجلماسة بانواع البضائع المذكورة تعود ببضاعتين أساسيتين الذهب والرقيـــق •

ويصدر الى اودغست القمح ، والثمار ، والزبيب ، كما يتجهـز اليهـا بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمراء والزرقة مجنحة ، ويجلب منهـا العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم والذهب الابريز الخالص خيوطا مفتولة • وذهب اودغست اجود من ذهب الارض وأصحه » (٢٣) وينقل لنـا صاحب الاستبصار نصا عن الشريشى يصور لنا بدقـة اهمية نوع التبـادل التجارى بين سجلماسة وغانة فيقول : « وقـال الفقيـه الاديب ابو العبـاس

احمد بن عبد المؤمن القيسى الشريشى فى شرح المقامات الحريرية ، ما نصة : غانة بلد من بلاد السودان ، واليها ينتهى التجاريعنى من المغرب ، والمدخل اليها من سجلماسة ، ومن سجلماسة اليها ذهابا مسيرة ثلاثة أشهر ، ومن غانة الى سجلماسة ايابا مسيرة شهر ونصف ، ودون ذلك • وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز اليها من سجلماسة بالامتعة والاثقال فتباع فى غانة بالتبر فمن سافر اليها بثلاثين جملا يرجع منها بثلاثة اجمال ، او بجملين : واحد لركوبه. وثان للماء بسبب المفازة التى فى طريقها ، حدثنى غير واحد من تجارها انهم يقطعون المفازة فى ستة عشر يوما لا يرون فيها ماء الا على ظهور الابل ، فاثمان احمال الثلاثين جملا يجتمع فيها من التبر مايجعل فى مزود واحد فيطوون المراحل المخففة »(٢٤)•

ولا نغفل فى حديثنا عن نوع البضائع المتبادلة بين المغرب الاقصى مرورا بسجلماسة ، وبين بلاد السودان عن الاشارة الى بضاعة ثمينة ونادرة فى المناطق الافريقية جنوب الصحراء ، وهى الملح ، وكان مصدرا للربح الوافر ، والحصول على كميات من الذهب ، (وربما بلغ الحمل الملح فى دواخل بلد السودان واقاصيه ما بين مائتين الى ثلاثمائة دينار)(٢٥) •

اما العلاقات التجارية مع بلاد المشرق والاندلس فهى تشمل البضائع المتبادلة بين المدن التجارية فى ذلك العصر ، ويحتل الذهب والرقيق المكانة الاولى فى صادرات سجلماسة نحو الشمال والشرق ، وقد اشتهر الثياب السجلماسى بين المنتوجات الصناعية للمدينة ، ويبدو ان تطور صناعة النسيج بها جعلها تحتاج الى توريد القطن الاشبيلى الشهير بالرغم من اننا نجد القطن ضمن المنتوجات الزراعية للواحة ، يقول الحميرى متحدثا عن اشبيلية « والقطن يجود بارضها ، ويعم بلاد الاندلس ، ويتجهز به التجار الى افريقية ، وسجلماسة ، وما والاها » (٢٦) •

ونجد ميناء تابحريت على شواطىء البحر الابيض المتوسط من الموانىء الشهيرة التي استعملت فى تصدير البضاعة الواردة من سجلماسة يقول عنها الحميرى : « وهى محط للسفن ، ومقصد لقوافل سجلماسة وغيرها » (٢٧) •

ويتساءل المرء فى هذا الصدد عن نقطة ذات شان فى حركة التبادل التجارى ، ونعنى هنا نوع العملة المتداولة ؟

فقد مرت بنا اشارة الى ان الشاكر لله تلقب بامير المؤمنين ، وضرب الدنانير والدراهم الشاكرية ، وتحدث ابن حوقل عن دار الضرب فى عهد المعتز .

وقد كانت عملة سجلماسة قوية وشهيرة تجاوز التعامل بها حدود الواحة واعمالها ، حيث اننا نجد الخليفة الاموى عبد الرحمن الناصر يدفع للتجار الذين تعهدوا بجلب الرخام من قرطاجنة وتونس الى مدينة الزهراء بقرطبة ، بعد ان شرع فى بنائها سنة ٣٢٥ هـ ، مقابل عملهم الدينـــار السجلماسى ، قال ابن عذارى : « وكان الناصر يصـاهم على كل رخـامة بثلاثة دنانيـر ، وعلى كل ســارية بثمانية دنانير سجلماسية » (٢٨) ، وتحافظ العملة السجلماسية عـلى شهرتها عدة قرون ، فبعد ان رأينا الخلافة الاموية فى قمة مجدها تستعمل الدينار السجلماسى ، نجد الاندلس فى عهد السعيد بن الرشيد الموحدى تتعامل بالدنانير السجلماسية المعروفة بالدنانير العشرية (٢٩) .

ان التعرف بدقة على هذا الدور الخطيـر الذى لعبته التجـارة فى هـذه المدينة الاسلامية ، وما ادى اليه من تجمـع لراس المـال ، وترف اجتماعى تمثله فئات اجتماعية جديدة يعتمد نشاطها الاقتصادى اساسا على التجـارة، متحرره من السيطرة الاقتصادية لهياكل الاقطـاع الاسلامى يسـمح لنا فى المستوى التنظيرى بطرح التساؤل التـالى :

ألا تمثل فئات التجار هذه الملامح الجنينية للمجتمع الراسمالى التجارى المبـــــكر ؟

الحيــــــاة الاجتماعيــة :

ولا مناص من التعرض الى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى نهاية هذه الدراسة ، بالرغم من ندرة المعلومات الواردة خلال وصف بعض الجغرافيين العرب والتى تكشف عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية . واول ما يعترض سبيلنا فى هذا الصدد العناصر السكانية للمدينة ، فقد رأينا الفئات الطاغية بينهم تتالف من البربر ، وقد انحـدروا اليها من البـــادية المجاورة للمدينة الجديدة ، ونقلوا اليها كثيرا من عاداتهم وطبـاعهم ، يحدثنا البـكرى عـن القبائل التى قسم عليها ابو منصور اليسع بن مدرار سنة ٢٠٠هـ احيـاء المدينة فيقول : « وهم يلتزمون النقاب فاذا حسر احدهم عن وجهه لم يميزه احد من

اهله » (٢٠) ، ولكن التقدم العمرانى السريع الذى عرفته المدينة خلال القرن الثالث الهجرى ، واستقرار فئات اجتماعية جديدة نزحت اليها من مدن شرقية شهيرة مثل البصرة ، والكوفة ، وبغداد اثر كل ذلك مع تعاقب الاجيال فى أخلاق بسكانها الاولين ، وجعلهم يتطبعون بطباع اهل المدر ، بل بطباع سكان المدن الكبرى المزدهرة عصرئذ • ويتحدث ابن حوقل عن مظهرهم واخلاقهم بعد أن زار المدينة سنة ٣٤٠ هـ فيقول : « ••• واهلها سراة مياسير يباينون أهل المغرب فى المنظر والمخبر مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة ورجاحة » (٢١) ، ثم يواصل وصفه للازدهار التجارى وخلق الاهالى قائلا : « ••• مع تجارة غير منقطعة منها الى بلد السودان ، وسائر البلدان وارباح متوافرة ، ورفاق متقاطرة ، وسيادة فى الافعال ، وحسن كمال فى الاخلاق والاعمال يخرجون برسومهم عن دقة أهل المغرب فى معاملتهم وعاداتهم الى عمل بالظاهر كثير ، وتقدم فى افعال الخير شهير ، وحنو بعض على بعض ، من جهة المروءة والفتوة ، وان كانت بينهم الحنات والترات القديمة تواضعوها عند الحاجة ، واطرحوها رئاسة وسماحة ، وكرم سجية تختصهم ، وادب نفوس وقف عليهم بكثرة اسفارهم وطول تغربهم عن ديارهم وتغربهم من اوطانهم ، ودخلتها سنة اربعين فلم ار بالمغرب اكثر مشائخ فى حسن سمت ، وممازحة للعلم واهله الى نفوس عالية ، وهمم سامقة ، سامية» (٢٢) •

ومن مظاهر الترف الاجتماعى انتشار الحمامات بها ، وقد وصفها البكرى بانها رديئة البناء ، غير محكمة العمل ، ولم يحدد لنا عددها ، ووفرة الرقيق ، وهو امر طبيعى ، لانه كان يمثل البضاعة الأساسية الى جانب الذهب فى العلاقات التجارية للمدينة مع بلاد السودان ، ولا سيما مع أودغست (أو اودغشت) » (٢٣) ، وغانة •

واشتهر جوارى أودغست بمزايا كثيرة منها المهارة فى الطبخ • يقول الحميرى : « ويجلب منها سود انياب طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة دينار كبار وازيد لحسن عمل الاطعمة الطيبة ، ولا سيما اصناف الحلاوات مثل الجوزينيات واللوزينجات ، والقاهرات ، والكنافات والقطائف والمشهدات ، واصناف الحلاوات ، فلا يوجد أحذق بصنعتها منهن» (٢٤) •

وهكذا اصبح الفرق شاسعا بين حياة المدينة ، وقد اثرت الثروة التجارية

في مبانيها ، وغنها المعمارى ، وفى الحيـــاة الاجتماعية لسكانها التى عرفت أنواعا من الترف ، وحياة القبائل الرحل فى البوادى الصحراوية ، تلك الحيـــاة التى يصفها ابن حوقل بدقة ، بعد ذكـــره للمدن والمناطق المسكونة فى ارض المغرب ، فيقول : « ٠٠ وما عداه وأوغـــل فى برارى سجلماسة ، وأودغست ، وتادمكة الى الجنوب، ونواحى قزان ، ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين الذين لا يعرفون الطعام ، ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ، ولا شيئا من الحبوب، والغالب عليم الشقاء والانتشاح بالكساء ، وقوام حياتهم باللبن واللحم»(٢٥)٠

ان نص ابن حوقل المذكور ــ وهو شاهد عيان ــ يكشف بوضوح مظـاهر الترفـه والتقدم الاجتماعى الذى بلغته سجلماسة فى القـــرنين الثالث والرابع ولا غرو فى ذلك اذا عرفنا اهمية الفئات التجارية فى المدينة ، وهى مدينةتجارية اولا بالذات ، كما سنرى ٠ ولم يقتصر الجغرافى الشيعى على وصف مظـاهر الثراء ، بل نقل لنا معلومات عن سمو الاخـلاق وحسن سمت شيوخها ، وعن جمـــال سكانها ٠

ويبدو أن كثرة الفتن التى عاشتها المدينة ابتداء من نهاية القرن الـــرابع الهجرى ، وتدهورها الاقتصادى ، وغارات القبائل الرحل عليها بعد ان فقـدت قوتها العسكرية التى كانت تحميها أثرت كل هذه العوامل فى مظـاهر الحياة الاجتماعية التى يقدم لنا عنها الشريف الادريسى فى النصف الاول من القرن السادس الهجرى صورة قاتمة بالمقارنة الى اللوحة الوصفية التى نقلها لنـــا ابن حوقل قبله بقرنين(٢٦) ٠

لحنا قبل قليل الى استقرار فئات اجتماعية جديدة بالمدينة تتمثـــل فى التجـــار المسلمين الذين أتوا اليها من مدن اسلامية شهيرة فى المشرق مثل البصرة والكوفة وبغداد ، وقد آمها ايضا تجار من مدن المغرب والاندلس ولكننا نجد الى جانب هذه الاقليات الاسلامية اهل الذمة ، ولا سيما اليهـود ، وقـد أصبح لهم دور فعال فى الحياة التجارية ، ولا سيما فى تجارة الذهب خـــلال القرن الثالث الهجرى ادى الى سيطرتهم على الحياة الاقتصادية بالمدينة من جهة والى نقمة السكان عليهم ، وقد استغلوا دخول الجيش الفاطمى للمدينة بقيادة عبد الله الشيعى سنة ٢٩٥ هـ للانتقام منهم ، ومر تجارهم بمحنة شديدة ، فقد

أمر أبو عبد الله بقتل اغنيائهم، واخذ اموالهم ، وفرض على جميع سكان المدينة من اليهود الذين يرغبون فى الاقامة بها :

امتهان احدى الحرفتين: الكنافة أو البناء ويعلل صاحب الاستبصار ذلك قائلا: «والسبب فى تسخير اهل سجلماسة لليهود فى هاتين الحرفتين الرذيلتين كونهم محبين فى سكنى بلدهم للاكتساب لما علموا ان التبر بها أمكن منه بغيرها من بلاد المغرب لكونها بابا لمعدنه ، فهم يعاملون التجار به ليخدعوهم بالسرقة وانواع الخدائع • ولما علم منهم ابو عبد الله الداعى ما هم عليه من ذلك عند استخراج عبيد الله من سجن اليسع بن مدرار بها ، وكان الذى نص عليه ، ونم به لليسع يهودى • وحكى عبيد الله لابى عبد الله ما جرى له معه قتل منهم الاغنياء ، واخذ اموالهم بالعذاب ، وامر من شاء أن يقيم منهم بالبلد فى أن يتصرف فى هاتين الخلتين ، فمن دخل فى الكنائين من اصناف الناس سموهم المجرمين لاجترامهم على حرفة موقوفة على اليهود ، وقصروا البناء عليهم خاصة لانهم خائفون ابدا من أن يخون احدهم المسلم فيهلكه ، فهم ينصحونهم فى البناء ، ويلازمون الخدمة دون الخروج لفرائض الصلوات ، ولا لغير ذلك من ملازم العبادات ، فتاتى خدمتهم موفرة سريعة ، وهم الآن قد مازجوا المسلمين وداخلوهم ، وهو العز الذى كانوا يرتقبونه فى سالف الازمان ، وبعد الازلة الدانية القاصمة ان شاء الله لظهورهم المستأصلة لشأفتهم عما قريب»(٢٧)•

ان المحنة التى مر بها يهود سجلماسة بعد استيلاء الفاطميين عليها لم تدم طويلا حسب نص صاحب الاستبصار ، وقد عادوا الى دورهم البارز فى الحياة الاقتصادية ، وقد استمر هذا الدور ، ويبدو ان الزلة الدانية التى انتظرها الجغرافى المراكشى لم تحدث ، لاننا نجد خازن المال بسجلماسة ايام الخليفة الموحدى هو ابن شلوخة اليهودى ، كما ان صمويل الفاسى حبر مراكش الذى اعتنق المسيحية ايام المرابطين ، وسمى Semmel Marochitanus قد شغل منصبا ذا شأن فى بيعة سجلماسة (٢٨) •

اما اهل الذمة من النصارى فى سجلماسة فلم تنقل لنا المصادر عنهم شيئا، ولا سيما ايام الدولة المدرارية • والاشارة الوحيدة عن وجودهم بالمدينة ما ذكرناه من الفتنة التى اثارها انصار الخليفة الموحدى السعيد سنة ٦٤٢هـ

بين النصارى والمسلمين قرب باب القصبة ليتمكنوا من الدخول اليها، والقضاء على ابن زكريا الهزرجى الثائر على السلطة الموحدية ٠

ان ما نأمله من عثور الدارسين يوما ما على كتب طبقات علماء سجلماسة. والمصنفات المذهبية والفقهيـــة التى الفها علمـــاء دعوة الخـــوارج الصفريين بسجلماسة سيسمح بالمزيد من التعرف الدقيق والشامل للحياة الاجتماعية ، فى هذه المدينة الاسلامية التى احتلت مكانة بارزة فى عصـــور ازدهار المغـــرب الاســـــلامى ٠

التعــــــاليق

(١) المغرب ، الجزائر ١٨٥٧ ، ص ١٤٨ ٠

(٢) انظر : نزهة المشتاق ، ليدن ١٨٠٤ ، ص ٦٠ وما يليها ٠

(٣) معجم البلدان ، بيروت ١٩٦٣ ج ٣ ، ص ١٩٢ ٠

(٤) صورة الارض ، بيروت بدون تاريخ ، ص ٩٠

(٥) نفس المصــــدر ، ص ١٠٠ ٠

(٦) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٤٧ ٠

(٧) الدرجينى نسبة الى درجين ، وهى مدينـة قديمة بقرب نقطة ، وهى آخر بلاد الجريد ، انظر : الاستبصار ، سبق ذكره ص ١٥٩ ٠

(٨) معجم البلدان ، سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٩٢ ٠

(٩) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥٥ ٠

(١٠) معجم البلدان ، سبق ذكره ، ج ٣ ص ١٩٢ ٠

(١١) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥١ ٠

(١٢) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٥ ٠

(١٣) نفس المصــــدر ٠

(١٤) موضع رملى فى بلد زناته يحفر فيه فينبعث الماء على ذراع ونحــــوه، انظر البكرى ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٤٦ ٠

(١٥) نفس المصدر ، ص ٨٨ انظر ايضا : الروض المعطار ، ســبق ذكــره ، ص ٦٠٨ ٠

(١٦) نفس المصــــــدر ، ص ٧٧ ٠

(١٧) نفس المصــــدر ، ص ١٤٥ وما يليها ٠

(١٨) راجع نفس المصــــدر ، ص ١٥٢ وما يليها ٠

(١٩) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ١٠٠ .

يصف البكرى طريقا صحراويا بين تادمكت والقيروان عن طريق وارجلان ، ثم قسطيلية ، وطريقا صحراويا آخر بين تادمكت، وغدامس، ثم جبل نفوسة فطرابلس ، انظر: المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٨٢ . ويبدو ان طريق تجارة الذهب والرقيق ولا سيما نحو اودغست وغانة كان يمر بصورة أساسية بسجلماسة فى العصر المدرارى ، فهو الطريق الذى تكاد تقتصر عليه معلومات الجغرافيين العرب فى القرنين الثالث والرابع .

(٢٠) راجع : البكرى ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥٨ .

(٢١) الرض المعطار ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٣٤ .

(٢٢) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٦٨ .

(٢٣) المصدر السابق ، ص ١٥٩ ، ولعل الصواب « من اجود ...».

(٢٤) الاستقصا ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، ص ٩٩ وما يليها .

(٢٥) ابن حوقل ، صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٨ .
انظر : البكرى ايضا ، سبق ذكره ، ص ١٧١ .

(٢٦) الروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٥٦ .

(٢٧) نفس المصدر ، ص ١٢٧ ، انظر البكرى ايضا ، المغرب ، سبق ذكره، ص ٨٧ .

(٢٨) البيان المغرب ، بيروت ١٩٤٨ ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(٢٩) راجع : عبد العزيز بن عبد الله سبق ذكره ، ص ٢١ .

(٣٠) المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٤٨ .

(٣١) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص٩٠ .

(٣٢) نفس المصدر ، ص ٩٦ ، وما يليها .

(٣٣) راجع عن «اودغست» البكرى ، المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٥٦ ومابعدها الاستبصار ، سبق ذكره ، ص ١٥٦ وما يليها ، الروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٦٣ وما يليها ، دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ج١ ، ص ٧٨٥ مع قائمة مراجع .

(٣٤) الروض المعطار ، سبق ذكره ، ص ٥٤ .

(٣٥) صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٨٤ ·

(٣٦) انظر : نزهة المشتاق ، سبق ذكره ، ص ٦١ ·

(٣٧) الاستبصار ، سبق ذكره ، ص ٢٠٢ ، ونجد نفس النص تقريبـــا فى «الروض المعطار» سبق ذكره ، ص ٣٠٦ ·

(٣٨) وهو مؤلف كتاب « De adneutiu Messiaequew » وقد ترجم لاول مرة من العربية الى اللاتينية عام ١٣٣٩م بباريس بقلم الدومينيكان « Alfuhouse Bonhomme »

انظـر : عبد العزيز بعبد الله : الموســوعة لمغـربية ، للاعــلام البشرية والحضارية « معلمة الصحراء » ، الرباط ١٩٧٦ ، ص ١٢١ ·

علة ركود حضارة العــرب
فى العصور الوسطى

الدكتور محمد الهاشمى
استاذ الفكر العربى
« جامعة بغــداد »

لم ينل وضوع ركود حضارة العرب فى العصر الوسيط من عناية المؤرخين ما نالته موضوعات الحضارة الاخرى • ومرد ذلك ـ فيما يبدو ـ الى تعقــد هذا الموضوع ، وتنوع مصادره وكثرتها ، والى ما ينطوى عليه من «حساسية» ذلك انه يكشف عن صلة بعض الحــكام ، وبعض الفـــرق ، بهذا الركــود ، ومسئوليتهم عنــــه •

والراى الشائع ان حضارة العرب كانت قوية ، نشطة ، تتحرك فى جميع الميادين ، وان ركودها يعود الى غزوات المغول ، حيث قضوا على معاهد العلم ودور الكتب ، وقتلوا خيرة رجال الفكر • وهذا الراى مبالغ فيه كثيرا • وهو يناقض نواميس الحياة ، ذلك ان البنية القوية النامية النشطة التى تتوافــر فيها مقومات البقاء ، تستطيع ، الى حد ما ، درأ الخطر الخارجى عنها • وقــد تظهر نوعا من المرونة فى مواجهته ، ثم تمضى ، بقوة الاستمرار ، فى طريق البناء والاعمار ، والخلق والابداع • هذا والتاريخ يدل دلالة واضحة ، لا مجال فيها للشك ، على انركود حضارة العرب حدث قبل غزو المغول لبلاد الاســلام باكثر من مائتى عام • لكن الناس ، فى العادة الجارية ، يعزون اخفــــاقهم فى الحياة الى تاثير قوى خارج نطـــاق سيطرتهم ، وذلك ليدفعــــوا عن انفسهم مسئولية هذا الاخفاق • من أجل هذا كان لا بد من البحث عن علة اخرى •

وفى مقدمة ما يعرض للباحث فى هذا الصدد هو محاربة المشتغلين بالعــلوم العقلية والفلسفة ، بحجة ان الاشتغال بها يجر الى الكفر والالحاد • والاشتغال بهذه العلوم لم يكن مالوفا للعرب فى العصر الاول للاسلام • والـــذى دعــاهم الى الاشتغال بها هو التطلع الى المعرفة العقلية ، والرغبة فى الافادة منها فى

اغراض الحياة اليومية ، وفى شئون الدولة • فقد شعر العرب ، بعد أن استقروا فى الاقطار المتحررة : سوريا ، والعراق ، ومصر ، وفارس ، واختلطوا باهلها، أن من الضرورى لهم الاستعانة بعلوم الاقدمين ، يكيفون بها حياتهم، ونظمهم• وعلى هذا الاساس شرعوا فى تعريب الكتب الخاصة بالعلوم العقلية والفلسفة، وبحثوا فيها ، وتدارسوها ، وأضافوا اليها ما جـــد لهم من آراء وملاحظات ، وادخلوها ضمن دائرة ثقافتهم وصاروا يطورون حياتهم فى ضوء مالمسوه فيها• وقد اظهروا مقدرة فائقة فى هذ السبيل ، ونجحوا فيه الى حد بعيد •

وكان من مقتضيات هذا التكييف العام ان يسرى الى العقيدة ، وان تعاد صياغتها صياغة جديدة ملائمة للعقلية الجديدة التى ارتفع اليها المجتمع،والثقافة التى تمثلها ، وذلك لتساير العقيدة باقى مظاهر الحضارة ، وتكون لها القــدرة على مواجهة الاديان الاخرى المنافسة لها • والواقع ان العقيدة افـــادت كثـيرا من هذا التكيف ، وصار لها شان غير قليل فى توجيه الثقافة العامة • غير ان هذا التطور رافقته آراء جديدة فى العقيدة ، ووجهات نظر فيها لم تكن مالوفة للناس من قبل • وهذا ما غاظ فريقا من رجال الدين ممن يتعصبون للسلف ، ولا يرون سبيلا للخروج عليه ، فانبرى هؤلاء يقاومون حركة التجديد،ويطاردون المشتغلين بها ، ويسمونهم بالكفر والالحاد • وقد ذهب ضحية هذا الاضطهاد كثير من خيرة رجال العلم ، وأرباب المعرفة والثقافة العليا •

واستمر هذا الاتجاه المعادى للعلوم العقلية والفلسفة ، واخـذ يتصـاعد بمرور الوقت ، الى ان استقر على قاعدتين : احداهما حظر الاشتغــال بهـذه العلوم ومنع استخدامها فى موضوعات الدين ، بحجة انها قاصرة عـن درك الحقائق ، ولأن الاشتغال بها يؤدى الى الالحاد • والاخـــرى اعتمـاد ما وراء العقل وهو «الوجدان» طريقا للكشف عن الحقيقة الدينية ، وذلك بعـد تصفية النفس من شوائب المادة ، والعكوف على العبادة ، والرياضة «الصـــوفية »• وهاتان القاعدتان هما من أهم عوامل ركود الحضارة ، ذلك أن حظر الاشتغال بالعلوم العقلية عطل حركة الفكر ، وأخذ بالثقافة العامة • واعتماد التصـوف كان بمثابة النافذة التى تفر منها ، الى الداخل ، التصوف المعـــروف لــدى الهنود ، وهو القائم على احتقار الحياة ، والعزوف عنها ، واعتزال النـــاس ، وقتل الشهوة ، وتعذيب الجسد ، وما الى ذلك مما يناقض طبيعة الحضارة •

لقد دعا الاسلام الى الزهد فى حطام الدنيا ، وحث الناس عـلى البسـاطة

فى العيش ، والقصد فى المأكل والملبس لمواساة الفقراء والمحرومين ومساعدتهم . وقد ضرب الرسول والصحابة مثلا اعلى فى هذا الباب ، فكانوا قدوة لغيرهم فى التضحية ونكران الذات . بيد ان الرسول والصحابة كانوا مع هذا، يعملون من أجل الدنيا ، ويسعون فى طلب الرزق ، ويستمتعون بخيرات الارض . وقد أحبوا الحياة وعملوا من اجل الحصول على وسائل القوة فيها ، وتنافسوا فى ذلك اشد التنافس . فاين هذا من بغض الحياة ، واماتة الاحساس وتعذيب الجسد، والتمارين المولدة للذهول الصوفى ؟ هذا يقيم الحضارة ، وذاك يهدمها .

ومن الجدير بالذكر ان الخلط بين التصوف الذى هو اصيل فى حضارة العرب ، والتصوف الذى هو غريب عنها ، طارىء عليها ، وهو الذى حمل بعض الباحثين على أن يعزو ركود حضارة العرب الى دين الاسلام ، فى حين ان هذا الدين برىء من ذلك .

والواقع ان الاسلام عانى من هذه الصوفية الدخيلة ما عانته سائر مظاهر الحضارة الاخرى . لقد اقيم الاسلام على قاعدة «الوسط» الوسط الذى يحتل منزلا بين طرفين متباعدين ، «وجعلناكم أمة وسطا»(١)«ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط »(٢) . اما الصوفية فانها تقوم على الطرف الابعد المناهضة للوسط . وقد جانب بعض الصوفية الفرائض الدينية المألوفة، وملأوا التكايا والزوايا والربط ومارسوا شعائر ، هى مما نهى عنه الشرع، مثل صنوف الشعوذة .

لعل فى هذا ما يكفى لابراز بعض اسباب ركود حضارة العرب : فالعقل واليد هما أداة بناء الحضارة ونموها وتعطيلهما هو علة ركودها وتدهورها .

---

(١) القرآن الكريم (١٤٣/٢) .
(٢) القرآن الكريم (٢٩/١٧) .

نظام المواطنة فى الاسلام ومنجزاته للحضارة العـربية

للدكتور/ابراهيم احمـــد العـدوى
عميد كلية دار العلوم
(جـــامعة القاهرة)

نظام المواطنة فى الاسلام هو التطبيق العلمى لما جاء به هذا الدين الحنيف من تعاليم سامية ، تدعو الى بناء مجتمع على اساس من العدالة العالمية، متحرر من قيود العبودية والظلم الاجتماعى ، اذ عاشت البشرية قبل ظهور الاسلام فى ظل مجتمعات وحضارات يشوبها نظم المواطنة البـاغية ، المستنـــدة الى النظرة القبلية الضيقة الافق ، والتباين الطبقى الصارخ ، الذى يقسم الجماعات الانسانية الى طبقتين ، الاولى للاحرار المتمتعين بكافة السيادة والسلطـان ، والثانية للعبيد مسلوبى حق الحرية والعيش الكريم وعبر عن هذه النظـرية القديمة للمواطنة فيلسوف اليونان «ارسطو» حيث قال ان العبد شىء من المتاع ويشبه اساس المنزل ، ولصاحبه حق تأجيره وبيعه ، بل وقتله اذا شاء ٠

وقد تنزه نظام المواطنة فى الاسلام عن تلك الرزائل الصارخة التى قضت على الحضارات القديمة واهلها لارتبـــاطه المباشر بالقواعد الاساسية للـــدين الاسلامى وتعاليمه ، واستناده اليها دائما فى تحقيق اهداف هـــذا الـــدين من حيث اقامة العدالة الكاملة والمساواة ، واخراج النـاس دائما من الظلمـــات الى النور ، فهذا النظام الاسلامى لم يستهدف خدمة الحاكم او طبقة معينة على نحو ماساد الحضارات القديمة ، وانما كانت غايته تحقيق التكافل الاجتماعى وجعل الناس سواسية كاسنان المشط لا فضل لاحدهم على آخر ، أو لجنس على غيره الا بالتقوى ، ويؤكد بما لا يدعو الى الشك انه لا خير فى نظام للمواطنة ما لم تكن غايته فى الحياة هو الصالح العام ٠

وقر التشريع الاسلامى السماوى تاسيس هذا المفهوم السامى لنظام المواطنة

الجديد في الاسلام في كثير من الآيات الكريمة،قال تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم»وأكدالتشريع السماوى هذهالعدالة الاجتماعية لنظام المواطنةفى قولهتعالى:«فاذا نفخ فىالصور فلا انساب بينهم»٠فهدم هذا التشريع الاسلامى دعوى الجاهلية فى بناء حقوق المواطنة على العصبية القبلية والتفرقة بين افراد القبيلة الى احرار وعبيد ، وجعل من التقوى اساسا لبناء نظام جديدة للمواطنة تتعدى مجالاتها حدود القبيلة، وتتسع فى نفس الوقت لا لتشمل العرب فحسب، بل وجميع الامم المجاورة لهم أيضا ٠ فالتقوى فى الاســـــلام تقرر مقاييس اخلاقية جديدة لبناء مجتمع لا يقوم نظام المواطنة فيه على المقاييس القبلية ٠ فالله سبحانه وتعالى خـلق النـاس من ذكر وانثـى وجعلهم شعوبا وقبـائل ليتعارفوا وان اكرمهم عند الله اتقاهم ٠ فالشعوب والقبائل فى الاسلام ليست وحدات منعزلة بسبب التفرقة فى نظم المواطنة التى تسودهـا ، وانمـــا هى تكون مجتمعات يستوى فيها الناس على اسس من المواطنة الاسلامية وامـــام الله بصرف النظر عن اصلهم وجنسهم ٠

ودعمت سنة الرسول الكريم هذا المفهوم الاسلامى لنظام المواطنـــة حين وضع اللبنات الاولى للدولة الاسلامية عقب هجرته من مكة الى يثرب(المدينه المنورة) ، فاقر فى « الصحيفة» التى عقدهـا مع أهل يثرب، قاعـــدة نظـــام المواطنة فى الاسلام حين هدم العصبية القبلية وجعل الرابطة فى التربيـــة هى اساس المواطنة فى الامة الجـــديدة والتكافل بين ابنائها على مـر العصـــور فنصت «الصحيفة» على المؤمنين والمسلمين من قريش واهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم انهم أمة من دون النـاس ٠

واعتبرت الصحيفة نظام المواطنة فى الاسلام وحقوقها اساس الهجـــرة لمقاومة الباطل بدلا من العصبة القبلية فالولاء للدولة الاسلامية الجديدة والتمتع بحقوق المواطنة فيها اساسه الهجرة اليها ، والاهتداء بما قام به الرســــول الكريم فى الهجرة من مواطن الشرك والضلالة القبلية الى وطـن الهدى ونصرة الدين وكرامة الانسان ٠ ونزلت الآيات القرآنية التى تؤكد هذا النظام الجديد فى قوله تعالى : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم ، قالوا فيمـا كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض ، قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجـروا فيها» ٠ وقال تعالى « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء

حتى يهاجروا» ، وبدأت فكرة المواطنة بمعناها المثالى ترتبط بالدولة الاسلامية الوليدة وتدعم الروابط بين ابنائها على أسس راسخة ومتينة ٠

واتسع نطاق المواطنه فى الاسلام بعد فتح مكة ، حيث لم تعد الهجرة الى يثرب اساسا لها ، ذلك ان الدولة الاسلامية الوليدة غدت تبسط سلطانها خارج يثرب لتشمل سائر ارجاء بلاد العرب ، وغدا هذا التطور الهائل فى نمو الدولة الاسلامية يتطلب تعديلا واسعا فى النظام الذى سبق ان اقامه الرسول الكريم للمواطنة وحقوقها بمقتضى «الصحيفة» والعمل على اعطاء نظام المواطنــه فى الاسلام شكله النهائى بما يتفق وتعاليم الدين الاسلامى الحنيف وتركزتمعالم التعديل الاخير فى تنظيم حقوق «المواطنة» للدوله الاســـلامية بما يزيل اى مظهر من مظاهر التباين بين ابنائها وبما يؤدى الى جمعهم فى وحدة واحــده من أجل حمل رسالة تلك الدولة وهى نشر الاسلام فى جميع ارجاء العالم٠

وكان اول شطر من هذا التعديل الاخير هو السماح لليهــود وغيرهم من اهل الكتاب بالحصول على حقوق المواطنة ، لا عن طريق العهود كما تقــرر فى « الصحيفة » من قبل ولكن عن طريق دفع الجزية ٠ اذ جاء اقرار هذا النظــام على القادرين فقط من الذكور من دون المسنين والنساء والاطفال شرط اســلامى يبيحلاهل الكتابالتمتع بحقوقالمواطنة فىالدولةالجديدة مقابلحمايتهمواعفائهم من الخدمة العسكرية ٠ اذ لما كان الهدف الاول للدولة هو نشر الدين الاسلامى ، ولما كان الدين الجديد يعترف بالاديان السماوية من اليهودية والمسيحية فــلم يكن من العدل الزامهم بالانخراط فى سلك الجيش الخاص بالدولة الجديدة ٠ وصارت الجزية هى الشرط الجديد الذى حل محل العهود والمواثيــق من اجــل الحصول رسميا على حقوق المواطنة لاهل الكتاب من سكان الـــدولة الاسلامبه الفتيــــــــــة ٠

وجاء الشطر الثانى من التعديل الاخير فى نظام المواطنة فى الاســـلام خاصا بغير اهل الكتاب من القبائل العربية ٠ فتقرر اعتبارا لدخوله فى الدين الاسلامى الشرط الاول والاساسى للحصول على حقــوق المواطنة فى الدولة الجديدة ٠ فلم يعد للوثنية مجال للبقاء بعد ان ثبت ضررها وفسادها ، وبعــد ان تم تطهير الكعبة من الاصنام رمز الشرك ٠ وتقرير فى الوقت نفسه عـــدم

السماح للمشركين بالحج الى مكة ، لان هذه الفريضة صارت عنوانا على علو كلمة الدين الجديد ، وانه صار الاساس المتين للدولة الناهضة وسيادتها ٠

وجاء الشطر الثالث والاخير من هذا التعديل النهائى خاصا بالاجراءات التى تطلبتها مظاهر التوسع فى حقوق المواطنة ٠ ذلك ان نفرا من الناس دخل فى الاسلام وما زال قلبه معلق بتراث العصبية ، او مشبع بالمفاهيم القبلية وما ارتبط بها من التفاخر والجرى وراء زخرف الحياة الدنيا ٠ وكان هذا اللون من «النفاق» من اخطر الامور على حقوق المواطنة فى الدولة الحديثة لصعوبة معرفة اصحابه فتقررت التعديلات الاخيرة الغاء مهمة الكشف عن هذا الفريق المنافق من المواطنين المنحرف عن حقوق المواطنة ، على افراد الامة انفسهم لانهم أجدر بتعاملهم اليومى على معرفة العناصر الضارة بالوطن ٠

وصدرت هذه التعديلات الجديدة فى نظام المواطنة فى الاسلام فى العام التاسع للهجرة واذاعها على بن ابى طالب يوم الحجيج الاكبر بمكة ، باعتباره نائبا عن النبى واقرب الناس اليه واشتهر هذا الاعلان باسم «بيان براءة» لان الرسول الكريم اراد ان يعلن للقبائل العربية براءته عن العهود التى لم تعد تمت للاسلام بصلة، ويؤكد لها استقرار نظام المواطنة فى الاسلام على اسس التشريع السماوى ، الذى أوضحته الآيات القرآنية المباركة ٠

وصار نظام المواطنة فى الاسلام ـ كما تقررت قواعده على عهد الرسول الكريم ـ هو القاعدة التى واجهت بها الدولة الاسلامية مراحل تطورها واتساعها خارج الجزيرة العربية ، واحتضان الشعوب والاجناس العديدة التى دخلت فى رحابها ، وتنظيم حقوق المواطنة لمن آثر منهم الدخول فى الاسلام ، او من رغب فى البقاء على دينه القديم ، وذلك على حد سواء ٠ وكان نظام الموالى هو القاعدة الجديدة التى تقرر بها منح المواطنة الكاملة للمسلمين من غير العرب من ابناء الدولة الاسلامية النامية٠ واستمد هذا النظام مقوماته من مفهوم اجتماعى عربى اصيل ثم هذبه الاسلام وسما به فى ظل نظام المواطنة الجديد ٠ فكان العرب فى الجاهلية يطلقون « موالى الرجل » على حلفائه وعلى وريثته من بنى عمه واخوته وسائر عصبته ، اى ان الموالى فى الجاهلية هم العصبية من اهل الرجل ووزرائه ٠

وهذب الاسلام المعنى الجاهلى للموالى وجعله نظاما اجتماعيا يقتصر على ربط الفرد بالجماعة التى يعيش بينها برباط وثيق ٠ فقال تعالى «فان لم تعلموا اباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم» واكد الرسول الكريم هذا المعنى الاجتماعى بقــوله : «مولى القوم منهم» وتجلى ذلك عمليا فى اطلاق لقب « مولى رسول الله » على زيد بن حارثه ، الذى اصبح طليعة لهذه الطبقة الاجتماعية الجديــدة ووقوفها على قدم المساواة مع العرب المسلمين ، دون نظر للاصول التى انحدروا منها ، او الطبقة الاجتماعية التى كانوا ينتمون اليهـا ٠

وكان الخليفة عمر بن الخطاب اول من قرر « نظام الموالى » اساسا لمنــح حقوق المواطنة الكاملة للمسلمين من غير العرب من ابناء الدولة الاسلامية بعــد اتساع الفتوحات على عهده ، وجاءت هذه الخطوة دعما للدولة الاسلامية وهى فى دور النمو ، وسبيلا اتاح لها مواجهة هذه المرحلة الاولى الهامة من مراحــل تطورها واتساعها بنجاح كامل ٠ فكان كل فرد من غير العرب من ابنــاء الدولة الاسلامية يصبح « مولى » اذا اعتنق الاسلام ، وينال المواطنة الكاملة ويقف على قدم المساواة التامة مع اخيه العربى المسلم ، لا فرق بينهما ، ولا فضــل لاحدهما على الآخر الا بالتقوى ٠

وتجلت معالم المواطنة الكاملة فى مســــاواة الموالى ــ منذ فجر الــدولة الاسلامية ــ بالعرب المسلمين فى العطاء، وذلك على عهد الخليفة عمر بن الخطاب ٠ اذ فرض للهرمزان الفى دينار من العطاء، وجعله مع كبار العــرب المســلمين فى قائمة هذا النظام المالى ٠ ثم ان كبار دهاقين (ملاك الاراضى) فارس والعراق الذين اسلموا نالوا عطاء كبيرا بدورهم لاسلامهم وتقديرا لخدماتهم للدولة الفتية ٠

ونعم الموالى فى ظل المواطنة الكاملة بالحرية المطلقة فى ممارســة حياتهم طبقا لما سبق ان اعتادوا عليه ، وبخاصة من حيث الحرف والمهن وسائر الشئون الاقتصادية التى قاموا بها من قبل ٠ ثم كون اولئك الصناع واصحاب المهــن من الموالى تنظيمات اجتماعية فيما بينهم صارت تقابل العشيرة عنــد العرب ٠ ثم ان وحدة حقوق المواطنة بين الموالى والعرب ساعد على انتشار التزاوج بينهم ، وخلص استقرار رائع فى مطلع حياة الدولة الاسلامية ٠

واستطاع الموالى فى ظل المواطنة الكاملة ان يسهموا فى دعم اركان الـدولة

الاسلامية وتوسيع رقعتها ورفع شان حضارتها ، فظهر منهم قادة للفتوحات اسهموا منذ العصر الاموى مع زملائهم العرب فى نشر الاسلام واعلاء كلمته فى سائر ارجاء العالم . وممن اشتهر من الموالى فى ميدان الفتوحات الاموية دينار ابو المهاجر وموسى بن نصير ، الذين علا ذكرهم فى الميدان الافريقى وغرب اوربا . واشتهر منهم ايضافى ميدان المشرق وخراسان الفضل ابن بسام وعبد الله بن ابى عبد الله والبحترى بن مجاهد ، فكانوا يمثلون اصحاب الرأى والمشورة اشبه بالمهمة التى يقوم بها رجال هيئة اركان الحرب فى الوقت الحاضر ، وقدموا خدمات هائلة للقائد العربى المسلم قتيبة بن مسلم الباهلى فى فتوحه فى بلاد ما وراء النهر .

واتاحت حقوق المواطنة الكاملة للموالى ان يتولى نفر منهم كثيرا من المناصب الادارية الهامة ، من امثال سعيد بنجبير الذى ولاه الحجاج بن يوسف الثقفى على العطاء، واسامة بن زيد الذىاشرف على خراج مصر، واسماعيل بن عبد الله الذى عينه عمر بن عبد العزيز واليا على افريقية . وكان كتاب الدواوين الرئيسية فى الدولة على عهد بنى امية من الموالى ، ومن اشهرهم عبد الحميد الكاتب ، الذى كان الساعد الايمن للخليفة مروان بن محمد وكان من اهم ثمار تلك المواطنة الكاملة للموالى ، وفتحها الطريق امامهم الى مناصب الدولة ان اقبلوا على تعلم اللغة العربية واجادتها حتى صار لهم التفوق فى كثير من الدراسات الخاصة بعلوم تلك اللغة وآدابها ، فضلا عن العلوم الاسلامية واصولها . وصار نظام المواطنة فى الاسلام هو السبيل الذى هيا للحضارة العربية الاسلامية ان تجد فى الموالى ينابيع دافعة تزودها بالجديد من اسباب النشاط والازدهار .

وامتد نظام المواطنة فى الاسلام ليشمل جماعات اخرى من ابناء الدولة الاسلامية ممن آثر البقاء على دينه . فقد اشتمل هذا النظام على قواعد جليلة الشان لتوفير الحرية والطمانينة لهم داخل الدولة الاسلامية ، عملا بقوله : « لا اكراه فى الدين » وخضع هذا الفريق من ابناء الدولة الاسلامية الى «نظام اهل الذمة» ، الذى قرر حقوق المواطنة لهم باعتبارهم رعايا بالدولة .

وكلمة الذمة تعنى لغويا العهد والامان والضمان ، اى ان اهل الذمة هم الذين شملهم الاسلام من النصارى واليهود بعهده وامانه ، ثم اولئك الذين

طبق عليهم المسلمون فيما بعد قواعد « نظام اهل الذمة » من غير النصارى واليهود . وقد اشار القرآن الكريم الى طوائف اهل الذمة وتحديد طبيعة معاملتهم وعلاقتهم بالمسلمين فى قوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى والمجوس والذين اشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة » .

وكان الرسول الكريم اول من طبق عمليا قواعد المواطنة وفق « نظام اهل الذمة » على النصارى واليهود فى الحجاز ، ثم على مجوس البحرية حين امتد اليهم سلطان الدولةالاسلامية الفتية. اذ فرضالجزية على النصارىواليهود، ثم قررها أيضا على المجوس ، قائلا لعماله : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » . ولم تكن تلك الجزية كما حاول البعض تشويهها على انها نوع من العقوبة أو الجزاء على الذمى وانما كانت اسمى قاعدة لتطبيق نظام المواطنة عليهم فى الاسلام ، باقرارهم على دينهم ، ودفعها مقابل تعهد المسلمين بالمحافظة على ارواح اهل الذمة واموالهم ودياناتهم واعفائهم من اداء الخدمة العسكرية اذ فرضت الجزية على الذكور البالغين وحدهم من اهل الذمة ، مما يدل على انها اسس من نظام المواطنة فى الدولة ، وليس عقابا ، والا كان قد تم فرضها على جميع اهل الذمة دون استثناء اطفالا ونساء وشيوخا الى جانب الشبان .

وهيا نظام اهل الذمة لغير المسلمين ان يكونوا رعايا من ابناء الدولة الاسلامية ، وينعمون بحقوق المواطنة فى ظل الامان والضمان والعهد الذى يحصلون عليه مقابل اداء الجزية وساعدت السوابق التى تقررت على عهد الرسول الكريم فى توضيح حقوق المواطنة التى تقررت وفق « نظام اهل الذمة » وهى حقوق اباحت لاولئكالرعايا ممارسة كافة شئون الحياةالاقتصادية والمساهمة فى جميع الاعمال التى يرغبون فى القيام بها . اذ استهدفتسياسة الرسول الكريم بتاكيد العهود على مزج اهل الذمة مع ابناء المجتمع الاسلامى الجديد ، وخلق انسجام بينهم جميعا فى ظل « نظام المواطنة فى لاسلام » .

وتابع الخلفاء الراشدون والامويون رفع قواعد المواطنة الخاصة بنظام اهل الذمة،وذلك فى دقة واحترام كامل . ذلك ان الفتوحات الاسلامية مرت فى مرحلتين ، الاولى على عهد الراشدين والثانية على عهد الامويين ، وتطلبت كل مرحلة مزيدا من تطبيق حقوق المواطنة حسب « نظام اهل الذمة » على سكان

البلاد التى خضعت للمسلمين من حدود الصين شرقا الى جبال البرت (البرانس) غربا • اذ تباينت اديان اولئك السكان ومذاهبهم الدينية ، التى كـان اهمها المجوسية فى فارس والبوذية فى الهند ، الى جانب المسيحية واليهودية، وكذلك الديانة الوثنية فى بلاد المغرب وشمال افريقيا الى جانب المسيحية فى مصـر والانـــدلس •

وواجه الخلفاء الراشدون ثم الامويون هذا الحشد من السكان ودياناتهم فى طمانينة بفضل اقرارهم لقواعد المواطنة التى نص عليها « نظـام اهل الذمة » والسوابق التى حدثت على عهد الرسول الكريم فى اسلوب تطبيق تلك الحقوق• فقد تردد الخليفة عمر بن الخطاب اولا فى معـاملة مجوس العـراق ، وقـال : « ما أدرى كيف اصنع بالمجوس ؟ » • فقال له عبد الرحمن بن عوف اشهد انى سمعت رسول الله يقول : «سّنوا لهم سنة أهل الكتاب»• ثم خطا الخليفة عمر خطوة هامة فى دعم « نظام اهل الذمة » حين جدد مقدار الجزية التى تجنى منهم ، اذ جعلها حسب ثروة كل فرد منهم ، من الذكور فقط ، مع ابقاء شروط هذا النظام الاخرى ، وهى اعفاء الاطفال والنساء والشيوخ من ادائها• فكانت الجزية على القادر اربعة دنانير او ثمانية واربعين درهما وعلى متوسط الحال ديناران أو اربعة وعشرين درهما ، وعلى الشخص العـادى دينارا او اثنا عشر درهما • واستهدف الخليفة من ذلك الاجراء جعل الجزية تقنينا محددا ، لايصح لاحد ان ينحرف به بقصد الاساءة الى حقوق المواطنة لهذه الجماعات من رعايا الـــدولة الاســـلامية •

ومارس « أهل الذمة » فى ظل هذا النظام حقـــوق المواطنة فى الـــدولة الاسلامية ربما جعلهم اعضاء فعالين فى المجتمع ، مع احترام حريتهم الدينية• فاستخدم الامويون الكثير من النصارى فى اعمال الدولة • اذ عهد معـاوية بن ابى سفيان بالادارة المالية فى الدولة الى اسرة مسيحية ظلت تتوارث تلك المهمة وادارتها مدة من الزمن • واشتهر من افراد تلك الاسرة مؤرخ مسيحى اسمـــه يوحنا الدمشقى• وكانت علاقته وثيقة بمعاوية بن ابى سفيان وابنه يزيـد • وعهد معاوية الى طبيبه ابى آثال جباية خراج حمص • ولعل اشهـــر نموذج لممارسة اهل الذمة لحقوق المواطنة فى حرية ما قام به الشاعر المسيحى المعروف باسم الاخطل ، اذ كان يقف له المسلمون اجلالا ، ويدخل على الخليفة عبد الملك دون استئـــذان •

واتاحت حقوق المواطنة لاهل الذمة سرعة الامتزاج مع العـــرب المسلمين ، وتفهم الدين الاسلامى عن ايمان وصدق • وتجلت هذه الظاهرة فى سائر ارجاء الدولة الاسلامية ولا سيما مصر اذ اقبل الاقباط على تعلم اللغة العربية والتحدث بها • وممن تفوق فى هذا الميدان احد الاساقفة المصريين من اصدقاء الاسبغ بن عبد العزيز بن مروان ـ والى مصر ـ اذ يترجم هذا الاسقف الانجيل الى اللغة العربية بناء على طلب الاسبغ • ويكشف هذا الامر عن الاجادة المبكرة للغـــة العربية بين نفر من المصريين والقدرة العالية على الترجمة اليها ، وهذا امـــر اسهم كثيرا فى بناء الحضارة العربية الاسلامية وتزويدها بكنوز المعارف لـدى الشعوب التى خضعت للدولة الاسلامية •

ووجد نظام المواطنة فى الاسلام من احداث الدولة الاموية ، ولا سيمـا فى اواخر ايامها دوافع بشرية سيرا سريعا نحو السيادة الكاملة ، وتوفير العدالة الاجتماعية التى جاء بها الدين الاسلامى • وتركزت تلك الاحداث بين اهـــل الذمة من مواطنى الدولة الاسلامية وبين الموالى من اصحـاب المواطنة الكاملة اما بالنسبة لاهل الذمة فقد اتخذت الاحداث بينهم ظاهرة الهجرة من الريف الى المدن ، والتى اشتدت معالمها اواخر ايام الدولة الاموية • وصاحب هذه الظاهرة الاقبال على اعتناق الاسلام من بين سكان الولايات الجديدة ، سواء عن ايمان او رغبة فى التخلص من الالتزامات المالية التى كان من اهمها الجزية والخراج•

واشتدت معالم هذه الظاهرة بين اهل الذمة على عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك وخلقت مشكلة أقتصادية خطيرة فى الدولة الاسلامية ، وازمة حادة فى حقوق المواطنة بين ابناء تلك الدولة • اذ ادى دخول أهل الذمة افواجـــا فى الاسلام الى اسقاط الجزية عنهم ، وتحويل اراضيهم من خراجية الى عشرية مما اصاب ميزانية الدولة بالارتباك والعجز الشديد • واضطر الحجاج وغيره من الولاة الى عدم أسقاط الجزية عمن اسلم ، مما اشعل السخط الاجتماعى بين الفلاحين وغيرهم نتيجة انتهاك قاعدة هامة بين القواعد الاسلامية •

وزاد من خطورة الازمة التى نزلت بحقـــوق المواطنة للمسلمين الجـــديد ارتباطها بالتطور الذى شهدته حياة الموالى من اصحاب المواطنة الكـــاملة • اذ كان اولئك الموالى يشتغلون فى صدر الاسلام بشتى النـــواحى الاقتصادية بالريف والمدن ، فكان منهم الدهاقين وكبار ملاك الاراضى الـــذين اسلموا ،

وصاروا يقفون على قدم المساواة مع كبار الملاك العرب ، او يعملون نيابة عن سلطات الدولة فى جباية الجزية والخراج من اهالى ولاياتهم • ورضى العرب فى أول الامر ترك هذه الشئون الاقتصادية لكبار رجال الموالى لانهم ابصر بشئون الجباية والخراج • وكان من بين الموالى ايضا من اشتغل بالتجارة وأعمال المصارف والعلم ، فضلا عن الباعة والصناع واصحاب الحرف •

وتدفق اولئك الموالى على الامصار الاسلامية ، وسيطروا على مقاليد الاقتصاد نظرا لتفرغ العرب فى الايام الاولى من حياتهم فى تلك الامصار الى الجهاد • ولكن تبدل هذا الموقف حين شارك الموالى فى الفتوحات الاموية التى قامت فى المشرق والمغرب على عهد الامويين ، وقدموا خدمات جليلة للدولة الاسلامية واتساع رقعتها • وصاحب هذا العمل الجديد الذى أسهم فيه الموالى مشكلة جديدة ، قوامها ان الدولة لم تسمح لهم بالتسجيل فى ديوان الجند ، وهو الامر الذى حرمهم من «العطاء» الذى كان يتناوله العرب المسلمون المشتركون فى الجهاد وبدأ الموالى يعبرون عن سخطهم من هذه التفرقة التى حملت فى نظرهم هدما لاساس متين من اسس العدالة التى دعا اليها الاسلام ، واساءة بالتالى الى التطبيق العملى لحقوق المواطنة فى الدولة •

واشتد سخط الموالى فى الوقت الذى اشتد فيه سخط المسلمون الجدد فى المدن ، وصار القلق الاجتماعى يهدد الدولة الاموية لعجزها عن مواجهة التطور الجديد فى تطبيق « نظام المواطنة فى الاسلام » • وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز حل هذه الازمة ، حيث قرر اسقاط الجزية عمن اسلم ووضع نظام موحد للاراضى الزراعية ، بحيث جعل الخراج عليها ثابتا ، سواء اكانت ارضا يملكها عربى أسلم ، أو مسلم غير عربى • ولكن تلك المحاولات لم تحقق اهدافها لان اعداء الامويين استغلوا تلك الازمة لتحقيق مآربهم فى الوصول الى السلطة العليا فى الدولة الاسلامية ، وانتزاع الخلافة من الامويين •

وكان العباسيون يعملون فى ذكاء ومهارة على استغلال تلك الازمة والعمل على اسقاط الامويين • اذ وضع العباسيون برنامجهم على اساس تحقيق السيادة الكاملة للمواطنين الجدد فى الدولة ، وتجميد آمال الساخطين على الامويين تحت شعارات هذا البرنامج • واجاد العباسيون خلق انسجام بين وجهات النظر المتباينة لاولئك المواطنين الجدد ، سواء ممن ا سخط عنهم الامويين

الجزية ، او ممن تقرر منحهم « العطاء » اذ تبلور الاعتقاد عند اولئك المسلمين الجدد انه لا يمكن الاطمئنان على ممارستهم لحقوق المواطنة الكاملة الا عن طريق اسقاط البيت الاموى بالقوة والقهر واقامة حكم جديد قادر على حماية « نظام المواطنة فى الاسلام » •

واجاد العباسيون وضع شعار واحد يعبر عن هذا الاتجاه الجديد فى المطالبة بحقوق المواطنة ، واستغلاله ضد الامويين ، اذ كلفوا دعاتهم فى المرحلة الاولى من دعوتهم السرية برفع شعار « العمل على اعادة الدين الحق » ايهاماً للساخطين على الدولة الاموية ان الدعوة العباسية تستهدف تحقيق تعاليم الاسلام التى تنادى بالمساواة التامة بين جميع المواطنين ورعاية حقوقهم فى ظل العدالة الاجتماعية • وجاء نجاح العباسيين فى اسقاط البيت الاموى. وتوليهم عرش الخلافة الاسلامية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م بدايه عهد جديد ، صار رمزا على تحقيق العدالة الاجتماعية ، بتاكيد الاخوة فى الدين ، التى نادى بها فقهاء المسلمين بووضع السيادة الفعلية لتلك الاخوة بين ابناء الدولة الشاسعة موضع التنفيذ فى ظل « نظام المواطنة الكاملة » •

وفتحت هذه « المواطنة الكاملة » الباب على مصراعيه على عهد العباسيين لازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، كما ظل « نظام اهل الذمة » يزود تلك الحضارة بالروافد التى تصلها بينابيع جديدة من العلم والمعرفة • وعبر عن هذه الظاهرة الهامة المؤرخ ابن خلدون حين قال : ان حملة العلم معظمهم من الموالى • فقد نقل اولئك الموالى الى الحضارة العربية الاسلامية علوم بلادهم الاصيلة بلغة عربية سليمة واضافوا بها ثراء الى تلك الحضارة •

واخيرا فان حقوق المواطنة فى الاسلام ما زالت تؤكد تفوقها الذى نعمت به على حضارات العالم حتى الوقت الحاضر • فهى تنزه عما يشوب الحضارة العالمية الحديثة من تعصب عنصرى ووضع الحواجز اللونية امام البشرية ويستطيع نظام المواطنة فى الاسلام ان يقدم للبشرية اليوم طرق النجاة مما تعانيه من متاعب نفسية ومادية ، ويفتح لها الطريق للازدهار والاستقرار •

اثر الحضارة الاسلامية فى اوربا الغــربية

محاضرة البروفسور الدكتــور ابراهيم الشريفى
فى ندوة الحضارة الاسلامية فى جامعة الاسكندرية

اخوانى رجال العلم والفكــــر ..

سيداتى ســـاداتى ..

يشرفنى ان اشترك معكم فى ندوة الحضـــارة الاسلامية فى ذكرى العالم الكبير المغفور له الدكتور احمد فكرى الـــذى تعتبر بحوثه العلمية وتحـــرياته التاريخية الحضارية مدرسة لطلاب العلم والمعرفة . وما أحوج امتنا العربية فى حاضرها ومستقبلها للمبدعين المجاهدين فى الحقل العلمى امثـال الدكتـــور احمد فكرى صاحب المآثر الهامة فى البحث والتنقيب عن ذخائر الحضـــارة الاسلامية وآثارها . وكان له الفضل الكبير فى ابراز الوجــه الصحيح لســير التاريخ الحضارى وتصحيح نظريات ومفاهيم خاطئة لبعض المستشرقين عن الاسلام ورسالته العلمية .

وقبل أن أتناول موضوع الحضارة الاسلامية واثرها فى اوربا الغـــربية اشكر سيادة الاخ الدكتور محمد زكى العشماوى عميد كلية الآداب وزمـــلائه على الدعوة لندوة على مستوى التاريخ الحضارى فى جامعة الاسكندرية التى نفخر بها وبالمركز الرفيع الذى بلغته . كما اشكر الاخ الزميل الدكتـــور احمـد مختار العبادى مقرر اللجنة التنظيمية للندوة والتى نعتبرها خطـوة مشجعـة للسير الى الامام ، ونامل ان تليها ندوات اخرى على هذا المستوى الجامعى فى الاسكندرية المدينة العريقة بتاريخها الذى يحدثنا عن ماض مجيد ودور هـــام تمثل بنشر المعارف والعلوم عبر بلدان بلدان البحر الابيض المتوسط .

واشكر الاخ الدكتور حسين امين رئيس اتحاد المؤرخين العرب اذ اعتبــر وجوده معنا فى هذه الندوة عاملا مشجعا ومفيدا .

ان البحث عن الحقيقة لاقرارها تفرضه المسئولية ازاء الضمير والحق ..
ولعل من اهم الواجبات العمل على توسيع افـــق المعرفة وتصفية الرواسب المتحجرة وليدة النظريات الخاطئة والاحكام الملتوية التى صدرت عن ضيـــق النظر أو تحت تاثير عوامل مختلفة لعبت دورا خطيرا فى طمس الكثـــير من الحقائق التاريخية وابراز الجوانب السطحية للظواهر باشكال والوان تحيـــط بجوهر الاشياء والواقعية بصورتها الصحيحة .

ومن الواضح والاقرار به استنادا على الابحـــاث العلمية وسير التاريخ ان التقدم البشرى فى مختلف المراحل والمجالات ليس نتيجة حـروب وصراع بين الشعوب ولا بين الطبقات كما تصوره النظرية المادية الماركسية بل هــو حصيلة الابداع الفكرى والتعاون والاحتكاك بين المجتمعات . وان العــوامل المحركة لسير الحضارة والتقدم قوامها الابداع ونشر المعرفة وتنمية الصــلات بين الامم والشعوب .

نعلم ان بين الشرق والغرب علاقات تاريخية قديمة اتسمت بطابع خاص. ومن خلال الدراسات والتحريات المدعمة بالوثائق والمستندات نقف على مراحل التاريخ ومعطيات الحضارات واهمها الحضارة الاسلامية التى كانت وحدهـــا مزدهرة فى القرون الوسطى وبفضلها ارتقى الشرق فى القمــة فى التقدم العلمى والتطور الاجتماعى . كما اسهمت هذه الحضـــــارة العظيمة فى نهضة اوربا التى كانت متاخرة . ذلك ما يحدثنا عنه تاريخ العصور الوسطى الذى تمـــيز باتحاف الشرق للغرب بثرواته العلمية التى ظلت تتدفق على اوربا عن طريق الاندلس وصقلية حتى القرن الثالث عشر الميلادى . ومن هنا يتضح ان اوربا لم يبرز فيها خلال تلك العصور كما برز فى الشرق والاقطار التى افتتحهاالعرب علماء فى الطب والفلك والرياضيات والفلسفة والتشريع الاجتماعى .

وقبل ان ننتقل الى الدور الذى قام به فلاسفة وعلماء الحضارة الاسلامية فى تاريخ الشرق والغرب لا بد ان نلقى الضوء على نقطة هامة فى تاريخنـــا العربى وهى ان الاسلام مصدر مقومات الامة العـــربية ووجودها كامة نشات وسادت واتخذت مكانا هاما تحت الشمس . والاسلام هو الذى اوجـد للعرب كيانا ووحدهم فى مجتمع واحد . ولولاه لكانت الذاتية العربية تلاشت، وذابت كما تلاشت بعض الامم وطواها الزمن تحت قدميه .

ان الذين لا يفهمون الاسلام يظنون انه مجرد دعوة دينية فى حدود الدين صلاة وصوم وحج ، فهذا خطا والتعريف الصحيح انه عقيدة ونظام • والدين فى مفهوم الاسلام هو ما يتفق مع العلم والعقل •

لقد استنبطت اوروبا من نظام الاسلام تشريعات اجتماعية طبقتها فى القرن السابع عشر والثامن عشر • مع العلم ان الاسلام ينظر الى العالم على انه مجموعة انسانية ، وينظر الى الفرد على انه عضو فى المجتمع له كيانه الخاص • وقد تناول نظامه جميع شؤون الحياة ووضع لها قواعد بشكل عام• ولكل مشكلة من المشاكل وضع لها القواعد الثابتة والصالحة لمختلف العصور•

والجديد بالتنويه أن شرعة حقوق الانسان التى اقرتها منظمة هيئة الامم عام ١٩٤٨ قد سبقها الاسلام قبل اربعة عشر قرنا الى وضع نظام يحقق العدالة الاجتماعية • مع العلم ان شعار الحرية والاخاء والمساواة التى رفعتها الثورة الفرنسية الكبرى فى القرن الثامن عشر وبالتحديد عام ١٧٨٩ قد اخذها كتاب الثورة من نظريات فلاسفة الحضارة الاسلامية الفكرية والاجتماعية امثال ابن رشد والفارابى وعلى بن حزم •

ومن اهم المميزات فى نظام الاسلام لضمان حقوق الانسان وحمايتها هى:

١ ـ حرية الفرد فى العقيدة والعمل والكسب المشروع •

٢ ـ المساواة فى الحقوق من غير تمييز ما بين انسان وآخر لا فى الجنس ولا فى اللون •

٣ ـ احترام حرية الفرد وكرامته •

٤ ـ حماية الفرد والاسرة من المخاطر الاجتماعية •

٥ ـ حماية الملكية الخاصة والجماعية وملكية وسائل الانتاج الفردى •

٦ ـ نشر العلم وتحرير الفرد من الامية •

٧ ـ مكافحة الطمع والرق والعنصرية وازالتها •

٨ ـ تامين المعيشة للارامل واليتامى ومساعدة الفقراء •

٩ ـ التعاون بين جميع الافراد على البر والتقوى والعمل الصالح لبناء المجتمع الفاضل •

١٠ـ قاعدة الحكم شورى• وهذا بالتعبير الحديث الحكم الديمقراطى •

تلك هي حقوق الانسان في نظام الاسلام بمفهومه الصحيح ، انه باعتراف كبار المشرعين في عالم الغرب الذي تمسنوا بدراسته افضل نظام لقيام مجتمع مثالي على اسس متينة قوامها الاخلاق والعلم والمساواة والعدالة الاجتماعية ، والجدير بالذكر ان المملكة العربية السعودية التي تستنبط قوانينها من شريعة الاسلام ونظامه قد حققت في ظل هذا النظام تطورا ملحوظا في كافة الميادين وحافظت على القيم الانسانية ووفرت للشعب السبل للعيش بكرامة وامن واستقرار .

ان عظمة تاريخ الحضارة الاسلامية تتجلى في العبقرية التي صنعت هذا التاريخ ، انها عبقرية علماء العرب والمسلمين الذين كونوا للامم ثروات علمية اسهمت اسهاما كبيرا في نهضتها . ومن بين الذين استعانت اوروبا بتراثهم ونقلت مصنفاتهم الى لغاتها هم :

في الطب ابن سيناء المعروف في أوربا باسم « افيسين » ومحمد ابن زكريا الرازي .

وفي علم الرياضيات محمد بن موسى الخوارزمي وثابت بن قرة .

وفي علم الفلك محمد بن موسى والحسن بن الهيثم وناصر الدين الطوسي .

وفي الفلسفة وعلم الاجتماع ابن رشد المعروف في اوروبا باسم اكيريس ، والفارابي ، والغزالي والكندي ، وعلي بن حزم وابن خلدون .

ويجدر بنا معرفة ان الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت مؤسس الفلسفة الحديثة في القرن السابع عشر والفيلسوف اللاهوتي الايطالي توماس اكونياس والفيلسوف الالماني عمانوئيل كانت صاحب فلسفة النقد والحكم العقلي والفيلسوف البريطاني جون ستورت من فلاسفة مذهب السعادة والمنفعة العامة والفيلسوف الفرنسي مونتسكيو صاحب اصول النواميس والشرائع وغيرهم من اعلام الفكر في عالم الغرب قد تاثروا بفلسفة ابن رشد التي ظلت تدرس في جامعات اوروبا حتى القرن التاسع عشر وبفلسفة الفارابي الملقب بالمعلم الثاني بعد ارسطو المعلم الاول . ويعتبر كتاب آراء اهل المدينة الفاضلة للفارابي من اهم المبتكرات في علم الفلسفة . وفي كتابه يقول الفضيلة سبيل السعادة . والتعاون في ميدان الفكر وعمل الخير الدعامة لبناء مجتمع سعيد .

هناك مجموعات كبيرة من مصنفات علماء العرب والمسلمين نقلت الى اللغة اللاتينية فى القرن الحادى عشر والثانى عشر ونشرت فى اوروبا • وكثير من هذه المصنفات الثمينة لا يعرفها العرب • واشير هنا الى كتاب الفيلسوف الناقد علي بن حزم الذى ظهر فى القرن الثالث عشر فى مدينة الطليطلة باسبانيا • وهذا الكتاب فقد بعد ان ترجم الى اللاتينية واسمه (الحقيقة والمنطق)• وفيه نقد نقدا علميا ادعاءات اليهود وقصصهم الخرافية • وقد حمل عام ١٣٣٧ميلادى الكاتب الاسبانى ميكائيلى الذى تعمق بالدراسات العربية والاسلامية نسخة باللاتينية من كتاب على بن حزم الى البابابنوا الثانى عشر الذى كان يقيم في مدينة افيغيون بفرنسا فاعجب البابا بهذا الكتاب القيم وقال الى ميكائيلى: ان فى اقوال ابن حزم ما يساعد على انقاذ المجتمع الاوروبى من اساطير اليهود وقصصهم الضـــــــارة •

لقد ظهر فى اوروبا فى اواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر والقرن الحالى تباين واختلاف فى نظريات ومواقف الفلاسفة والمؤرخين من الاســـلام والعرب • ويمكن تصنيف هؤلاء الى اربع فئات هى :

الفئة الاولى فلاسفتها وكتابها من جماعة المذاهب المادية الالحادية شــوهت الصورة الحقيقية للفلسفة الاسلامية وقواعدها الفكرية والاجتماعية •

الفئة الثانية كتابها من المؤرخين اغفلوا او شطبوا النـــواحى البارزة فى مزايا الأنســـــان العربى وتكوينه الاجتمـاعى •

الفئة الثالثة فلاسفتها من اللاهوتيين وعلماء الاجتماع بعضهم اغفل ذكــر الايديولوجية الاسلامية ، وبعضهم فى تجديده ونقده شوه الطابع الصحيـــح للفكـــر الاســـــلامى والمجتمع العــــربى •

والفئة الرابعة فلاسفتها وعلمائها من قادة الفكر الحر والمصلحين الاجتماعيين بعضهم احسن الشهادة للاسلام والعرب ، ومن بين هـــؤلاء نخص بالـــذكر الفيلسوف الفرنسى غوستاف لوبون والمؤرخ الاسكتلندى توماس كارليـــل، والفيلسوف الهولندى ادريان ريلان والمستشرق الالمانى براج والمستشرق الفرنسى ارنيست غانيــــــه ••• الخ •

لا شك ان مشعل الثقافة والمدنية الذى حمله العرب فى ضوء الرسالة الاسلامية الخالدة الى عالم الغرب فى العصور الوسطى قد سهل السبيل لنشوء عصر النهضة فى اوروبا ٠

وهذا الشرق العظيم بعد ان انتكب بدأ التفكك وتحول من مبدع ومنتج الى مقتبس ومستورد فقد مركزه الاول ، ودخل فى مرحلة طال امدها تميزت بالنكبات والازمات والمنازعات وتغلغل التيارات الفكرية الخارجية التى شلت قواه وابعدته عن واقعه وتراثه الحضارى مصدر وجوده وكيانه ٠

والمهم بالنسبة للعالم العربى هو الابداع وليس النقل والتقليد ٠ ونستطيع الجزم ان الفكر العربى قادرا على الابداع والعطاء اذا انصرف الى التنقيب والبحث والاستعانة بتراث حضارته العربية الاسلامية ٠

واليوم في عالم الغرب لا يسمع صوت الشرق الا اذا واكبته رسالة العلم والمعرفة ٠ وهذا الفراغ الخطير الذى نلمسه لا يمليه الا الاعلام العلمى باسلوب يحيط بجوهر الاشياء وحقائقها ٠ وبدون استخدام لغة العلم والمعرفة يستحيل النفاذ الى المجتمعات الاوروبية ونشر فى اقطارها صورة واضحة محترمة عن العرب ورسالتهم ودورهم فى التاريخ المعاصر ٠

وعلى هذا الاساس ندعو الدول العربية الى الاهتمام بوسائل الاعلام العلمى فى اوروبا الغربية لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن امتنا وواقعها ٠ وهذا بالطبع يساعد على دعم مركز العالم العربى وتنمية الصلات مع الشعوب ٠

حول اصول العلاقات الدولية
فى الحضـــارة الاسلامية

دكتور حلمى مرزوق

كما « للغير » فلسفة فى حياة الافراد ، كذلك الأمم والشعوب ٠

فما من امة برزت فى التاريخ الا وكان غيرها من الامم على اسم وسمتها به، او مصطلح يلخص ما تحتقنبه من مشاعر التعصب وخلق العداء المقيم ازاء الغير ـ اللهم الا الاسلام أو حضارة العرب والمسلمين ، فان جنحوا للسلم فاجنح لهـــا وتوكـــل علـــى اللـــــه ٠

فاليهود يصفون غيرهم من خلق الله « بالجوييم » ، واليونان والرومان ـ ـ آباء الحضارة الانسانية ـ ورثنا عنهم مصطلح « البرابرة » ، اطلقـوه على غـــيرهم من النـــــاس ٠

وهانحن هؤلاء نسمع ـ اليوم ـ « باللونين »، مصطلحا جديدا من مواليـد الغرب وحضارته ، بلغ فى الذنوس حد « الايديولوجية العصرية » كما يسميها اشتراوس

وسوف يجهد البـاحثون انفسهم من الغـــد ، كما نجهدها نحن اليوم نريد ان نستتشف ما وراء هذه المصطلحات من معان او مشاعر ، هى اقطع فى الدلالة على حضارة اصحابها من المجـــلدات الطـــوال ٠

وانت تنصف هـــذه الحضارات من نفسك اذا احتكمت الى مصطلحـاتها واحتكمت الى دلالاتها المأثورة او المتواترة فى التاريخ ، واذا تحدث التـــاريخ سقطت اصـــــابع الاتهـــــام ٠

(*) نشرت فى مجلة الثقافة العربية ، بالجمهورية العـــربية الليبية عدد يناير ١٩٧٥ ٠

ولعل « الجوييم » ابشع هذه المصطلحات جميعا ، لانها احفلها بمشاعر التنقص والازدراء ، والمصطلح عبرى فى لغته ، وقد تداولته المعاجم والموسوعات بالدرس والتحليل الطويل ، ووجدت عندنا ظاهرا فى تسريبه فى عقول القارئين، وان اعيت شعاب الراى اوحوا اليك بانه « معنى تاريخى » ، يريدون انه من سوء الماضى لا من سيئهم ، والماضى لا يؤاخذ به فى فلسفة التطور والارتقاء، كما تراه فى دائرة المعارف اليهودية وفيما اخذت عنها من الكتب والمراجع على وجه الخصوص .

وترجمة « الجوييم » فى العربية « الامميون » بلغة العصر او « الأميون » بلغة القرآن : « ذلك بانهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل » .

جاء فى تفسير الطبرى انهم قالوا : « لا حرج علينا فيما اصبنا من اموال العرب ولا اثم ، لانهم على غير الحق ، وانهم مشركون .

واذا سقط الحرج او الاثم فى « الغير » ـ لا تعجب عندهما لما جاء فى سفر الخروج « للاجنبى تقرض بربا » .

وقس على الاموال غيرها من خصال التصرف والسلوك ، لان الاصل فيها واحد ، او الفلسفة من ورائها سواء ، فعامة الامم والشعوب ، عرض مباح ، ونهب مشروع ، ورحم الله الامام الشافعى اذ قال : الحلال فى دار الاسلام حلال فى بلاد الكفر ، والحرام فى دار الاسلام حرام فى بلاد الكفر » .

ثم ياتى بعد « الجوييم » مصطلح « البربرى او البرابرة » اطلقه اليونان على غيرهم من الامم والحضارات ، وتابعهم عليه الرومان ، ورثتهم فى الخلق والحضارة ، وتقرا الباب العاشر فى جمهورية افلاطون ، فتراهم يؤمنون بعامة « البرابرة » عبيدا بالفطرة او الطبيعة ، كالسائمة او الحيوان المباح ، تملكه بالصيد او « الحيازة وضع اليد » وهذا غاية العدل والانصاف عند شيخهم افلاطون

وابشع من ذلك اختصاصهم « البرابرة » ورقابهم بالسيف ، اما ما يكون من ذلك بين اليونان بعضهم بعضا فلا يسميه افلاطون حربا وانما هو شغب او فتنة ، لانهم عشيرة واحدة او جنس لا اختلاف فيه .

ذلك بانهم آمنوا بانفسهم ـ مثل اليهود ـ شعبا مختارا ، الا ان اليهود شعب الله المختار اما هم فشعب « الحرية المختار» ، واذا كابر اليهود بانفسهم تاصيلا على ارادة الله » فهؤلاء اصلها لهم افلاطون على « ارادة الطبيعة » .

وكل ذلك فى عرف العصر ، لا اقول خرافة كبرى كما يقول « هوبسون » وانما أقول تاصيل « ميتافيزيقى » فيه نظر طويل ، لاننا لا نعلم على وجه اليقين من اختارته الطبيعة ليكون شعبها المختار او الانموذج المحتذى للشعوب.

الا ان فكرة الاختيار أو الشعب المختار يتصل حبلها على نحو من الانحاء فى فلاسفة الالمان ويرثها هتلر فى كتابه « كفاحى » فالمانيا فوق الجميع .

فلسفة بعضهـا من بعض

ان صيحة كاتو « فلنحطم قرطاجة » تلخص لنا فلسفة الرومان فى«الغير» ولا اظن وراء ذلك الا عواطف العداء والتخريب ، اتصل حبلها فيهم من اليونان اساتذتهم فى الفكر والحضارة ، ومرد ذلك الى أن كل اولئك حضارات قبلية، لا تفترق فى اواء التعصب والاستعلاء ، يلخصها لنا الشاعر البدوى :

ويشرب غيرنا كـدرا وطينـا

والاسلام حين جاء يهذب خصال البداوة الجاهلة ، انما جاء يصحح هذه الحضارات جميعا ، فجازلهم بالولاء السياسى والاجتماعى حدود القبيلة أو روابط « الدم » وحدود الشعوبية او روابط الاقاليم ، فكان ثورة فى الفكر السياسى ، شهد بمداها او رحابتها المؤرخ الفيلسوف « توينبى » والمعروف اليوم ان روابط الدم والاقليم عصب « الدولة الحديثة » لم يثبت جدواها فى شئون السلام منذ قيامها فى الجيل الماضى ، فثار بها الثائرون يريدون أن يستبدلوا بها « المنظمات الدولية » ، ويثور بها الثائرون ـ اليوم ـ من دعاة العالمية واصحاب النزعات « الانسانية » يريدون ان يجمعوا البشرية على صعيد واحد من الراى او المذهب المتفق عليه .

واجتماع الناس على المبدأ او وحدة الاعتقاد ـ غاية التقدم فى هذا العصر ـ سبق اليه الاسلام ، لان الاحكام الى الفكر والاعتقاد احتكام الى اسمى الملكات فى النفس البشرية ، والولاء الفكرى ليس وراءه ارتفاع فى الاجتماع البشرى ، لان ما عداه من الولاء الاقليمى او العنصرى فطر بدائية او فضائل متجاوزة فى

الاسلام ، لا يبخسها حقها ، وانما لا يصح الاحتكام اليها فى علاقات الامم والشعوب ٠

« وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم »

والاسلام حين جاز بالولاء الى هذه الافاق الرحبة ، لم يملكوا الا ان يحمدوا له هذه المزية العالمية ، الا نهم وقفوا بجهد الاسلام عند حدود « الامة » واشتقوا « الامية » اسما لهذه النزعة او مصطلحا يصبغون به ــ اليوم ــ فى علم الاديان المقارنة ، يقصرون به الولاء الجديد على الامة الاسلامية ، ويزعمون ان وراء ذلك ولاء انسانيا اعم من هذا وأشمل ، تسقط فية الاديان لانهـا هى الاخرى موانع الوحدة والاتفاق ٠

وهذا قول طلى ، لانه من عمل الخيال او الاحلام السعيدة ، لم يثبت على محك الواقع والتطبيق لا فى الماضى ولا قامت به دولة فى الحاضر ، ولنا فى ذلك كلام طويل ، لا نريد ان نصرف به القارئ عما نحن فيه من حقائق التاريخ فى هذه الدعاوى « الانسانية » وواقع الأمم وتجارب الشعوب وحسبنا انها وليد النزعات « الطوباوية » او الخيرية او المثالية التى لا تزال على محك التمحيص اذا برئ اصحابها من مظنة الهوس النبيل ، كما يقولون ٠

فالاسلام مثاليته واقعية اذ صح هذا التعبير ، لانه يلتئم فى مبادئه مع الفطر البشرية او طبائع الامور ٠

فلا تؤخذ على الاسلام ــ اذن ــ هذه « الامتية » لانها اتساع تاريخى واقعى بالولاء الانسانى سقطت معه الولاءات القبلية والاقليمية والشعوبية ، وكلها مثالب لا تزال ضاربة فى الوجدان الاوروبى ، ينقض عليها ــ ولا بد ــ دعاواها فى الولاء الانسانى المنشود ، ويقف به موقف الامل الجميل ليس غير ٠

واذا جاوزنا الجدل فى هذه المزية ، يبقى لنا موقف الامة الاسلامية من «الغير» وهو ما ينبغى أن يؤخذ به الاسلام ويحاسب عليه ٠

واول ما يلحدون اليه فى موقف الاسلام من «الغير» اصطلاح « الاعجمى » واول ما نرد به ان هذا الاصطلاح عنجهية عربية لا اسلام فيها ، لان الاسلام

حين جاء افرغها فى المحتوى القبلى ، وسلبها الموروث من مشـــاعر التنقص والازدراء :

ـ « لا فضل لعربى على اعجمى ، ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى »

ـ « اسمعوا واطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة »

ـ وقوله لأبى ذر : « طف الصاع ، طف الصاع ، ليس لابن البيضاء علـى ابن السوداء فضـــل الا بالتقـــوى او بعمل صـــالح » ٠

وحسبنا هذه الشواهد من اثر الرسول وما طبعت به وجـــدان المسلم من الاخاء الانسانى ، ولا يتأولها متاول مهما كانت دواعى التاول كما رأينـاه فى بعض التاريخ الاسلامى ، أو يخرج عليها خارج وقلبه مطمئن الى الايمان ٠

ويأتى مصطلح «الكفر» او «دارالحرب» مما يلحدون اليه او ينبزون به الاسلام فيما يكتبـون ، ولا نرى فى ذلك غضاضة تصرفنـــا عن مقطع الحـــق فى هذه القضية ، والتمـــاس وجـــه اليقـــين ٠

فالكفر مصدر كفر ، وكفر ـ لغة ـ معناها غطى واخفى ، ومن قوله تعالى: «يعجب الكفار نباته» «اى الزرع» لانهم يكفرون الحب فى الارض ، وقول لبيد:

« حتى اذا القت يدا فى كافر » اى الليل لانه يغطى الاشياء ، والكـــافر اصطلاحا لايبعد عن هذا المعنى، لانه يخفى الاسلام ويستر عقيدته ، وما الشأن فى ذلك الا شأن المصطلحات المعاصرة التى تفرق بها المذاهب بين الانصـــار والخصوم ، فهى مطلب لازم للتفريق فى الولاء تجرى به طبائع الامور وما المثل القائل : «تشركنى فى الفعل وتفردنى بالعجب» الا منطبق على هؤلاء ٠

ولا يرد علينا هذا القول فيما اخذنا به الحضـــارات من مصطلحاتها فى «الغير» ، لان العبرة ـ عندنا ـ ليست فى المصطلح وانما فى دلالته ومعناه، فلم يحدث ـ قط ـ فى تاريخ الاسلام والمسلمين ان كان «الغير» نهبا مباحـا كما زعم بنو اسرائيل ، ولا صاح المسلمون صيحة «كاتو» : فانحطم قرطاجة، ولا اعتدوا غيرهم « عبيدا » بالفطرة كما تفلسف لهم افلاطون ، وانما كـــان « الغير » له حق المسمى فى الاسلام ، لا ينزل عليه المسلمون نزول الامر الواقع

او الاضطرار ، ولا نزول التفضل والامتنان ، وانما نزولا على حـــق مشروع يتقاضاه اصحابه مهما استحكمت الاهــواء فى النفوس :

ـ « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى احسن »

ـ « وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » ·

وتتوارد الاحاديث على هذا المعنى العظيم :

ـ « من آذى ذميـــا فقـــد آذانى » ·

ـ « من قذف ذميا حد له يوم القيامة بسياط من نار »

وكتب الرسول الى سعد بن معاذ «الايفتن يهودى عن يهوديته»فاهل الذمة هم أهل العهد والميثاق ، لهم مالنا وعليهم ماعلينا والدين ـ يومذاك ـ كان هـــو الـــولاء الجـــامع للامم والشعـــوب ·

ونعيد هنا قول الشافعى : ما هو حلال فى دار الاسلام حلال فى دار الكفر، وما هو حرام فى دار الاسلام حرام فى دار الكفر ، لان الالتزام هنا اذا جـــاز لنا هذا التعبير داخل «المدينة» وخارجها، ولهذا كله يقتل المسلم بالكافر عندكثير من الفقهاء وعلى هـــذا كله قامت العهود والمواثيق وتواترت فى المسلمين الى يـــوم النـــاس هـــذا ·

وحسب الحضارة الصالحة ان تنتصف لغـــيرها انتصاف الحق المشروع لا انتصـــاف التفضـــل والامتنـــان ·

وحسب الاديان الاخرى من الاسلام ان يجدوا نصابا يحتكمون اليه وحقـا معلوما يتقاضونه مهما أستبدت الاهواء واستحكم التعصب فى النفوس ·

وحسب البشرية ـ آخر الامر ـ ان تقوم فيها اخوة فى شئون المجتمـــع ومطالب الحياة عندما تمتنع اخوة الدين ووحدة المذاهب والمعتقدات ·

مدينة عمان الاردنية فى التاريخ الاسلامى الوسيط

بحث مقدم من يوسف درويش غوانمه

« عمان » ـ بفتح العين المهملة والميم المشددة وزيادة ألف ونون على الذى قبله على وزن فعلان ، ويقال أيضا عمان بتخفيف الميم(١) ـ اليوم عاصمة المملكة الاردنية الهاشمية ، تقع فى الجزء الشمالى من البلاد ، على نحو ثمانية وثمانين كيلو مترا من بيت المقدس الواقعة الى الجنوب الغربى منها عبر نهر الاردن ، وتبعد مسافة عشرين كيلو مترا من نهر الزرقاء (يبوق) الواقع الى الشمال منها ، ويقول ابو الفداء « وهى واقعة غربى مدينة الزرقاء وشمالى بركة ريزاء »(٢) وهى فى الجزء الشمالى الشرقى من منطقة البلقاء الخصبة على سيف بادية الاردن غالى الجنوب والشرق منها تقع اهم القصور والقلاع الأمويه . ونعتها الجغرافيون العرب بانها . قصبة ارض البلقاء»(٣) .

وتقوم مدينة عمان الحديثة فى نفس الموضع تقريبا الذى كانت تشغله المدينة القديمة ما عدا موقع القلعه . ذلك المكان الاستراتيجى الحصين الذى انتشرت الابنية من كل جهاته ما عدا سطحه حيث بنى المتحف الحديث واعتبرت المساحة الباقية منها منطقة اثريه واستبعد البناء والعمران عنها . مع ملاحظة ان المدينة الحديثة اشغلت حيزا اكبر بكثير مما كانت تشغله المدينة القديمة القائمة وسط الراوى عند اقدام القلعة الحصينة . وتغطى عمان الحديثة مساحة من الارض تبلغ اربعين كيلو مترا مربعا تنتشر على سبعة جبال متجاورة(٤) .

---

(١) البكرى ، معجم ما استعجم ، ج ٣ ص ٩٧٠ ، ياقوت ، معجم البلدان ج ٣ ص ٧١٩ ، ابن سباهى : أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك ، لوحة ١٩٦ «مخطوطه» .

(٢) ابو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٧١٩ .

(٤) John Fizter,
Jordan Aquarterly Magazine of tourism and Cultural interst. 1973, p. 13.

ورد اسم عمان فى المصادر القديمة ومنها التوراة باسم ، عمون Ammon و «عمانا» Ammana ، و « ربة عمانا » Rabhat Amana وربة عمـــون Rabhat Ammon ، وعمان Amman (٥) ، وهى عاصمـــة العمـــونيين Ammonites - منذ ١٢٠٠ ق٠م(٦) ، وامتدت مملكتها من نهر الزرقاء (يبوق) شمالا الى نهر الموجب (ارنون) جنوبا ، وامتدت غربا حتى نهر الاردن(٧)٠

قامت مدينة عمان فى بقعة خصبة ، فالسهول الزراعية تحيط بها من الجنوب والشمال والغرب ، واشتهرت فى العصر الاسلامى الوسيط بانها ذات قـــــرى عديدة ومزارع شاسعة(٨) ٠ حتى ان احد المؤرخين العرب ، ذكر ان عدد القرى الواقعة فى البلقان وحسبان حول عمان ثلاثمائة قرية(٩) ، كما وصفت بانهـــا « معدن الحبوب »(١٠) ، ويتوسط مدينة عمان نهير صغير ينبع من احد جبـال عمان ويسير فى منتصف الوادى الخصيب٠ وكان هــذا الرافد يسقى اهـالى المدينة بالاضافة الى الزراعات التى كانت قائمة حوله ، كما اقيمت عليه الارحية العديدة لطحن الدقيق(١١) ، ويصب هذا الرافد فى نهر الزرقاء ، وما زالت هـذه المياه تسقى مدينة عمان الحديثة ، حيث تضخ المياه من اول المجرى المسمى ، « راس العـــين » ٠

ان لموقع مدينة عمان اهمية كبرى فى بقائها عبر عصور التاريخ المتلاحقة ، فقد كانت عمان وعمون القديمة تقوم على جبل القلعة فى مكان حصين تحيط بها الاسوار القوية المنيعة بالاضافة الى الابراج المنتشرة على التلال المجاورة لمراقبة العدو والتصدى له ، كما ان خصب تربتها ووفرة مياهها ووقوعها عـلى طـريق

---

(٥) — FR. Buhl, Encuclopedia of Islam Article "Amman"
— W. Max Moller, Jewesh Encyclopedia, Article, "Ammon, Ammonites"

(٦) لانكستر هاردنج «اثار الاردن» ، ص ٧٠ ، فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ١ ص ٤١٦ ٠ — Max Muller, op. cit.

(٧) نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الادنى القديم ، ج ٣ ص ٣

(٨) المقدسى ، احسن التقاسيم ، ص ١٣٥ ٠

(٩) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، ص ٤٦ ٠

(١٠) المقدسى : التقاسيم ، ص١٧٥ ٠

(١١) المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، ياقـوت : معجم البـلدان ج ٣ ص ٧١٩ ٠

القوافل التجارية القادمة من الجزيرة العربية والبحر الاحمر(١٢) ، جعل منها سوقا تجارية رائجة ، حتى قبل عنها فى العصور الوسطى « والتجارات بـه مفيدة »(١٣)٠ ولكونها فى طريق الحاج الشامى فهى احدى المحطات الهامة لهم منها يتزودون باصناف البضائع والمياه ، كل هذه العوامل مجتمعة مكنت مدينة عمان من البقاء والازدهار منذ اقدم العصور واستمرار عمرانها ٠

من كل ما تقدم يمكن القول بان عمان جاء تحريفا من اسمها القديم « ربة عمون » وهو اسم سامى يرده بعضهم الى عمان احد ابناء لوط(١٤)٠ وقد احتفظت به على مدى عصور التاريخ رغم تغيير اسمها فى عهد بطليموس الثانى (٢٨٥ـ٢٤٧ ق٠م) الى «فيلادلفيا»(١٥) ، وكانت احدى مدن الديكابوليس العشرة ، وظلت تعرف بهذا الاسم الجديد فى العصر الهلليني والرومانى والبيزنطى ، الا انها سرعان ما عادت الى اسمها القديم بعد انحسار التسلط البيزنطى عنها ودخولها فى فلك الحكم الاسلامى القادم من الجزيرة العربية ٠ ونستدل من ورود اسم عمان فى اشعار العرب(١٦) فى عصر الدولة الاموية على

---

(١٢) رينه ديسو : العرب فى سورية ، ص ٨ ، Ann, Jordan; P. 31.

(١٣) المقدسى ، احسن التقاسيم ، ص ١٨٠ ٠

(١٤) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، المجلدة الاولى ص ١٩ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج ٢ ص ١٨ ٠

(١٥) عمان هي أول مدينة فى العالم يطلق عليها «فيلادلفيا» ، وفي هذا العام ١٩٧٦ ،وبمناسبة احتفالات الولايات المتحدة باعيادها القومية ، اهدت عمان الى مدينة «فيلادلفيا الامريكية» فى ولاية بنسلفانيا بشرق امريكا مسلة نصبت باحد ميادينها احتفالا بهذه المناسبة ٠

(١٦) قال الاحوص بن محمد الانصارى :

اقو بعمان وهل طربى له ... الى اهل سلع ان تشوقت نافع
اصاح الم تحزنك ريح مريضة ... وبرق تلالاء بالعقيقين لامع
نظرت على فوت واوفى عشية ... بنا منظر من حصن عمان يافع

(ديوان الاحوص ص ٥ـ٧) ٠

ويقول الفرزدق :

فحبسك اغشانى بلادا بغيضة ... الى وروميا بعمان أقشرا

(ديوان الفرزدق ص ٢٤١ـ٢٤٢)٠

ويقول الخطيم العكلى :

اعوذ بربى ان ارى بعدها ... وعمان ما غنى الحمام وغردا
فذاك الذى استنكرت يا ام مالك ... فاصبحت منه شاحب اللون اسودا

(ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٧٢٠) ٠

=

ان الاسم الجديد اصبح ساريا قبل ذلك بامد طويل بحيث ان اسم عمان تردده بعض ألاحاديث النبوية الشريفة(١٧)٠ وورود اسم عمان فى هذه الاحاديث دليل واضح على ان عمان كانت معروفة عند العرب فى الجزيرة العربية قبل الاسلام٠

ولم يغفل الجغرافيون العرب عمان ، فابن خرداذبة (ابو القاسم عبد الله ابن عبدان) المتوفى سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢م) يذكر فى معرض حديثه عن كورة دمشق واقاليمها ان بها : كورة حوران ، وكورة الجولان ، وظاهر البلقاء ، وجبل الغور ، وكورة مآب ، وكورة جبال الشراه ، وكورة بصرى ، وكورة عمان والجابية(١٨)٠

اما الاصطخرى (ابو اسحق ابراهيم بن محمد) المتوفى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فيقول : «وعند البلقاء عمان الذى جاء فى الخبر فى ذكر الحوض أن ما بين عمان وبصرى(١٩) ٠

ويتحدث المقدسى (شمس الدين ابو عبد الله احمد ت ٣٧٥ هـ (٩٥٨م) ، عن عمان فيذكر انها على سيف البادية ذات قرى عديدة ومزارع شاسعة ، وانها «معدن الحبوب» ويذكر ان بها جامع ظريف جميل يقع فى طرف السوق صحنه مزين بالفسيفساء ويشبه بجامع مكة المكرمة ، ويذكر بعض اثارها فيقول ان بها

= ويذكر خرداذبة فى معرض حديثه عن كور الشام بيتا من الشعر لم يذكر اسم قائله :

سلام على دمن اقوت بعمان واستنطق الربع هل يرجع ببيان

(ابن خرداذبة : المسالك والمالك ص ٧٧)٠

(١٧) اخبرنا الحافظ بن عساكر عن مكحول ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : لتمخزن الروم الشام اربعين صباحا ، لا يمتنع منها الا دمشق وعمان (ابن عساكر : تاريخ دمشق المجلدة الاولى ص ٢٣٢)٠

كذلك اورد بعض الجغرافيين احاديث اخرى عن ذكر عمان ٠

يقول ياقوت عن الترمذى (من عدن الى عمان البلقاء) ، والبلقاء بالشام وهو المراد فى الحديث لذكره مع اذرح والحرباء وايلة وكل من نواحى الشام (معجم البلدان) ج٣ ص ١٨٩)٠

اما البكرى فيقول : ويروى فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم « مابين بصرى وعمان وعمان »٠ ذكره الخطابى (معجم ما استعجم ج٣ ص ٩٧٠) ٠

(١٨) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٧٧ ٠

(١٩) الاصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٦٥ ٠

قصر جالوت على جبل يطل عليها(٢٠) ، وبها أيضا قبر اوريا اقيم عليه مسجد كما يذكر ان بها ملعب سليمان (المدرج الرومانى)واما عن الحياة الاقتصادية فيروى انها تشتهر بالتجارة والتجارات به مفيدة(٢١) رخيصة الاسعار كثيرة الفواكه ، واما مكاييلها فيذكر ان أهل عمان يستعملون المدى « ومدى عمان ست كيالج وقفيزهم نصف كيلجة وبه يبيعون الزبيب والقطين(٢٢) »

ثم ننتقل الى ما قاله ابن حوقل (ابو القاسم محمد بن حوقل ت ٣٨٠ هـ ٩٩٠م) ، فعند كلامه عن حوران والبثينة يقول عنهما : رستاقان عظيمتان من جند دمشق مزارعها مباخس ويتصل اعمالها بحدود نهربين الذى عند البلقاء وعمان الذى جاء فى الخبر انه نهر من ركى الحوض وانه ما بين بصرى وعمان(٢٣) ٠

اما البكرى (ابو عبيد الله بن عبد العزيز ٤٨٧ هـ ١٠٩٤م) ، فيذكر أن عمان بلدة من عمل دمشق ، وانها سميت بعمان بن لوط عليه السلام(٢٤) ٠

ولا بد ان نذكر ما قاله ياقوت الحموى ت ٦٢٦ هـ (١٢٢٩م) ، فهو يتكلم عن مدينة عمان باسهاب فيذكر اشتقاقها ونسبتها ، ويقول ان عمان بلد فى طرف الشام ، وبالقرب منها الكهف والرقيم ، وانها تشتهر بالزراعة والتجارة، ويشير الى جامعها الجميل المزين بالفسيفساء(٢٥) ٠

---

(٢٠) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ١٧٥ ٠
(٢١) المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٨٠ ٠
(٢٢) المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٨١ ٠
(٢٣) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٧٠ ٠
(٢٤) البكرى : معجم ما استعجم ، ج٣ ص ٩٧ ٠
(٢٥) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٧١٩ ـ ٧٢٠ ٠

وعن اهل الكهف : قامت دراسات وبحوث عديدة حول الكهف والرقيم منها تلك الدراسات التى قام بها المستشرق لويس ماسينيون بعنوان (السبعة النائمون ـ اهل الكهف) ٠

انظر : ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج٣ ص ٢٧٥ حاشية رقم ٥ ٠ وحديثا يرى الاستاذ تيسير ظبيان الاثرى الاردنى انه تم العثور والتاكد من اهل الكهف ، باكتشاف سبع جماجم وجمجمة كلب فى كهف بين قريتى « الرقيم » و «ابو علنه» الاردنيتين على بعد سبعة كيلومترات من عمان ٠ ولكن الاستاذة الدكتورة سعاد ماهر لها تحفظ على هذا الكشف فهى ترى ان لابد من تحليل تربة الكهف جيولوجيا والقيام بالكشف على احدى الجماجم بواسطة كربون ١٤ المشع ، وذلك للتاكد من العصر الذى عاش فيه اهل الكهف) انظر جريدة الاهرام العدد ٣٢٧٠٩ بتاريخ ٣٠ يونيو ـ حزيران ـ ١٩٧٦) ٠

ويهمنا فى هذا المقام ان نذكر ما رواه ابن شداد (عز الدين ابو عبد الله محمد ، ت ٦٨٤ هـ ١٢٨٥م) ، الذى يعتبر من اعظم من كتب عن طبوغـرافية الشام التاريخية ، فهو يرى ان عمان مدينة البلقاء سميت بعمان بن لوط ، كما يذكر أن كوره تسعة منها : كورة الظاهر ومدينتها عمان،وفى حديثه عن ارض البلقاء يذكر ان فيها مدينتان هما مآب وعمـان(٢٦) ٠

اما جغرافيو القرن الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر الهجرى فنذكـر منهم : الدمشقى (شمس الدين محمد بن ابى طالب ت ٧٢٧هـ ـ ١٣٢٧م) ، فيذكر المناطق التى تتبع مملكة الكرك مثل : الصلت ، وادى موسى ، وقلعة السلع، وارض مدين ، وزغر ، ومدينة عمان وعملها وارض البلقاء(٢٧)٠

ويذكر ابو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل ت٧٣٢هـ ـ ١٣٣٢م) ان عمان هى البلقاء ، ويصفها بانها رسم كبير ويمر تحتها نهر الزرقاء ، ويصف ارضها ومزارعها بان حوالى عمان مزارع واسعة وارضها زكية طيبـة خصبة ، ويختتم كـلامه بانها مدينـة البلقـاء(٢٨) ٠

ولا بد من الاشارة الى ما ذكره العمرى (شهاب الدين احمد بن فضل الله العمرى ت٧٤٩هـ ـ ١٣٤٨م)، فقد ذكر ان عمان البلقاء وان يزيد بن ابى سفيان هو الذى فتحها فهو يقول : « ومن البلقاء مآب وعمان ، فاما عمان فان يزيد بن ابى سفيان فتحها ، واما مآب فان ابا عبيدة رضى الله عنه فتحها»(٢٩) ٠

اما ابن الوردى (سراج الدين ابو حفص عمر بن مظفر ت٧٤٩هـ ـ ١٣٤٨م)، فهـو يقول فى معرض حديثه ، عن ارض دمشق وكورها فيذكر منها : كـورة الغوطة ، وكـورة جـولان ، وكورة الشراه ، وكـورة عمان(٣٠)٠

ثم ننتقل الى ما قاله القلقشندى (ابو العباس احمد بن على ت ٨٢١ هـ

---

(٢٦) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ١٨٠ ٠
(٢٧) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢١٣ ٠
(٢٨) ابو الفـدا : تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ ٠
(٢٩) العمرى : مسالك الابصار فى مسالك الامصار ، ج٢ مجلد ٣ لوحـة ٤٤١ « مخطـوطة » ٠
(٣٠) ابن الوردى : فريدة العجائب ، ص ٢٢+٢٣ ٠

(١٤١٨م) ، فعند حديثه عن عمل البلقاء يقول انها سميت بالبلقاء بن سورية من بني عمان بن لوط وهو الذى بناها(٢١) ، وارى انه يقصد بذلك مدينة عمان، فالبلقاء لم تكن مدينة كى يبنيها ولان عمان كانت تدعى لدى بعض الجغرافيين بالبلقـــــاء(٢٢) ٠

ويقول ابن سباهى (محمد بن سباهى ت ٩٩٧هـ (١٥٨٩م) ، ان عمـــان مدينة من الاقليم الثالث من البلقاء ، ويشير الى انها رسم كبير يمــر تحتها نهر الزرقاء الواقع على طريق حجاج الشام ، ويصف تربتها بانها زكية طيبة، وعلى مقـــربة منها يوجـــد الكهف والـــرقيم(٢٣) ٠

وارى أن اختتم اقوال الجغرافيين العرب بقول القرمانى (ابو العباس احمد ابن يوسف الدمشقى ت ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م) ، ففى حديثه عن عمـــان يذكـر انها رسم كبير لها ذكر فى تاريخ الاسرائيليين وان نهر الزرقاء يمر من جانبها وانها مدينة قديمة تقـــع الى الغـــرب من الزرقـــاء(٢٤) ٠

كان لعرب اليمن والجزيرة العربية منذ اقدم العصور صلات تجـارية وثيقة ببلاد الشام ، وتمكن القرشيون من احتكار التجارة العالمية بين الشرق والغرب، فكانوا ينقلون متاجر الهند والصين والبحرين واليمن والحبشة والصومال فى قوافل تسير فى الطريق التجارى البرى الذى يشق بلاد العرب من الجنوب الى الشمال مرورا بمكة وتيماء والعلا ومنتهية ببصرى ، وكان لا بد لهذه القوافـل من عبور منطقة البلقاء سالكة طريق تراجان المعبد عبر الهضبة الاردنيةالخصبة (الطريق الملكى او السلطانى) ، ومن المعلوم ان هذا الطريق كان يتصل بمدينة فيلادلفيا وعمـــان(٢٥) ، لـــذا فان عمان فى فترة الحـــكم الروماتى البيزنطى كانت من المحطات الهامة على طريق القوافل التجارية العربية ، وانها كـانت معروفة لديهم باسمها السامى «عمان» وليس باسمها الاغريقى«فيلادلفيا» بدليل ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد ذكرها فى احاديثه كما اسلفنا ٠

---

(٢١) القلقشندى ، صبح الاعشى ج٤ ص١٠٦ ٠

(٢٢) ابو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ ٠

(٢٣) ابن سباهى : اوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك ، لوحة١٩٦ «مخطـــوطة » ٠

(٢٤) القرمانى : اخبار الدول : وآثار الاول ، ص ٤٦٤ ٠

(٢٥) رينه ديسو (العرب فى سورية) ، ص ٩ ٠ Ann, Jordan, p. 31. —

فتحت مدينة عمان فى جملة الفتوح الاسلامية لبلاد الشام فى عهد الخليفة ابى بكر الصديق رضى الله عنه ، على يد القائد يزيد بن ابى سفيان ، ويذكر البلاذرى ان يزيد سار الى عمان ففتحها يسيرا بصلح على مثل صلح بصـــرى وغلب على ارض البلقاء(٣٦)٠ اما الازدى فيورد رواية اخرى فيذكر ان ابا عبيدة قدم اليها وهو فى طريقه الى مؤاب فسار على زيزاء ثم سار الى مآب بعمـــان فخرج اليهم الروم فلم يلبثهم المسلمون ان هزموهم حتى ادخلوهم مدينتهم ، فحاصروهم فيها ، وصالح اهل مآب فيها فكانت اول مدائن الشـــام صـــالح اهلها(٣٧)٠ وقد روى المؤرخون ان ارض البلقاء فى هذه الاثناء كانت عامرة خيرة كثيرة الغلال ثراؤها وافر وعمارتها متصلة غنية(٣٨)٠ ومما تجدر ملاحظته هنا ان عمان بعد الفتح العربى اعيـــدت اليها التسمية السامية السابقة القـــديمة واستبعدت التسمية الاغريقية « فيلادلفيا » ونرى ان المصادر العـــربية لـــم تذكرها الا باسمها « عمان » والذى عرفت به منذ اقدم العصور(٣٩)٠

ازدهرت عمان فى العصر الامـــوى ونستدل على ذلك من الآثار المكتشفة حديثا فى قلعة عمان ومعظمها يرجع عهده الى العصر الاموى(٤٠)٠ وكان اهتمام خلفاء الامويين ببادية الاردن امرا طبيعيا ، فقد كانوا يختنقون من الســـكنى فى دمشق ويتلهفون الى الانطلاق فى البوادى حيث الطبيعة الخلوية التى الفوها، ولعل ذلك من أسباب انتجاعهم لبادية الاردن حيث بنوا القصور الخاوية التى ما زالت آثارها قائمة حتى اليوم ٠ وقد حظيت البلقاء الواقعة حول مدينة عمان باهم هذه القصور ومنها : قصر المشتى ، قصر الموقر ، قصر عمـــــرو ، وقصر الخرافة ، وقصر الطوبة ، وقصر التسطل ، وقصر الازرق ، وقصر خربة المفجر، وقصر الحـــــلابات ٠

---

(٣٦) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٦ ٠

(٣٧) الازدى : فتوح الشام ، ص ٢٣ ٠

(٣٨) البلازدى : فتوح البلدان ، ص١٠٨ ، ابن عساكر : تاريخ دمشـــق، المجلدة الاولى ، ص ٣٦٧ ٠

(٣٩) ومن المدن التى غير الاغريق اسماؤها ثم اعيدت اليها تسمياتها العربية (السامية) حلب سميت بيرويا Beroca وعنجر الذى عرفت باسم خـــالكيس Chalics عكا التى اطلقوا عليها بتولمايس Ptolemais وبيسان حيث سموها سيكثوبوليس Scyrhopolis وغيرها (انظر : فيلب حتى : تاريخ ســـورية ولبنان وفلسطين ج١ ص ٢٧٧ + ٢٧٨) ٠

(٤٠) لانكستر هاردنج : آثار الاردن ، ص ٧١ ٠

كرس الامويون اهتمامهم بها فجعلوا فيها عاملا فالطبرى يقول : « فكتب مروان الى عامله بدمشق يامره بالكتابة الى صاحب البلقاء ان يسير الى الحميمة»(٤١)،كذلك كان لولاية عمان قوة خاصة من الجند (٤٢) مكلفة فى المحافظة على الامن وسلامة المسالك والدروب المؤدية الى الحجاز ، ولقربها من قصور الخلفاء فى البادية ، فهى لا شك تؤدى واجب الحماية للخلفاء وذويهم عند خروجهم للاقامة فى هذه الاماكن الخلوية ، كما كانوا يستخدمون هذه القوة للقضاء على الفتن والخارجين على الدولة فنرى ان الخليفة الاموى يزيد بن الوليد ١٢٦هـ/٧٤٤م ، دعا مسلم بن ذكوان ومحمد بن سعيد بن مطوف الكلبى لالقاء القبض على يوسف بن عمر والى العراق الذى هرب الى اهله فى البلقاء ، فاخذا معهما خمسين رجلا من جند البلقاء(٤٣) واتما هذه المهمة .

وامتازت عمان فى العصر الاموى بقلعتها الحصينة اذ كانت على درجة كبيرة من الحصانة والمنعة حتى تمثلها الشعراء فى اشعارهم من ذلك قول الاحوص ابن محمد الانصارى :

نظرت على قوت واوفى عشية .·. بنا منظر من حصن عمان يافع(٤٤)

ونستدل من اقوال الجغرافيين العرب على وجود مسجد جامع فى عمان، بلغ الغاية فى الاتقان والاحكام ، كان يقع بطرف سوق المدينة ، وكان صحنه يزدان بالفسيفساء وشبه هذا المسجد بمسجد مكة حسنا وجمالا وروعة بناء ، واول اشارة الى هذا المسجد حملها الينا المقدسى فى القرن الرابع الهجرى ، ثم اعاد ذكره ياقوت الحموى فى القرن السابع الهجرى ، ومع ذلك فاننا نميل الى الاعتقاد بان هذا المسجد من بناء الامويين استنادا الى اهتمامهم بمنطقة الاردن عامة والبلقاء بوجه خاص ، بالاضافة الى ولعهم بالبنيان المدنى والدينى

---

(٤١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٧ ص ٤٢٢ .
الحميمة : بضم الحاء المهملة قرية من البلقاء بها قبر محمد بن على بن عبد الله بن عباس (ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج٣ ص ٢٧٤) .

(٤٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٧٤ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٤ ص ١٤٨ .

(٤٣) الطبرى : المصدر السابق ج٧ ص ٢٧٤

(٤٤) الاحوص الانصارى : ديوانه ، ص ١١٧.

ربما اشتهروا به من تأسيس المساجد فى دمشق وبيت المقدس والقصــور فى البادية مثل مسجد قصر الحلابات التى مازالت آثاره باقية غير بعيدة عن مدينة عمان(٤٥)٠ ولم يبق من مسجد عمــان سـوى الاسس التى قام عليها المسجد الحالى الكبير وسط الحى التجارى فى مدينة عمـــان ٠

واصلت عمان نشاطها الاقتصادى واهميتها التجــارية والحضارية التى اشتهرت بها منذ العهد الرومانى ونلاحظ انها اصبحت احد مراكز سك العمـلة الاسلامية فى عصر الدولة الاموية ، فالعرب فى فتوحاتهم حافظوا على مراكـز الحضارة فى البلاد المفتوحة واسهموا فى انعاش وتطوير الحياة العامة فى تلك البـــلاد ٠ فواصلت المدن التى كانت تضرب النقود فى العهود السابقة نشاطها فى عهد المسلمين ، ومنها مدينة عمان ٠ ومما يؤكد قولنا هذا هو أن دائرة الآثار العامة فى المملكة الاردنية الهاشمية اكتشفت اثناء التنقيب فى السوق الرومانى وسط مدينة عمان بين عامى ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧ مجموعة من الفلوس النحــاسية الاموية ، عددها سبعة عشر فلسا ، ضربت فى عمان بعد تعــريب النقــود الاسلامية زمن الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ـ٨٦هـ) ويحتفظ بها الآن المتحف الاردنى بعمـــان ٠

هذه الفلوس العمانية ضربت على النمط البيزنطى بعد ادخـال التعـديلات واهمها تحوير الصليب الى شكل كروى على صارية مثبتة فوق اربع درجـات (فى الظهر) ، وصور الخليفة الاموى عبد الملك (فى الوجه) منتصبا قابضا عـلى سيفه ومرتديا عباءته وكوفيته(٤٦) هذه الفلوس تعتبر من اقدم انواع السـكة الاسلامية ، ومن هنا تبرز لنا اهميتها ، ومن دراسة بعض هذه الفلوس نـرى: فى الوجه صورة الخليفة وحولها كتب : عبد الملك امير المؤمنين ، اما الظهـر فعليه صارية ينتهى بشكل كروى مثبتة على اربع درجات ونجمة ثمانية عـلى يسارها عمان ، وعلى الاطار كتب : لا اله الا الله محمــد رسول الله ٠ وقــد اطلعت بنفسى على هذه الفلوس بمتحف عمـــان ٠

---

(٤٥) احمد فكرى : المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٢٠ ٠

(٤٦) عدنان الحديدى : فلوس نحاسية اموية فى عمان ، مجلة المسكوكات، العدد ٦ ، مديرية الآثار العامة ، بغداد ، ١٩٧٢ ، ص ٤١ـ٤٨ ٠

بعد ذلك دخلت عمان فى فلك الحكم العباسى ، وذكرها المقدسى فى هذه الفترة بانها كانت مزدهرة كثيرة التجارات عامرة آهلة بالسكان يزينهامسجدها الجميل المفسس ، كما اعطانا صورة عن حياتها الثقافية والاجتماعية ، وبلغ من اهتمام العباسيين بعمان انهم ابقوها كما كانت فى عهد الامويين مركزا للوالى المسئول عن البلقاء ومنطقة الشراه الممتدة الى جنوب الاردن الحالية .
ومن هؤلاء الولاة الذين تولوا عمان فى عهد الدولة العباسية : صالح بن على ولاه الخليفة العباسى السفاح ، على البلقاء وفلسطين»(٤٧) ، وصالح بن سليمان الذى رتبه جعفر بن يحيى والى دمشق على البلقاء وما يليها(٤٨) فى عهدالخليفة هارون الرشيد • واهم من ولىعمان فىتلك الفترة • محمد بن طغج بن الاخشيد •

اتصل محمد بن طغج بعد هروبه من بغداد سنة ٢٩٦هـ (٩٠٨م) بابى منصور تكين بن عبد الله الحربى الخزرى والى الشام ، واصبح من اكبر اركانه واخص رجاله ، واراد تكين ان يكرمه فراى ان « يتقلد عمان وجبل الشراه(٤٩) من قبله ، فاصبح محمد بن طغج والحالة هذه واليا على المنطقة الممتدة من عمان شمالا حتى آيلة والعقبة جنوبا •

وحدث اثناء ولايته لعمان وقوع حادث له ادى الى شهرته ولفت نظر البلاط العباسى فى بغداد اليه ، وتفصيل ذلك ان ابن طغج وردت اليه سنة ٣٠٦هـ (٩١٨) ميلادية انباء تخبره أن اعرابا من لخم وغيرهم اعدوا كمينا لركب الحجاج القادم من الديار المقدسة قاصدا الشام، نهض محمد بن طغج بقواته من عمان والتقى بالركب فى نفس الوقت الذى تعرضوا فيه لهجمات الاعراب . فاوقع الاخشيد بهم وبدد شملهم وأسر منهم عددا وقتل آخرين وشرد الباقين، وبذلك نجا الركب الشامى من هذا الكمين ، وكان مع الركب نفر من حجاج العراق منهم جارية للخليفة العباسى المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ) ، تعرف « بعجوز » وبعد عودتها الى دار الخلافة ببغداد اخبرت الخليفة بما شاهدته من عمل ابن الاخشيد ، واطنبت فى الحديث عن شجاعته وشدة باسه ، فكان لذلك اجمل الوقع لدى الخليفة الذى قدر له هذا الصنيع فانفذ اليه خلعا وزاده

---

(٤٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج٧ ص٤٦٧ •
(٤٨) الطبرى : المصدر السابق ج٨ ص ٢٦٣ •
(٤٩) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص١٤٨ ، وانظر ايضا : سيده اسماعيل كاشف ، مصر فى عصر الاخشيديين ، ص٦٢ ، حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسى ج٣ ص١٣٦ •

من رزقه«(٥٠) ، ومن ذلك الحين اخذ نجم ابن الاخشيد فى صعود فتولى دمشق اولا ثم مصر ثانيا مؤسسا بذلك الدولة الاخشيدية ٠

ثم دخلت عمان تحت السيطرة الفاطمية ، ولكن هذه السيادة نازعهم فيها بنوبويه بالعراق كما سنرى بعد قليل ، ومع ذلك فقد ولى الفاطميون ولاة على عمان وابقوها كما كانت سابقا ، ففى سنة ٣٧٣ هـ قلد الخليفة الفاطمى العزيز بالله الامير بكجور ولاية دمشق بدلا من بلتكين التركى الوالى القديم ، فاساء بكجور وظلم وجار فزاد العداء بينه وبين الوزير يعقوب بن كلس ، عندئذارسل الخليفة العزيز قائده منير الخادم لمقاتلته والقضاء عليه ، فارسل منير جميع القوات من العرب من قيس وعقيل وفزارة وطلب ان يكون مكان تجمعهم وحشدهم فى عمان ، وبعدما تم حشدهم « سار الى عمان(٥١)» ثم تقدموا جميعا الى دمشق فرحل عنها بكجور وتسلمها منير الخادم ٠

هرب بكجور الى الرقة واخذ يراسل صاحب حلب شريف بن سيف الدولة على بن حمدان يطلب منه ولاية حمص ، فولاه عليها وارسل بكجور من يتسلمها ، ولما علم الوزير الفاطمى يعقوب بن كلس بذلك قلق اشد القلق لما كان فى نفسه على بكجور ، لذلك ارسل الى والى عمان ناصح الطباخ يطلب منه ان يسير الى حمص ويأخذ من بها من أصحاب بكجور ، فسار ناصح بقواته الى حمص ، ولما علم اعوان بكجور بذلك خرجوا هاربين باموالهم ولكنه تمكن من اخذهم وسار بهم الى دمشق(٥٢) ٠ ثم عاد الى مركزه فى عمان ٠

وفى سنة ٤٦٠ هـ اشتدت الفتنة فى دمشق ضد واليها بدر الجمالى ، مما دعا الخليفة الفاطمى المستنصر بالله الى عزله وتولية الاميرقطب الدولة بازطغان واليا لدمشق ومعه الشريف العلوى ابو الطاهر حيدرة بن مختص الدولة ابى الحسن ناظرا فى اعمالها(٥٣) ، فقام اهل دمشق بنهب خزائن بدر الجمالى بسبب اساءته وظلمه لهم(٥٤) ٠ اقام بدر الجمالى فى عكا بعد عزله يترصد ناظر

---

(٥٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٤ ص ١٤٨ ٠

(٥١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج١ ص ٢٦٠ وانظر ابن ايبك كنز الدرر ج ٦ ص ٢٢٠ ٠

(٥٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج١ ص ٢٦٠ ٠

(٥٣) المقريزى : المصدر السابق ج٢ ص ٢٧٧ ٠

(٥٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٥ ص ٨٠ ٠

دمشق الذى « كان عدوا لبدر الجمالى »(٥٥) ، فاخذ يسعى للانتقام منه ولما شعر حيدرة بالخطر هرب ، الى عمان البلقاء(٥٦) واختبأ فيها ، ولكن بدر الجمالى نجح فى اقتناصه بعد اتفاقه مع والى عمان بدر بن حازم فقدم اليه اثنى عشر الف دينار وخلعا كثيرة فى مقابل القاء القبض عليه ، فغدر بدر بن حازم بحيدرة وارسله مكبلا الى بدر الجمالى بعكا فقتله اقبح قتلة، ومثل بل حيث سلخ جلده حيا، وكان حيدرة عالما قارئا محدثا جوادا(٥٧) ٠

ظلت عمان فى هذه الفترة تتبوأ مركزها التجارى والحضارى المرموق ونستدل على ذلك من بقائها مركزا لسك الدنانير الذهبية المنسوبة اليها . فقد عثرت على نص لابن هلال الصابىء ذكر فيه هذه الدنانير العمانية(٥٨) التى تعود للعهد البويهى فى العراق ٠ وقد تأكد لى صدق هذا النص بالدليل المادى القاطع وهو العثور على احد هذه الدنانير العمانيه الذهبيه فى العراق٠ ففى صيف عام ١٩٧٣ اثناء تنقيبات مديرية الآثار العامه بالعراق فى سهل شهرزور (محافظة السليمانية) عثروا فى تل ياسين تبة على تسعه وتسعين دينارا ذهبيا داخل علبه نحاسيه اسطوانية ومن ضمن هذه المجموعه دينار عمانى(٥٩) يحفظ هذا الدينار بالمتحف العراقى ببغداد قسم المسكوكات تحت رقم ١٥٩٨٢ ويبلغ وزنه ٤ر٥ غرام ، اما قطره فهو ٢٢ مم ويكتب على الوجه

ح لا اله الا الله وحده لا شريك له القادر بالله محى الدولة وملك الامه بسم الله ضرب هذا الدينار بعمان سنه ست وثمانين وثلثمايه

اما الظهر فيكتب عليه

لله محمد رسول الله ، الملك العدل ، صمام الدولة وشمس الملة ابو كاليجار محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين ٠٠٠ الخ(٦٠) ٠

---

(٥٥) ابو المحاسن : المصدر السابق ج٥ ص ٨٥ ٠
(٥٦) ابو المحاسن : المصدر السابق ج٥ ص ٨٥ ٠
(٥٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٢٩٦ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٥ ص٨٥ ٠
(٥٨) ابن هلال الصابىء : رسوم دار الخلافة ، مطبعة العانى ، بغداد ١٩٦٤ ص ١٠ ٠
(٥٩) اسماعيل حسين حجارة : النقود المكتشفة فى ياسين تبه ، مجلة المسكوكات ، دار الآثار العامة ، العراق ، العدد ٦ سنة ١٩٧٥ ، ص١٧٢-١٠١ ٠
(٦٠) اسماعيل حسين حجارة ، المرجع السابق ، ص٨٦ ٠

واستنادا الى هذا الدينار نرى ان مدينة عمان فى سنة ٣٨٦هـ كانت تحت النفوذ البويهى بدليل أن الدنانير كانت تسك فيها باسم امراء بنى بويه، وعلى كل فقد كان البويهيون يعتنقون المذهب الشيعى وكانوا على اتصال بالفاطميين فسمحوا لدعاتهم بنشر عقائد مذهبهم فى بلاد العراق وغيرها من البلاد التى كانت خاضعة لنفوذ بنى بويه(٦١)٠ وهذا يؤكد وجود علاقات تجارية ومذهبية بين عمان والعراق والفاطميين فى الشام ومصر ، وخصوصا اذا علمنا ان المقدسى ذكر ان غالبية سكان عمان فى هذه الفترة شيعة(٦٢) ٠

ثم تغلبت الاتراك السلاجقة على بعض بلاد الشام وتمكنوا من اقامة امارات مستقلة لهم فيها ، من بينها دمشق وبيت المقدس وغيرها ، وبذلك اصبحت عمان والبلقاء والشراه تابعة لامارة دمشق السلجوقية(٦٣)٠

وفى فترة الصراع الصليبى فى بلاد الشام استمرت عمان أحدى مراكز البلقاء العمرانية بعيدة عن السيطرة الصليبية ، كما شهدت حركة جيوش نور الدين محمود زنكى بقيادة اسد الدين شيركوه الى مصر رغم اعتراض القوات الصليبية فى الكرك (بفتح الكاف والراء) والشوبك لها ومحاولتها النيل منها ولكنها فشلت فى مسعاها ، وتمكن نور الدين من احكام سيطرته على مصر واصبح صلاح الدين نائبه فيها، وبذا تكونت جبهة قوية ضمت القاهرة ودمشق تستطيع التصدى للفرنج فى مملكة بيت المقدس اللاتينية ٠

كانت امارة الكرك الصليبية فى منطقة شرقى الاردن الجنوبية تشكل حاجزا منيعا بين مصر والشام ، تمنع الاتصال وتجعله محفوفا بالاخطار وكان نور الدين محمود زنكى يرى سرعة مواجهة امارة الكرك وفتح الطريق امام العسكر وقوافل الحجاج والتجار ، خصوصا وان الطريق بين مصر والشام كان عن طريق الاردن الحالية فقط بعد استيلاء الفرنج على الساحل الفلسطينى كله ٠ فقر عزمه على توجيه ضربة قوية الى هذه الامارة ، وفى مستهل شعبان سنة ٥٦٥هـ (ابريل ـ نيسان ١١٧٠م) خرج على راس حشوده من رأس الماء

---

(٦١) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، ج٣ص١٠٢ـ١٠٣٠
(٦٢) المقدسى ، احسن التقاسيم ، ص ١٧٩ ٠
(٦٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٨ ٠
— Jacob History of Palestine P. 183.
p Ann Jordan P. 39.

بحوران قاصدا الكرك ، ثم وصلت جموعه الى البلقاء وخيم فى عمان عـدة ايام حتى استراحت قواته ، وقد نقل الينا المؤرخ ابو شامة ذلك عن العماد الكـاتب الذى كان مشاركا فى هذه الحملة حيث يقول : « ثم توجهنا الى بلاد الكـرك مستهل شعبان ونزلنا اياما بالبلقاء على عمان ، واقمنا على الكرك اربعة ايام نحاصرها ونحن بنا عليها منجنيقين(٦٤) » ، ولكن نور الدين لم يتمكن من فتحها فرفـع الحصـــار عنها وعـــاد الى دمشـق ٠

وبعد وفاة نور الدين زنكي اصبح صلاح الدين سيد الموقف فى مصر وبلاد الشام فنقل نشاطه الى دمشق لمقارعة الخطر الصليبى ، وفى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣م) خرج بقواته لحصار الكرك متبعا فى طريقه الزرقاء وعمان وحسبان، ثم خيم على الربة قرب الكرك وتقدم منها الى الكـــرك ونصب عليها سبعـــة مجانيق ضخمة ، ولكنه عاد ففك الحصار عنها لمناعتها وحصانتها(٦٥)٠

وبعد معركة حطين ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) واستسلام الكرك والشوبك دخـلت منطقة شرقى الاردن فى فلك الحكم الايوبى، فاقطع صلاح الدين الكرك والشوبك لاخيه العادل ، وبعد صلح الرملة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) اضاف اليه الصلت والبلقاء واشترط عليه ان يقدم كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل من البلقاء والصلت الى بيت المقدس ، وهذا يؤكد لنا غنى هذه المنطقة ووفرة غـــلاتها حتى اواخـــر القـــرن الســـادس الهجـــرى ٠

تشكلت امارة الكرك الايوبية المستقلة سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) بزعامة الملك الناصر داود ، وكانت تشمل الكرك واعمالها والصلت وعجلون والبلقاء والاغوار جميعها ونابلس واعمال القدس وبيت جبريل والخليل ، وهى جميـع الاراضى التى تتفق تقريبا مع المملكة الاردنية الهاشمية بكيانها السياسى الحالى(٦٦)٠

---

(٦٤) ابو شامه : الروضتين ج١ قسم ٢ ص ٤٦٤ ٠
(٦٥) ابن الاثير : الكامل ، ج١١ ص٥٠٢ ٠
(٦٦) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص٤٣٢ ، ابن أيبك ، كنز الدرر ج٧ ص ٢٩٥ ٠
ويقول اليونينى (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) « وابقى عليه قطعة كثيرة من الشام منها ، الكرك وعجلون والصلت ونابلس والخليل واعمال القدس ، لان القدس كان سلم الى الانبرور قبل ذلك (انظر : اليونينى : الذيل على مرآة الزمان ، ج١ ص ١٢٩ ٠)

ونتيجة للأمن والاستقرار الذى نعمت به الاردن فى هذه الفترة ، فقـد بقيت مدينة عمان زاهرة عامرة ذات تجارة يؤمها التجار من دمشق وبغداد وغيرها ، ومما يؤكد ما ذهبنا اليه ان الجغرافى والاديب ياقوت الحموى آمها فى تجارة لحساب سيدة فى بغداد .

وعند اجتياح قوات المغول بلاد الشام واستسلام دمشق ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) تقدموا الى منطقة شرقى الاردن فهدموا قلعة عجلون والصلت ، ووصـلوا الى زيزاء(٦٧) قرب عمان ، ومن المعتقد ان هذه القوات اقتحمت مدينة عمان ودمرت ما شاءت فيها من عمران وقتلت اعدادا كبيره من سكانها شانها فى ذلك شـان العـديد من مـدن بـلاد الشـام .

وبعد هزيمة المغول فى عين جالوت ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) اولى السلطان الظاهر بيبرس منطقة الاردن اهتمامه الخاص ، فاعاد بناء قلعتى عجلون والصلت التى دمرهما المغول . ولا شك ان مدينة عمان حظيت باهتمامه ، فاسبغ عليها من رعايته وازداد بذلك رخاؤها ومما يؤكد ذلك ان احد المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة واعنى به ابن شداد ، ذكر فى اعلاقه الخطيرة ان عمان هى مدينة البلقاء وانها مدينة كورة الظاهر التابعة لدمشق(٦٨) ، فهى فى اواخر القـرن السـابع الهجرى مدينة ومركـز لكـورة من كـور دمشق(٦٩).

ومنذ اوائل القرن الثامن الهجرى اخذت حسبان تنازع مدينة عمان وتنافسها فى زعامة البلقاء ، وشاركتها فى ذلك الصلت(٧٠). وعند منتصف القرن الثامن الهجرى عادت لمدينة عمان الصدارة واصبحت المركز الهام فى هذه المنطقة كما كانت سابقا،ففى عهد السلطان حسن بن محمد بن قلاون الثانية (٧٥٥-٧٦٢هـ) أولى نائبه الامير صرغتمش اهتماما خاصا بمدينة عمان ، وجعلها ام تلك البلاد فالمقريزى يقول : « ونقل اليها الولاية والقضـاء من حسبان وجعلت ام تلك البـلاد »(٧١) .

---

(٦٧) المقريزى : السلوك ج١ ص٤٢٤ .
(٦٨) ابن شداد : الاعلاق ، ج٣ ص٤١ ، ٢٧٥ .
(٦٩) حسبان : بضم الحاء واسكان السين المهملتين وفتح الباء وبعـدها الف ونون ، مدينة عمل البلقـاء لها واد واشجار وارحبـة وبساتين وزروع (القلقشندى : صبح الاعشى ، ج٤ ص١٠٦).
(٧٠) الصلت : بلدة لطينة من جند الاردن فى جبل الغور الشرقى فى جنوب عجلون على مرحلة منها (القلقشندى : صبح الاعشى ج٤ ص١٠٦) .
(٧١) المقريزى : السلوك ج٣ ص٣٠ .

اما عن الحركة العلمية بها فنجد الكثير ممن ينتسبون الى مدينة عمـــان والبلقاء منهم الحفاظ والمحدثون والفقهاء والادباء والقضاة ، تزخـــر بهم كتب التـــاريخ والتراجـــم العـــربية ٠

ومنذ القرن التاسع الهجرى اخذت حسبان والصلت تتنازعان زعامة البلقاء، وتحولت مدينة عمان مع الزمن الى قرية صغيرة ، وفى عهد الحكم العثمانى نزح اليها جماعات من الشراكسة(٧٢)٠ وبقيت على هامش الاحداث حتى مطـــلع القرن الحالى لتصبح عاصمة العمونيين عاصمة للمملكة الاردنية الهاشمية ٠

---

(٧٢) خير الدين الزركلى ، عامان فى عمان ، ص ٦ ٠

رؤية الحضارات القديمة ومظاهرها الاثرية
فى ضوء العلم الحديث وحضارة العصر الحالى

الدكتـــور / محمـد جمـــال الدين مختـــار
رئيس هيئة الآثار المصرية
والاستاذ غير المتفـرغ بجامعة الاسكندرية

ساتحدث اليوم فى موضوع تناوله المرحوم الاستاذ الدكتور/ احمد فكـرى بوجه عام عندما كان مندوبا دائما لمصر لدى منظمة اليونسكو وهـو موضـوع « رؤية الحضارات القديمة ومظاهرها الاثرية فى ضوء العلم الحديث وحضـارة العصر الحالى » ولقد بلغ اهتمامه ـ رحمه الله ـ بهذا الموضوع ان قـدم عـام ١٩٦٠ مشروعا تبناه بنفسه لانقاذ معابد ابى سمبل • وساتنـاول فى حديثى اليوم جانبا من هذا الموضوع الواسع وهو الجانب المتعلق بالحضارة الاسلامية •

ان آثار الحضارة الاسلامية سواء كانت من الحجر أو المعدن او الخشب ، وسواء اكتتبت على الرق او البردى او الورق ، هى فى الواقع الجذور التاريخية الممتدة فى الاعماق للامة الاسلامية ، وهى التعبير المادى الملموس عن حضارتها، والصـــورة الناطقة المعبرة لتاريخها ، والمثل الحسى لصفـــات الابداع الفنى والمعمارى والفكرى لتلك الحضارة ، والطابع المميز لتلك النهضة الخـــلاقة التى صنعتها الامة العربية وطبعتها بطابعها الخاص •

وتاكيدا لاهمية هذا التراث الخالد ، وخاصة فى المرحلة الحالية من حياتنـــا فاننا يجب ان نعنى به ونحاول صيانته والمحافظة عليه ، كما ينبغى ان نبذل جهودا مضاعفة متواصلة لمنحه حياة مستمرة متجددة ، ولتقديمه الى العالم من خلال نظرة موضوعية حديثة لا تمس اصالته وعراقته •

وسوف نتناول فى هذا البحث موضوعا يمس هذا التراث ، طارحا قضية هامة واساسية بالنسبة للحضارة الاسلامية باحثا ثلاث نواح هامة فيها :

الاولى : هى موقفنا من الاحياء والمدن العربية الاسلامية القديمة وما يجب ان نفعله فى سبيل اعادة تخطيطها وترميمها •

الثانوية : تتعلق باستخدام منهج الثقافة الحديثة والاساليب الفنية للعرض وكذا وسائل الحياة المتقدمة فى تلك المدن والاحياء ·

والثالثة : هى استخدم وسائل البحث العلمى والتسجيل الدقيق عند دراسة التراث العربى ، مستفيدين من منجزات العقل البشرى منفتحين على العـالم الحديث فيما يتعلق بكافة نواحى ذلك التراث ·

التطور والمحافظة على الطابع الاصيل للمدن والاحياء العربية :

عندما انبعثت الحضارة العربية من جزيرة بلاد العرب وغمرت اقطار العالم خلال العصور الوسطى كان من الضرورى لها اقامة مدن واحياء سكنية داخـل وخارج البلاد العربية ذات طراز وطابع خاص ، موحد تقريبا · وتعتبـر هـذه المواقع السكنية بطرقها وبيوتها ومنشئاتها وباسلوب الحياة المتبع فيها الآن، والذى يتمشى مع التقاليد والعادات الاجتماعية التى سادت العصـور الوسطى ثروة قومية ضخمة جديرة بالرعاية والعنايه ·

ولكن هذه العواصم والمدن والاحياء القديمة لا تناسب نماذج الحياةالحديثة ولا تتفق اساليب تخطيطها مع الاساليب الحديثة فى التخطيط ، فالطرق ضيقة غير مستقيمة لا تتناسب مع وسائل النقـــل الحـــديثة ، والبيوت والمنشئات محرومة فى كثير من الاحيان من المياه والكهرباء والمجارى ، وهى مكتظة بسكان لاتتوافر لهم اية رعاية صحية او اجتماعية سليمة وبعبارة اخرى فان تخطيطها بوجه عام لا يتمشى مع التطور العمرانى او العـــدالة الاجتمـاعية او المفاهيم الجديدة فى مجال الثقافة خاصة والحياة الحديثة بوجه عام ·

ونتج عن ذلك ان كثيرا من المسئولين ينظرون الى هذه المدن والاحياء على انها مواقع سكانية متخلفة ، ضارة أشد الضرر بسكانها ، مشوهة لوجه العدالة ومظهرها العام· ويطالب اصحاب هذا الرأى باعادة تخطيط تلك المدن والاحياء، وذلك عن طريق شق الطرق الواسعة ، وهدم المنازل الآيلة للسقـوط ، وازالة الاكوام والانقاض ، وانشاء العمارات الجديدة ، وادخال التحسينات واساليب الحياة الحديثة بها ، اى دمجها دمجا كاملا فى الحيـــاة المعاصرة اجتمـاعيا واقتصـــاديا وثقـــافيا ·

اما رجال الآثار فيعارضون مثل هذه الاراء ويعتبرونها فى كثير من الاحيان عدوانا على التراث الثقافى ويطالبون بالتمسك بكل ما هو قديم والابقاء عليه بحالته الراهنة ، لما لهذه المدن من مكانة تاريخية كبيرة وقيمة حضارية هـامة وطابع فنى فـريد ٠

ولذا فلا بد لنا من حل وسط يضمن التنسيق بين الرأيين ، وييسر الى حد ما القيام بالمشروعـات المقترحة للنهوض بتلك المناطق من ناحية ويحقق من ناحية اخرى مبدأ المحافظة على التراث التاريخى وطـابعه المميز ٠

وعلى ذلك ، فان هذا الحل سوف يهدف الى اهداف رئيسية متنوعة منها : هدف ثقافى حضارى يهـدف الى ابراز الدور المجيـد الذى لعبته تلك المراكز الحضارية ومن ثم جعلها مراكز اشعاع للحضارة العربية الخالدة ، وهدف أثرى يرمى الى المحافظة على التراث القومى وصيانته عن طريق ترميم الآثارالمعمارية وتقويتها وابرازها لتظهر فى اقرب صورة ممكنة الى ما كانت عليه ، ثم هدف اسكانى يرمى الى اتاحة المعيشة على مستوى يتمشى مع مستويات العصر الحديث للاسر التى سوف تسكن هذه المدن والاحياء القديمة ـ كذلك هناك هدف علمى يرمى الى دراسة التقاليد المعمارية وابراز مهارة اجدادنا فى التوفيق بين حاجات السكان من ناحية وما تقدمه البيئة من موارد وامكانيات من ناحيـة اخرى ، واخيرا هدف سياحى ترويحى يجعل هذه المدن عامل جذب وذلك عـن طـريق امدادهـا بالمغـريات السيـاحية ٠

وفى سبيل تحقيق هذه الاغراض يمكن اتخاذ خطوات تنفيذية منها انشاء لجان فى كل دولة عربية تضم مسئولين من ادارات الآثار وتخطيط المدن لاتخاذ القرارات اللازمة لاجراء أية تعديلات او اصلاحات او منجزات فى المدن والاحياء القديمة وفى المناطق المحيطة بها ودراسة كل ما يمس الطـابع الاصيل لتلك الاماكن التـاريخية أو الجـو السـائد فيها ٠

وهناك قواعد عامة يمكن ان تتخذ اساسا فى هذا السبيل منها ، الاقتصار على اعادة بناء الاجزاء القديمة من المبانى التى انهارت وقصر بناء اجزاء حديثة بدل القديمة التى فقدت ان كان بناء هذه الاجزاء ضروريا لتدعيم الاجزاء القديمة او لازما لاعطاء الاثر مظهره الاصلى العام ، وعلى ان يكون ذلك وفقا لدراسـة موثوق بها وفى اقل حيز ممكن ـ ثم الاحتفاظ بكافة المبانى القديمة السـليمة

بما فيها الاسوار والبوابات التاريخية ـ على أن يكون اى مبنى او جزء من مبنى يعاد بناءه مختلفا فى مظهره تماما عن الاثر او الجزء من الاثر الذى لم يرمم وذلك بتغيير نوع الحجر او لونه او ابرازه او غير ذلك من الطرق ـ مع عدم المساس بالاثر الذى لا يحتاج الى علاج او ترميم حديث ، كما يجب الاحتفاظ كلما امكن بالسطح الاثرى القديم (الباتينا) التى تكونت عليه بمرور الزمن فهى دليل على قدم الاثر واصالته ، ثم السماح بتزويد بعض البيوت الاثرية بوسائل الراحة الحديثة بشرط الا تمس الواجهات الخارجية لهذه المبانى وعدم اجراء تعديلات من الداخل الا فى اضيق الحدود . واخيرا يجب ان تخضع المبانى الحديثة التى ستبنى مجاورة للاثر لشكل يقارب طراز المبانى العربية القديمة ، وعلى ان يحدد ايضا ارتفاع المبانى الحديثة .

ومن بين هذه الوسائل الاهتمام بالمعمار العربى وتشجيع دراسته والاخذ ببعض نواحيه وذلك عن طريق انشاء مركز عربى لدراسة مشاكل المعمار العربى. والاهتمام فى كليات الهندسة واقسام العمارة بتاهيل المهندس المعمارى ليتخرج واعيا بالتراث العربى المعمارى وتاليف واعادة طبع الكتب المتعمقة عن العمارة العربية لتكون فى متناول المهندسين المعماريين وكذا الكتب المبسطة للتعريف بروائع الفن المعمارى العربى .

ويجب ايضا اعداد التجارب والبحوث لايجاد حلول للمشاكل الخاصة بكيفية المحافظة على بقايا الحضارة العربية وتدريب المتخصصين والمؤهلين للتخصص فى المحافظة على التراث الثقافى العربى وتبنى مشروع لاحياء التراث الشعبى العربى ودراسة طرق ربطه بالانماط الجديدة للفنون مثل المسرح والسينما وكافة الوسائل السمعية والبصرية .

استخدام اساليب الثقافة وطرق العرض الحديثة :

تهتم الثقافة فى اسلوبها الحديث بالارتباط بالمجتمع ارتباطا تاما ودفعه بكافة المغريات والوسائل الى الاستزادة من النواحى الثقافية والتعلق بها . وقد ابتكر عصرنا الحاضر من وسائل الايصال السمعى والبصرى بالجماهير العريضة ما لم يكن موجودا من قبل كالاذاعة والتلفزيون والسينما والمجلة والكتاب والصورة وغيرها .

ومن بين هذه الاساليب الحديثة ادخال مشروعات الصوت والضوء فى المناطق الاثرية الهامة وقد تم ذلك فى مصر فى ثلاث مناطق ـ احداها منطقة

قلعة صلاح الدين الايوبى بالقاهرة مستخدمين فى ذلك الاضاءة المتغيرة والموسيقى العربية والاداء المسرحى ٠

وتقوم مشروعات الصوت والضوء على اساس اضاءة المنطقة الاثرية المختارة بشكل يكون لوحات ضوئية فنية ، فى حين يقوم بشرح تلك الآثار وسرد تاريخها بوجه خاص وتاريخ الامة بوجه عام وبلغات مختلفة اشخاص قادرون على الالقاء اللغوى القوى المؤثر ، وبمصاحبة انغام موسيقية هادئة ٠

وتساعد مشروعات الصوت والضوء على استكشاف خبايا العصور الماضية واخراجها من الظلام الى النور ، وعلى سماع اصوات الزمن الغابر وقصصه التاريخى ومنجزات الاوائل فى مشاهد تبدو واضحة تحت انوار الكشافات ناطقة معبرة بقوة المؤثرات الضوئية ، قادرة على تحقيق جاذبية خاصة وقدرة عالية على الاقناع واثارة الانفعال وعلى ربط المشاهد عاطفيا وفكريا وروحيا بحضارة العرب الامجاد ٠

ومن نواحى الربط بالمجتمع مثلا استخدام بعض البيوت الاسلامية القديمة فى مشروعات ثقافية كانشاء مراكز للفنون الشعبية بها تعمل على ربط القديم بالجديد وعلى تاكيد احتفاظ الفن باصالته على الدوام مهما مضى عليه من زمان ، ثم تشجيع اصحاب الحرف والصناعات على تذوق الفن العربى الاصيل مع السماح لهم باستخدام هذه الفنون استخداما حديثا وتطويرها بعض التطور ٠ كذلك يمكن تحويل بعض البيوت الاسلامية الى مراسم للفنانين، يستزيدون فيها مما ابدعه الفنانون العرب فى الماضى ويتبعون خطاهم ويعملون على خلق فن حديث متاثر بالقديم ، كما يمكن تحويل بعض المنازل والقاعات الى صالات للمحاضرات واللقاءات العلمية والاجتماعية ، ومتاحف تعرض فيها مخلفات الحضارة العربية عرضا متحفيا حديثا ، او اماكن معدة لاقامة حفلات للموسيقى العربية والشرقية او لعرض خيال الظل والقراقوز والتمثيليات العربية كالتى خلدها ابن دانيال من القرن الثامن عشر للميلاد بمصر ٠

ويقابل هذا من ناحية اخرى مشروعات لازالة الاتربة والرمال والاحجار المتراكمة وتنظيف الاحياء القديمة واعدادها اعدادا يتفق مع وضعها وظروفها وازالة مايمكن ازالته من المبانى الحديثة بها وزرع الحدائق والنباتات بها وحولها ٠

استخدام وسائل البحث العلمي والتسجيل الدقيق :

مما لاشك فيه انه يجب الاهتمام بالنواحي العلمية الحديثة حيث نتناول الآثار العربية بالتسجيل او الدراسة او العلاج او غير ذلك من المتطلبات العلمية اذ يجب هنا ان نجدد وسائلنا وطرقنا لنؤكد اصالة هذه الآثار ونزيد من تفهمنا لها ٠

ففي ناحية التسجيل العلمي يجب تصوير الآثار المعمارية الاسلامية تصويرا فوتوجرامتريا وجويا وتصوير الجدران الحديثة وباستخدام الصوديوم ومختلف انواع الاشعة للكشف عما تحويه او تخفيه نقوش هذه الجدران ٠

وعندما نفحص الآثار المنقولة نستجلي اسرار الماضي التي تخفيها، يجب ان نعتمد على الطرق العلمية الحديثة كالفحص الميكروسكوبي الالكتروني والتحليل الكيمائي والطيفي واستخدام الامتصاص الذرى ، والتصوير بالاشعه وغير ذلك من الوسائل العلمية ٠

وعند علاج وصيانة الآثار يجب استخدام طرق التحليل الكهربائي والالكتروني والتصوير باجهزة الاشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء واستخدام كبائن التبييض والتعقيم ٠

اما عن استخدام العلم للكشف عما في باطن الارض من آثار فيستخدم التحليل الكيمائي لعينات التربة ، والطرق الجيوفيزقية الحديثة وذلك عن طريق استخدام الموجات الكهربائية والمغناطيسية والصوتية وموجات الراديو المرتدة ٠

اما تقدير عمر الآثار فيمكن استخدام طريقة الكربون ١٤ المشع، والحلقات السنوية للاشجار ، كما يمكن تقدير عمر الفخار بالطريقة المغناطيسية وطرق التالف الحضاري ٠

ويمكن في جميع هذه الابحاث والتجارب استخدام العقل الالكتروني على نطاق واسع وخاصة في العمليات المتعددة الامثلة ، الكثيرة العينات والنماذج ٠

خلاصة القول ان آثار الحضارة الاسلامية بكافة نماذجها وانواعها وطرزها تلزمنا على العمل جاهدين في الابقاء عليها وصيانتها وحمايتها مع تحسين طرق استخدامها ووسائل عرضها واساليب التعرف عليها لما فيها من روعة وعراقة وابداع ، مع استخدام العلم الحديث والتكنولوجيا المتطورة والثقافة العصرية

والعمل على ادماجها فى حياتنا الحالية وربطها بتخطيطنا الحالى وخططنــــا المستقبلة •

ان العالم العربى لا يزال الى حد كبير يعيش ازمة تمتد جذورها الى الوقت الذى انغلق فيه على نفسه وانعزل رغم انفه عن الحضارة الحديثة ، وتقــوقع من حيث الزمان والمكان، ولذلك فلا مخرج لنا ، الا اذا انفتحنا على العالم وافدنا من التقدم الحديث فىكافة المرافق مع التمسك بالاصـــالة الحضارية الحقيقية ورفع حصارها وربطها بحاضرنا الحى ومستقبلنا المشرق ، على ان يهمل فى نفس الوقت جوانب سطحية ومظاهر فرعية من تراثنا العربى الانسانى تمثل اصـــالة زائفـــة •

دكتــور جمــال مختــار

النظام السياسي عند الحفصيين

أ ـ الخـلافة ـ الامارة

الاستاذ صالح ابودياك

اختلف النساب فى نسب أمراء بنى حفص ، فمنهم من ارجعهم الى عمر ابن الخطاب كابن نخيل ، الذى يعتبر اول كاتب لديوان الدولة الحفصية٠(١)

ومنهم من ارجع نسبهم الى قبيلة هنتاتة ، التى تعتبر من اهم قبـائل المصامدة على وجه الخصوص ، ومن اكبر قبائل البربر فى المغرب على وجـه العمـوم ٠

وموطنها بجبال درن المتاخمة لمراكش ، ويقال لها بالبربرية «بنتى»(٢)٠

والملاحظ ان انتحال الخلفاء للانساب ، اصبح سنة متبعة في هذه العصور، فها هو عضد الدولة البويهى يهدد ابا اسحاق الصابئى ، بان يلتمس له نسبا عربيا فلا يرى الا نسبته الى بنى صبـه(٣)٠

وهاهـو ابو حفص عمر ، ينتسب الى عمـر بن الخطـاب ، فيسمى بالعمرى(٤) ، ويلقب (بازناج او احناق)(٥) ، وهو الذى يعتبر من اكبر شيوخ جبل المصامد واكثرهم مكانة ٠ واليه يرجع الفضل فى دعوى قبيلته الى اتباع المهدى بن تومرت ومناصرته ، عندما اعلن مهديته سنة ٥١٥هـ/١١٢١م(٦)٠

---

(١) ابن خلدون ، تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب ، جـ١ ص٣٧٤ ، احمـد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص٣٩ ٠

(٢) ابن خلدون ، تاريخ الدول جـ٢ ص ٢٩٩ـ٣٠٠ ٠

(٣) الصابئى ، رسوم الخلافة ص١٢٢٠ ، عبد العزيز الدورى ، مقـدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى ، ص ٩٥ ، دراسات ص١١٨٠

(٤) القـلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٧ ص ٣٧٧ ، محمـد البـاجى المسعودى ، الخلاصة النقية ، ص٥٦٠

(٥) ابن قنفذ ، الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ص٢١٤ ، ٦ ٠

(٦) السلاوى ، الاستقصاء جـ٢ ص٩٢، الزركشى، تاريخ الدولتين ص٢٤٠

وبحكم مكانته الاجتماعية ، وحسن اخلاصه للمهدى وتعاليمه ، اعتبر من العشرة الاوائل، اذ كان ياتى بعد عبد المؤمن فى المنزلة من غير منازع، ويشترك معهما فى الالقاب الرئاسية • فبينما كان المهدى يسمى بالامام ، وعبد المؤمن بالخليفه كان يسمى هـو بالشيخ(٧) •

ومما يدل على أهميته ، ان عبد المؤمن توقف عن تسمية نفسه بالخلافة لمدة ثلاث سنوات ، حتى بايعه ابو حفص بقـوله : « نقدمك كما كان الامـام يقدمك»(٨) • وبقوله هذا ، امضى عهد الامام بتقديمه وجعله سـارى المفعـول بحمـل المصـامدة على طـاعته •

وبلغ من احترام عبد المؤمن له ، وحسن تقديره اياه ان كان يأخذ برأيه فى كل مشكلة من مشاكل الدولة ، والاكثر من هذا ان اشرك اولاده من بعـده فى الامارة على الاندلس وافريقية مع السادات من اولاده(٩)•

وممن عين على ولاية افريقية فى زمن الخليفة الناصر بن منصور الموحدى، ابو محمد عبد الواحد بن الشيخ ابى حفص الهنتاتى سنة٦٠٢هـ/١٢٠٦م(١٠)•

وقد اوصى الخليفة المنصور قبل مماته ، ابو محمد بابنه الناصر وباخوته ووثق الخليفة الناصر به ، كما وثق به من قبل ، فكـان يوليه الصـلاة ان كان مشغـولا(١١) •

كل هذا وابو محمد عبد الواحد يمارس شئون الرئاسة عمليا ، دون التلقب بالقابها • ولما حصل الانقلاب الخطير فى الدولة الموحدية ، قام المامون بقتـل عدد كبير من الموحدين ، خـاصة من هنتاتة وتينملك ، فكان من بين القتلى ابو عبد الله المخـلوع واخيه ابراهيم ، اخـو ابى زكريا بن ابى محمد ابن عبد الواحـد •

يضاف لهذا استنكار المامون لعصمة المهدى والغاء مراسيمه منها :

---

(٧) الفارسية ص١٠٣ •
(٨) ابن خلدون ، تاريخ الدول جا ص ٣٧٤ •
(٩) السلاوى : الاستقصا ، ج٢ ص ١٠١ ، ابن خلدون جا ص ٣٧٦•
(١٠) الاستقصا ، ج٢ ص ٢١٦ •
(١١) ابن خلدون : تاريخ الدول جا ص٣٧٨ •

وضع العقائد والنداء للصلوات باللسان البربرى ، واحداث النداء للصبح، وتربيع شكل الدرهم الذى جعلوه مدورا ، واسقاط اسمه من الخطبة والسكة ، وتبديل اصول الدولة(١٢) كل هذا دفع الامير ابو زكريا لاعلان الانفصال عن دولة الام ، والتلقب بالامير الى جانب لقبه بالامام والمولى ، وهما لقبان من الالقـاب السلطـانية ـ ايضـا(١٣) .

واتخذ ـ الامير ـ تونس حاضرة له ، وكتب العلامة بيده وهى (الحمد لله والشكر لله)(١٤) ورفض كتابة اسمه الا بعد ان جددت بيعته سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م، على لفظ الامير بعد ذكـر اسم الامام .

وسميت دولته منذ ذلك الحين بالدولة الحفصية ، وان اطلق عليها احيانـا اسم العمرية او الفاروقية ، تاكيدا لنسبهم واعتزازا به .

ويظهر هذا الاعتزاز فى مدح عدد من الكتاب والشعراء لهم بهـذه التسمية ومنهم ، ابن خلدون الذى نظم قصيدة يمدحهم بها قـوله .

قـوم أبو حفص اب لهم وما ادراك والفاروق جد أول(١٥)

وبقى أبو حفص مكتفيا بلقب الامير ، حتى آخر عهده ، ودليل ذلك زجره للشـاعر الـذى مدحـه بقـوله :

الاصـل بالامير المؤمنينـا فانت بها أحق العالمينـا(١٦)

ولعل الزجر يرجع لكتمانه ، وحرصه على عدم ظهور ما بنفسه ، وممـا يؤيد هذا قول الزركشى : « وسمى نفسه بالامير ، وكتب فى صدور كتبـه ، ولم يتعرض لذلك فى الخطبة سياسة منه واختبارا لاحوال افريقيا ، فلمـا لم ير منهم انعادا استبد استبدادا تاما ، وعقد لنفسه البيعة التـامة سنة٦٣٤هـ ١٢٣٦م(١٧) .

---

(١٢) ابن خلدون ، تاريخ الدول جـ١ ص٣٤٣ ، الاستقصا جـ٢ ، ص٢٣٨.
(١٣) الزركشى ، تاريخ الدولتين ص ٢٧ .
(١٤) نفسه ، ص٢٥ ، مستودع العلامة ص١٠ .
(١٥) Brunschvig : Laberérie Oriental Sous les Hafsides Tome, 2,p. 18.
(١٦) ابن خلدون ، تاريخ الدول جـ٢ ص٣٨٥ ، الزركشى ص٢٧ .
(١٧) نفسـه ص٢٤ .

واستقل الامير ابو زكريا فى حدود دولته ، هو ومن تبعه من حفدته ، فكانت حدودها تشتمل على الاراضى المسماة اليوم بطرابلس الغرب فى ليبيا والجمهورية التونسية ، وجزء كبير من الجمهورية الجزائرية الذى يشمل عنابة وقسنطينة وبيجاية وندلس غربا المسماة حاليا بجلس وما بعدهـا ورقلة فى الصحـراء جنـوبا(١٨) ٠

ويقدر طول هذه المملكة بمقدار خمسة وثلاثون يوما ، وعرضها عشرون يوما٠ وقد اقتدى امراء بنى حفص بسنن الدولة الموحدية، فعملوا بالاصول دون الفروع متاثرين بتعاليم امامهم المهدى ابن تومرت ، وباستعمالهم البربرية الى جانب اللغة الرسمية ــ اللغة العربية ــ ويبين الجزنانى فى كتابه « جنى زهرة الاس، ص ٥٦» مقدار اهتمام اسلافهم باللسان البربرى ٠ فيقول ــ انهم ــ الموحدين ــ كانوا لا يقدمون للخطبة والامامة الا من يحفظ التوحيد باللسان البربرى ٠

وقبل وفاة المولى الامير ابى زكريا ، تولى ابنه المستنصر ابى عبد اللـه محمد الحكم سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، لا بد لنا ان نستعرض الحالة السياسيـة فى الوطن العربى بشقيه المغرب والمشرق مع بيان الاسباب الدافعة لابى نمى شريف مكة وللاقطار العربية الاخرى التى ارسلت البيعة للدولة الحفصية ٠

فكانت الدولة الحفصية على علاقات حسنة مع جيرانها ، فى الوقت الـذى كانت بغداد تحتضر بسبب الغزو التترى عليها(١٩)٠ وكان شرفـاء مكة عـلى خلاف مع مماليك مصر ، الامر الذى ساعد على ارسال ابن نمى بيعته للخـليفة الحفصى بانشاء ابن سبعين الصوفى نزيل مكة ، وارسالها مع المحدث الرواية ابى محمد بن برطلة الازدى الاشبيلى(٢٠) ٠

ووردت بيعة اهل بلنسية فى الاندلس ، لابى زكريا بن محمد بن الشيخ ابى حفص ، من صاحبها زيان بن مردنيش سنة ١٢٣٨/٦٣٦م ، مـع وفـد برئاسة كاتبه ابن الابار ، طالبا منه النجدة ضد الفرنجة بالاندلس(٢١)٠

---

(١٨) صبح الاعشى ص٣٧٦ ، العمرى مسالك الابصار ص٢ ، عبدالرحمن محمد ــ الجيلالى ، تاريخ الجزائر العام ج٢ ص١١ ، مبارك محمد ــ الميلى ، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ، ج٢ ص ٣١ ٠

(١٩) ابن خلدون ، تاريخ الدول ج٢ ص ٤٢٧ ٠

(٢٠) ابن خلدون المقدمة ج٢ ص٥٨٥ ، على ابراهيم حسن ، دراسـات فى تاريخ المماليك ص١٣٧ ٠

(٢١) الزركشى ، تاريخ الدولتين ص٣٧ ٠

وقد انشده ابن الابار قصيدته السنية المشهورة :

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ماالتمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا(٢٢)

وفى سنة٦٤٣هـ/١٢٤٥م ، وصلت بيعة اشبيلية ، ثم تلتها بيعة المرية سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ، ثم تتابعت البيعات الاخرى من شريش وطريف وسبته وقصر ابن عبد الكريم وسجلماسة(٢٣) ٠

وفى سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م ، بايع بنومرين الدولة الحفصية واعلنوا لها الولاء ، فاوفد الامير ابو يحيى بن عبد الحق بيعة اهل فاس مع وفد من مشيخة بنى مرين ، فكان لها اكبر الاثر فى نفس السلطان المستنصر بالله ابى زكريا وفى نفوس رجال دولته ، وعامل الوفد بالبر والكرامة ، كل على قدره ، ورجعوا مسرورين الى الامير ابى يحيى بن عبد الحق(٢٤) ٠

وفى سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م ، قال المرينيون بمناورة سياسية عند قضائهم على الدولة الموحدية واستيلائهم على الحاضرة مراكش بمقتل ابى دبوس آخر خليفة موحدى ، فاعلنوا تجديد طاعتهم للحفصيين ، وتمسكهم بالبيعة لهم ، تهدأة لخواطر الموحدين الموجودين فى المغرب واستجلابا لرضائهم ، ولمن تبعهم من اهاليه(٢٥) ٠

اما الامراء الحفصيون ، فلم يعلنوا عن تلقبهم بالخلافة رسميا الا بعد سقوط بغداد سنة٦٥٧هـ/١٢٥٨م عند ذلك اعلنوا عن خلافتهم لسد الفراغ الذى حصل فى العالم العربى خاصة والاسلامى عامة(٢٦) ٠ واكتفى المستنصر وابوه من قبله بذكر لقب الامير على السكة والمكاتبات السلطانية ، الا انهم بعد هذا الحدث ، وهو سقوط بغداد وبيعتهم بالخلافة ، حرص المستنصر ومن جاء بعده على ذكر القابهم فى السكة والمكاتبات الرسمية ، والدعاء لهم على المنابر من الحجاز شرقا الى المغرب والاندلس غربا(٢٧) ٠

---

(٢٢) الزركشى ، ص٢٧
(٢٣) ابن خلدون العبر ج٦ ص٦١٤ ، ٦١٧ ، الفارسية ص٢٢٥ ٠
(٢٤) ابن خلدون ج٦ ص٦٥١-٦٥٢ ٠
(٢٥) نفس المصدر والصفحة ، الزركشى،ص٣٩،والاستقصا ج٣ ص٢٨-٢٩
(٢٦) ابن خلدون ، تاريخ الدول ج١ ص ٤١٧-٤٢٨ ٠
(٢٧) الفارسية ص١٢٥ ، دراسات ص١٢٥ ٠

وصارت العاصمة تونس مركـــزا اساسيا وثقافيا هاما لجذب السفـراء والعلماء من مختلف انحـــاء العـــالم .

وهذان نموذجان من الكتابة ، الاول قبل التسمية بالخلافة سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م والثـــانى بعد التسمية بها .

نمـــوذج قبـــل التسميــة :

من الامير ابى زكريا بن محمد بن الشيخ ابى حفص .

من الامير محمد بن الامير ابى زكريا بن ابى محمد ابن الشيخ ابى حفص(٢٨)

امـــا نمـــوذج بعـــد التسميـــة :

فيحتوى على القاب عديدة منهـــا ...

قدوة الموحدين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، المتـــوكل على الله . احمد بن مولانا الامـــير ابى عبد الله بن مولانا امير المؤمنين ابى يحيى من الامراء الراشـــدين(٢٩) .

واستمر الامر على هذا الحال . حتى انتهاء القرن السابع الهجرى ضعف امر الخلافة الحفصية ، وتوقف امر الدعاء لها فى المغرب والاندلس ثم مالبثت ان دبت الحروب الاهلية بها ، وانفصل عنها الثغر الغربى ـ ببجاية ـ وتلقب صاحبه بالمنتخب لاحياء دين الله ذهيبا ونادبا مع الحضرة(٣٠) .

بيد ان الامر لم يتوقف عند هـذا الحـــد فاستقلت طرابلس عن السلطنة واصبح بها (مجلس مشيخة) ، يرأسه نائب عن سلطان الحضرة ، لكن النفوذ الحقيقى بيد رئيس المجلس ، الذى يقوم بتنفيذ اعماله دون الرجـــوع الى السلطـــان .

---

(٢٨) الفارسية ، ص ١٢٣ .

(٢٩) صبح الاعشى ج٧ ص٣٧٨ـ٣٨٠ .

(٣٠) ابن خلدون ، تاريخ الدول ج٢ ص ٤٦٦ ، الفارسية ص١٠٨ .
Brunschving Tome, I P. 76.

ويتضح مما تقدم ، ان هذه الخلافة لم تسد الفراغ الروحى الذى تركته خلافة بغداد ، ولم يكن لها ما كان لخلافة بغداد من تاثير نفسى ، لـذا بقى نفوذها ضعيفا ومحدودا ٠

ب - ولاية العهد

سلك الحفصيون مسلك الموحدين فى تعيين الولاة ، فكانوا يرشحون من كان اهلا لها من ابناء الاسرة الحاكمة ، وممن عرف بالصلاح والتقى ٠

وجرت العادة ان يعين الوالى من قبل الامير ، فيمارس شئون الحكم فى جلوسه مع الخاصة والعامة ، بل ويوكل اليه كتابة العلامة فى الكتب ، ويعين فى احدى الولايات الهامة(٢١) ويبعث بالقاب الاماره ، ويذكر اسمه بجانب اسم الخليفة فى الخطبة وتبايعه الاسرة الحاكمة ثم رجال الدولة بما فيهم اطر الجيش والعامة وتسجل البيعات فى سجل خاص وهو المسمى بالارسميه اليوم(٢٢) ٠

وفى سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م عين الامير ابو زكريا ابنه ابا يحيى على ولاية بيجاية وخول له معظم الصلاحيات فى سائر اعمالها من بونة وقسنطينة والجزائر والزاب

وامتاز ابو يحيى بحسن الكفاءة وسعة العلم وكثرة الورع وحب العدل فكان معظم جلسائه من اهل التقى والدين ٠

وجرت العادة ان يوصى الخليفة ولى عهده بعدة وصايا يتخذها كنبراس له يهتدى بهديها ٠ فقد اوصى الامير ابو زكريا ابنه ابا يحيى بوصايا عدة منها:

١ - المحافظة على اقامة شعائر الاسلام فى اتباع اوامر الله واجتناب نواهيه ٠

٢ - تفقده للجيش وحسن معاملته لافراده حسب درجاتهم ، فلا يلحق السفيه بالكبير ، فيجرىء السفيه عليه ، ويفسد نية الكبير ، فيكون احسانه مفسدة له فى كلا الوجهين ٠

---

(٢١) الفارسية ص١٦٥ ٠

(٢٢) الزركشى ، ص٣٣-٣٤ ٠

٣ ــ اوصاه الامير بعدم الجزع عند حدوث الملمات ، لان الجزع يؤدى الي القلق والاضطراب ، وبالتالى الى الفشل فى معالجة الامور ، لذا عليه انيعالجها بالصبر والاتزان مع استشارة النبهاء ، وذوى التجارب من قادة الجيش.

٤ ــ ان يحسن اختيار مستشاريه ، ممن اتصفوا بصدق القول والاخلاص فى العمل ، وان لايقتصر فى استشارتهم على احد منهم دون الآخر، بل ياخذ بآرائهم جميعا ، فان فى تعدد الآراء هداية لمعرفة الصواب .

٥ ــ عليه ان يتفقد احوال رعيته ، ويراقب العمال والولاة فى اعمالهم، ويبحث عن سيرة القضاء وعن احكامهم ، ومهما دعى للكشف عن ملمة فليكشفها، ولا يراع فى حكمه احداً اذا زاغ عن الصواب ، ولا يقتصر على شخص واحد فقط فى رفع مسائل وحوائج المتظلمين من ابناء رعيته .

٦ ــ اوصاه بالتواضع والصفح عن الهفوات ، لانهما انجحا الطرق فى معالجة الامـــــور .

٧ ــ ان يعاقب بشدة كل مفسد عابث فى طرقات المسلمين واموالهم ، متماد فى غيه فى فساد صلاحهم واحوالهم ، ومثل هذا ليس له الا السيف .

اما الحسود فعليه ان لا يتقبل عثرته ، لان فى اقالته مايشجعه على القول ، والقول يدفعه الى العمل ، ووبال عمـــله يضر بغيره ، فليحسم داءه قبل انتشاره ويتدارك امره قبل أظهاره .

٨ ــ عليه ان يزهد فى الدنيا ، فلا ينشغل بلهوها وزينتها بل يعمل الاعمـال الحميدة المشكورة التى تخلد ذكراه فى الدنيا ، وينال بها مرضـاة اللـه فى الآخـــــــرة(٣٢).

وها هى نبذ من نص الوصية التى اوصى بها الامير أبو زكريا ولـده ابـا يحيى على ثغر ببجاية. « أعلم سددك الله وارشـــدك ، وهداك لما يرضيـــه واسعدك ، وجعلك محمود السيرة ، مأمون السريرة ... الى ان يقول : «ومتى

---

(٣٢) ابن خلدون ، تاريخ الدول ج١ ، ص٤٠٦ ــ ٤٠٨ .

فاجاك امر مقلق او ورد عليك نبأ مرهق ، فريض لبك وسكن جاشك ، وادع عواقب أمر تاتيه ، وحاوله قبل أن ترد عليه وتغشيه.... ومتى عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين(٣٤).

نستنتج مما تقدم مقدار حرص الامراء على حقوق الرعية ، ورعاية احوالها، وحسن اختيار امرائها وولاتها ، لانه فى صلاح الراعى صلاح للرعية .

الا ان هذا النهج لم يعمل به دائما ، فكثيرا ما كان يولى الولى ثم يخلع ويستبدل بولى آخر ، خاصة فى اواخر الدولة ، وقد بلغ الحد بامراء بنى مرين، انهم كانوا يولون من رغبوا من الامراء ولو بالقوة ، مثلما حصل مع الخليفة ابى العباس احمد ، واحتلال السلطان ابو الحسن المرينى لتونس.

ومن العوائد الجارية عند امراء بنى حفص، ان يفرق الامير الجديد الاعطيات والجوائز ، ويتفقد الدواوين ويرفع المظالم ، ويحط المغارم والمكوس . ويسرح المساجين ويحسن الى الجند .

وقد يقوم ببناء عدد من المساجد وغيرها من الاعمال الخيرية تخليدا لذكراه(٣٥).

جـ ـ الوزارة والحجابة

نهجت الدولة الحفصية فى تنظيم وزارتها ، نفس النهج الوزارى للدولة الموحدية . فانقسمت الى قسمين ، ارباب السيوف ، وارباب الاقلام(٣٦).

ارباب السيوف : ، هم : وزير الجند ، وهو المسئول عن الجند والمختص بالشئون الحربية ، وفى بعض المهام الاخرى كالجباية والتنفيذ .

ونظرا لاهمية منصبه ، فقد كان يشترط ان يكون من [illegible]بة الموحدين ،

---

(٣٤) ابن خلدون ، تاريخ الدول ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٨ .
(٣٥) الزركشى ، ص ٤٢ .
(٣٦) صبح الاعشى جـ٥ ص١٣٩ ، ابن الشماع ، الادلة البينة النورانية، ص١٧٨ ، الزركشى ص١٣٤ ، دراسات فى تاريخ المغرب ، ص ١٨٣ .

ويعتبر منصبه بمثابة منصب رئيس الوزراء او الوزير الاول ، له من الالقاب ما يدل على علو مكانته ، منها الشيخ، او رئيس الدولة ، او صاحب الدولة(٢٧) .

وكان ينوب عن السلطان اثناء غيابه عن الحضرة ، ويجلس بين يديه في مجالسه مع اشياخ الدولة والمشورة .

- وزير الاشغال ، وهو المختص بالشئون المالية ، ويسمى بوزير المال - وكما يقول عنه ابن خلدون - : المختص بالحسبان ، وبالنظر المطلق في الدخل والخرج ، ويحاسب ويستخلص الاموال ويعاقب على التفريط .

وكان يعين لهذا المنصب في بادىء الامر ، واحد من عصبة الموحدين(٣٨) ، ثم شغله اناس من ذوى الاختصاص من اهل البلاد ، وغيرها من البلدان الاخرى، امثال ابى العباس احمد اللياني(٣٩) على عهد الخليفة المستنصر بالله(٤٠) .

وربما كان من الموالى امثال المملوك مدافع ، الذى ولى هذا المنصب على عهد السلطان الواثق بالله بن المستنصر .

الا ان اغلب من تولوا هذا المنصب ، كانوا من الاندلسيين لاتقانهم اكثر من غيرهم فن المحاسبة . من هؤلاء : ابو عثمان سعيد بن ابى الحسين الذى ينتمى لاسرة بنى سعيد المشهورة بهذه المهنة ، وموطنها بقلعة يحصب بجوار غرناطة .

وقد ولى - المذكور - هذه الخطة في زمن السلطان المستنصر بالله وابنه، وهو الذى اخذ البيعة للاخير سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م (٤١) .

ومنهم ابو بكر بن محمد بن خلدون ، جد المؤرخ ابن خلدون الذى كان واليا لها في عهد الخليفة ابى اسحاق بن الواثق . وغيرهم كثيرون أمثال، محمد بن يعقوب ، وابو القاسم بن الطاهر ومن سوء حظ متولي هذه المهنة انه

---

(٢٧) نفى برونشفيج فى كتابه (بلاد البربر فى العهد الحفصى) ج ٢ ص٥٣-٥٤ وجود منصب الوزير الاول عند الحفصيين .
(٣٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ج٢ ص٦١١ .
(٣٩) كان اصله من ليانه ، احدى ضواحى المهدية ، انظر الزركشى،ص٣٦ .
(٤٠) دراسات فى تاريخ المغرب ، ص٨٦ .
(٤١) الزركشى ، ص ٤١ .

كان عرضة للقتل والسجن لاتهامه دائما بسرقة الأموال • وممن اتهموا بهـذه التهمة ، صاحب الاشغال احمد اللياني الذى قتله الخليفة المستنصر وصـادر امواله سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م ، وابوعثمان سعيد بن ابى الحسين الذى قتله الواثق وصادر امواله سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧م(٤٢)•

وابو بكر محمد بن خلدون ، الذى قتله مغتصب العرش ابن ابى عمارة سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م(٤٣)•

واستمر هذا المنصب بنفس التسمية الى عهد السلطان ابى فارس عبدالعزيز او عزوز سنة ٧٩٦-٨٣٧هـ - ١٣٩٣ - ١٤٣٣م ، فقد حصل تغيير فى تسمية صاحبه ، فسمى بالمنفذ بدلا من وزير الاشغال ، لانه اختص بالجباية والتنفيـذ مى الدولة ، وصـار يختـار لهـذا المنصب رجـلا من رجـال الموحـدين، بعد ان كان يتولاه من يتقنـه(٤٤)•

- وزير الفضل او كاتب السر ، وهو المختص بديوان الانشاء الذى يتولى المكاتبات والاوامر السلطانية ، وكذلك كتابة العلامة ، وهى جملة او عبـارة للتوقيع التى تضاف الى هذه المكاتبات ، ثم ترفع الى السلطان ليضع خـاتمه عليها ، والى جانب هذا كان له حق الاشراف على ارباب العلم وسائر فنـون الفضل ، ولهذا سمى بوزير الفضل(٤٥)•

ولم يشترط الحفصيون به ان يكون من الموحدين ، او ممن له صلة قـربى بهم ، ولعل السبب فى ذلك - كما يراه ابن خلدون - يرجع الى رطانة السنتهم وما يغـلب عليهم من العجمـة •

ولذا ولى هذه الخطة شانها كشان غيرها من الخطط عدد كبير من الاندلسيين ممن يجيدون هـذا الفـن من الكتـابة •

---

(٤٢) نفسـه ص ٣٦ ، ٤١ •
(٤٣) نفسـه ص٤٧ •
(٤٤) ممن تولى هذه الخطة فى زمنه ، ابو عبد الله محمد بن قاسم بن قليل الهم المتوفى سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م •
(٤٥) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ٢ ص٦١٩ ، Brunschvig Tome I :,P. 72.

وبالاضافة الى مهامه المذكورة ، اوكل اليه فى كثير من الاحيان ، حق الاشراف على مكتبة القصر الملكى ، والنظر فيما تحتاج اليه من كتب ٠

وممن اوكل اليهم حق الاشراف عليها فى زمن السلطان ابو زكريا يحيى الاول ، الحسن بن معمر الهوارى الطرابلسى ، الذى ابعد عنها فى زمن الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م(٤٦) ، ثم اعيد اليها فى زمن ابنه الواثق سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م(٤٧)٠

٢ ـ **شيخ الموحدين** : وهو نائب السلطان ، ويسمى بـ (الشيخ العظيم) ، ويطلق عليه لقب المزوار ، وهو الذى يقوم بعرض الموحدين وتفقداحوالهم، ومن البديهى ان يكون صاحب هذا المنصب من الموحدين انفسهم ٠

٣ ـ **اهل المشورة** : وهم ثلاثة من اشياخ الموحدين ، يجلسون بمجلس السلطان للراى والمشورة ، فيجلس السلطان على البساط والاشياخ من حوله ، يتشاورون فى حل مشاكل الدولة ويعرفون بـ « اشياخ البساط »(٤٨) ٠

٤ ـ **صاحب الرقاعات** : وهو الذى يتولى ابلاغ الظلامات والشكايات الى السلطان ، وايصال قصصهم اليه وعرضها عليه ، ثم يخرج بجوابهاعنه٠

٥ ـ **صاحب العلامات** : وهو المتولى لامور الاعلام ، وبمعنى آخر هو المكلف بامر دق الطبل ، فيامر بدق الطبل عند ركوب السلطان فى المراكب ٠

٦ ـ **الحافظ** : وهو صاحب الشرطة ويسمى بالحاكم فى الاندلس،والوالى فى مصر ٠

وهى وظيفة من وظائف السيف دون القلم ، وحكم صاحبها نافذ فى بعض الاحيان ٠

---

(٤٦) الاعشى جـ٥ ص١٣٩ ٠
(٤٧) ابن الاحمر ، مستودع العلامة ، ص ٣٢ ، دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٨٨ ـ ١٩١ ٠
(٤٨) الفارسية ، ص ١١٥ ٠ Brunschvig Tome I : P. 72.

٧ ـ **محركوا الساقة** : وهم قوم يحملون العصى لترتيب النـــاس فى المواكب ويرى فيهم ابن حزم بانهم قوم يتخذون للمباهاة(٤٩).

٨ ـ **صاحب الطعام** : وهو المسئول عن اعداد طعام الجند ومراقبته،ومحاسبة كبير الطباخين على التقصير فى عمله وعدم اتقانه .

٢ ـ اما اربـــاب الاقـــلام فهـــم :

١ ـ **قاضى الجماعة** : وهو بمنزلة قاضى القضاة بمصر والشام، وله من المكانة والنفوذ ما لغيره من الوزراء ، وربما تزيد مكانته فى دولة تجلَ الفقهاء ، وتعمل بآرائهم مثـــل هـــذه الـــدولة .

٢ ـ **المحتسب** : وهو المكلف فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هذا المبـدا الدينى المثالى ما لبث ان تطور حتى اصبح يشمل جميع مظاهر الحياة الداخلية للبلد ، وهو ما نلمس منه اليوم بذور النظام البلدى الحالى .

٣ ـ **صاحب كتب المظالم** : وهو الموقـــع على القصص ، ويماثله فى المنصب موقع الدست فى مصـــر والشـــام(٥٠) .

وبعد ، نرى من كل ما تقدم ان اهم ما فى الوزارة الحفصيه ، هو الثالوث الـــوزارى السيف والقـــلم والمـــال وان السلطـــان كان يهيمن على الوزارة ويجتمـــع بوزرائهـــا كـــل يـــوم فى مكـــان يسمى (بالمدرســة) . فيبعث السلطان خادما يستدعى وزير الجند من المكان المعد لجلوسه ، فيدخـــل عليه الوزير رافعا صوته بـ « سلام عليكم » ، عن بعد دون ان يومىء براسه ، فيامره السلطان بالجلوس، ويساله عن كل ما يتعلق بامور الجند والحرب ، ثم يستدعى احد اشياخ الجند او العرب او ممن له علاقة بوزير الجند نفسه . وعندما ينتهى السلطان من استجوابه ، يستدعى صاحب الاشغال، وهو ما يسمى اليوم بوزير المال ، فيدخل مع وزير الجند ويسلمان على السلطان من بعد ، وان كان قـــد تقـــدم سلام وزير الجنـــــد .

فيامر السلطان وزير الاشغال بالجلوس ، ليستدعى من له صلة بعمـــله

---

(٤٩) ابن حزم ، حياته وعصره وفقهه ، ص٢٥ .

(٥٠) صبح الاعشى ، جـ٥ ص١٤٠ .

للبحث فى الشئون السلطانية • ثم يحضر صاحب الطعام ، ومعه عينـــة من طعام الجند ، ليعرضه على وزير الجند نفسه ليكون على بينة من ذلك ولئـــلا يتهم بالتقصـــــير او التفـــريط •

وعندما ينتهى السلطان من حديثه ، ينهض من المجلس المسمى «بالمدرسة» ليجلس فى مكان آخر فيستدعى وزير الفضل او كاتب السر ، فيسأله عن الكتب الواردة من البلاد ، وعن الخزانة السلطانية وما بها من الكتب ، وعمـا يتعـلق بارباب العـــلم والقضاة وســائر فنـــون الفضـــل •

وعند الانتهاء ، يامر السلطان وزير الفضل باستدعاء من يحتـاج اليه من الكتاب ، ليملى عليه ما امره السلطان به ، وبعد انتهاء الاعمال : يستـــدعى السلطان من اراد من العلماء والفضلاء ــ ويتحاضرون محاضرة خفيفـــة مـــع السلطـــان فى مختلف القضـــايا •

وقد يرفع وزير الفضل قصيدة لشاعر وافد ، او حدث استجد ، فيـــأمره السلطان بقراءته ، وربما دخل الشاعر نفسه وانشد قصيدته بين يدى السلطان، ما واقفا او جالســـا حسب رتبتـــه ومكانتــه عنـــده •

وبعد الانتهاء من الالقاء يتحدث السلطان مع وزير الفضل والفضلات ويكتب ى كل قصـــــيدة ما يراه(٥١) •

. **العـــلاقات الخارجية :** وهو ما يسمى اليوم بوزارة الخارجية ، وما كـــان يسمى فى السابق بسفــارات الوفـــود •

فقد حدث فى هذا الاطار ، مصاهرة بين الامراء المرينيين ، وبين الامـراء حفصيين ، وكان لها اكبر الاثر فى تقوية الروابط بين الدولتين ، بحيث كانت ل منهما تذب عن الاخرى ، اذا وقع على احدهما ضيم او عدوان •

وتبودلت الرسائل الدبلوماسية فى هذا الغرض • وكان اولها رسالة صدرت ، القيروان فى ٤ ربيع الثانى سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م ، وذلك ردا على الرسـالة صادرة من فاس فى الثالث والعشرين من صفر من نفس السنة • وفيها يشرح

---

(٥١) الاعشى جـ٥ ص١٤٣ •

الكاتب المرينى لزميله الحفصى، ظروف معركة طريف(٥٢) سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م، التى استشهدت بها صاحبة العصمة فاطمة زوجة السلطان ابى الحسن .

اما بخصوص زواج السلطان من غزونة شقيقة زوجته المتوفية ، فقد وردت رسالة من القيروان بقلم كاتب الدولة الحفصية الى زميله كاتبالدولة المرينية، يخبره عمــا جرى بهذا الخصوص وها هى مقتطفــات منها :

اخى : لقـــد حـــل وفد سلطانكم ابى الحسن المرينى بتونس ، ليخطب لسلطانكم احدى كريمات سلطاننا (ابى بكر الحفصى) ، فامتنع السلطان ابو بكر الحفصى من تلبية رغبة الامير ابى الحسن ، وابى أن يزوجه بنتا ثانية، لأن الالم ما زال يحز فى نفسه لفقد ابنته فاطمة ، ولكن حاجبه أبا محمد بن تافراجين ما زال يهون عليه هذا ، ويعظم حق الامير ابى الحسن فى رد خطبته مع ما بينهما من الصهر السابق ، والمخالطة القديمة والعهود المتأكدة حتى قبـل اخيرا هـــذا الـــزواج على مضض(٥٣) .

ويرجع الفضل فى قبوله للحاجب ابن تافراجين ، الذى عمل جاعدا عـــلى اقناع السلطان (ابو بكر الحفصى) ، من تزوج ابنته عزونه الى الامير ابى الحسن المرينى .

فقد بذل اقصى جهده فىحل هذه المشكلة وحل غيرها من المشاكل المستعصية، مكان لتاثيره الشخصى اكبر الاثر فى تحسين العلاقات بعد اساءتها وتقـويتها بعـد فتــورها .

وفى نطاق تبادل الزيارات والهدايا بين العواصم الثلاث ، تونس ، وفاس، وتلمسان . وفد على السلطان ابى عمرو عثمان سنة ٨٦٠هـ/١٤٤٥م ، الامير محمد بن ثابت صحبه قاضيه محمد بن احمد العقبانى مع رجل من بنى عـــم السلطان الزناتى ، ومعهم هدية مرسلة من السلطان الى الخليفة عمرو عثمان.

---

(٥٢) هى المعركة التى وقعت بين الامير ابى الحسن المرينى وبين الفنش على ارض الاندلس .

(٥٣) العربى ــ العمروى ، مجلة المغرب ، عدد خـــاص ماى سنة ١٩٦٥ ، ص ٤١ ــ ٤٧ .

وقد صادف يوم وصولهم شفاء الخليفة من مرضه ، فزينت الاسواق بتونس فرحـــا بشفائه ٠

وفى أوائل صفر سنة ٦٨٢هـ/١٤٥٧م ، قدم لتونس احمـــد البنزرتى من مدينة فاس ، وقدم معه رسولان يحملان هديتين ، احدهما من صاحب فـــاس السلطان عبد الحق المرينى ، والاخرى من صاحب تلمسان الامـــير احمـد بن حمـــو الزناتى(٥٤) ٠

فانزلا بقصر الضيافة ، الى ان قدم السلطان عمرو عثمان بن المولى السلطان ابى عبد الله محمد المنصور ، فادخلا عليه ومع كل واحد منهما هديته، فاكرمهما السلطان واحسن وفادتهما ، ورد معهما فى نفس العـــام رســـولا من قبـــله، وهـــو ابراهيم بن نصر بن غـــالية(٥٥) ٠

ـ الحجــــابة :

ان كلمة الحجابة ، ماخوذة من المهنة ، فالقائمون بهذه المهنة هـم الـذين يحجبون الناس عن السلطان ، حتى اذا ما اذن السلطان لاحدهم تولى الحاجب تقـــديمه بنفسه ٠

وكانت مهام وزير الجند فى بداية الامر ، تفى بما يقوم به الحاجب ، الا ان اتساع ملك السلطان ، وكثرة المرتزقين بداره ، وتطور الدولة بشكل يتناسب مع زمنها وامتداد نفوذها اجبر سلاطينها على اتخاذ الحاجب الذى لـــم يكـن له وجـــود من قبـــل ٠

فقد اتخذه السلطان المستنصر الحفصى ، وجعل حاجبه ابو القاسم الشيخ، الا ان هذا المنصب بقى غير مميز عن غيره من المنـــاصب الاخرى ، حتى زمن السلطان ابو اسحاق ابراهيم الاول سنة ٦٧٨هـ ـ ٦٨٢ هـ/١٢٧٩ـ١٢٨٤م ، الذى اول من اتخذ الحجابة وميزها عن غيرها حسب قول برونشفيج ، فى كتابه (بلاد البربر فى العهد الحفصى ، جـ٢ ص ٥٣ ـ ٥٥) ٠

---

(٥٤) الزركشى ، ص١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ٠
(٥٥) نفسه ، ص١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ٠

ولعل السبب فى ذلك، يعود الى ان السلطـــان عاش فى الاندلس مدة قبل ان يعتلى العرش • فتأثر بهذه الخطة ، التى كانت شائعة هناك ، واتخذ حاجبه ابو القاسم الشيخ الذى اتخذه من قبله المستنصر الحفصى ، وهذا الحـــاجب هو تلميذ للكاتب الشهير ابن عميرة المخـــزومى(٥٦) •

وعلى كل فان خطة الحجابة فى بداية امرها ، لم يكن لصاحبها اى نفوذ سياسى يذكر • اذ كان عمله مقتصرا على ادارة قصر السلطان ، او كما يقول ابن خلدون ، كان بمثابة قهرمان خاص بداره ، ينظر فى امواله ، ويجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة فى المطابخ والاصطبلات(٥٧) •

وتطورت الحجابة بعد ذلك ، حتى اصبح صاحبها مطلق السلطة ، فجمع الى جانب مهنته مهنة السيف والحرب والراى والمشورة ، فسمت خطته عن خطة الوزارة ، وصارت من ارفع الرتب واشملها للخطط • فاستبد الحاجب بالسلطان، وبقى الامر على هذا الحال حتى جاء السلطان ابو العباس الثانى عشر ، واذهب هذا الحجر والاستبداد بذهاب خطة الحجابة ، التى بلغت شاوا لم يبلغه غيرها من الخطط •

وفى سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م ، احدث السلطان ابو العباس منصبا جـديدا فى الحجـــابة هو منصب الرديفـــة(٥٨) •

مما تقدم نستنتج قوة الحاجب ، خاصة فى الدور الذى قام به ابن تافراجين، فى زواج السلطان ابى الحسن المرينى من بنت الخليفة ابى بكر الحفصى(٥٩) •

واكد هذه السلطة ــ ابن خلدون ــ بقوله : «وكتب لى الامير ابو عبد الله بخطة عهد بولاية الحجابة ــ على بيجاية ــ ، ومعنى الحجابة فى دولنا بالمغرب الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين اهل دولته ولا يشاركه فى ذلك احـــــــد(٦٠) •

---

(٥٦) دراسات فى تاريخ المغرب ، ص١٩٣ ، الفارسية ص٢٤٢ •
(٥٧) ابن خلدون ، المقدمة جـ٢ ص٦١٠ •
(٥٨) الزركشى ، ص١٠٦ •
(٥٩) نفسه ، ص٧٧ ــ ٧٩ •
(٦٠) ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقـــا وغربا ص ٩٧ ، دراســـات ص١٩٦ •

وفى" اواخر ايام الدولة الحفصية ، انفصلت الحجابة نهائيا عن رئاسة الوزراء واصبحت مهمة الحاجب ـ كما يقول الحسن الوزان ، المعروف باسم ليو الافريقى ، « تقتصر فى الاشراف على فرش قاعة السلطان بالابسطة والوسائد ، وتنظيم جلوس الحاضرين فى الاماكن المخصصة لهم(٦١)٠

حرر فى ٢٦ شعبان ١٣٩٦ هـ الموافق ليوم الاثنين ١٩٧٦/٨/٢٢
معهد التنمية الانتاجية ـ مرداس ـ الجزائر

---

(٦١) يسميه برونشفيج بـ (رئيس القاعة) ، انظر : بلاد البربر فى العهد الحفصى جـ٢ ص ٥٣ ـ ٥٥ ٠

رسالة الثعالبى فى الجهاد

الدكتور ابو القاسم سعد الله

قسم التاريخ ـ جامعة الجزائر

اثناء تصفحى لمخطوط جزائرى قديم وجدت رسالة لعبد الرحمن الثعالبى، دفين مدينة الجزائر الشهير، موجهة الى احد تلاميذه فى نواحى بجاية ولاهمية موضوع «الجهاد» الرسالة ولكونها غير معروفة حتى الآن، حسب علمنا، رأينا ان نقدمها الى القراء المهتمين بانتاج القرن الخامس عشر الميلادى المكتوب ضد الاسبان والبرتغاليين الذين كانوا يهددون سواحل شمال افريقية بالغزو • وقد كان دافعى لنشر هذه الرسالة ما نكاد نعرفه جميعا من ان عبد الرحمن الثعالبى قد اشتهر كعالم وزاهد وليس كداعية جهاد او زعيم سياسى • ولكن هـذه الرسالة تغير من نظرتنا اليه، وهى لذلك فى نظرنا جديرة بالنشر •

والواقع ان شهرة الثعالبى قد غطت الآفاق ودرسه اكثر من واحد، ولا تكاد تجد كتابا فى التراجم لا يتعرض للثعـالبى بالقليل او الكثير، فحياته اذن معروفة، وعصره مدروس الى حد كبير، وبعض تآليفه متداول بين النـاس، وضريحه محجة الزائرين فى مدينة الجزائر الى اليوم، فلو ترجمنا له هنـا باختصار ظلمناه ولو ترجمنا له بالتفصيل ابتذلناه • لذلك نكتفى فى هـذا المجال بما يساعد على فهم الرسالة التى نرغب فى تقديمها الى القارىء(١)•

فقد ولد الثعالبى سنة ٧٨٦ (١٣٨٤) بمنطقة وادى يسر بالقرب من مدينة الجزائر، وهو ينتمى الى قبيلة الثعالبة العربية التى كان لها سلطان وفروع حول ساحل مدينة الجزائر وجبالها • ثم انتقل الى بجاية فتلقى العـلم على مشائخها الذين ذكر بعضهم فى ثبته، ومنهم النقاوسى والمانجلاتى والمشدالى، وظل فى بجاية حوالى سبع سنوات، ثم تحول الى تونس فلقى علماءها وأخذ

---

(١) عن حياة الثعالبى انظر الاعـلام ٤ : ١٠٧ وشجـرة النور الزكية ص ٢٦٤ـ٢٦٥

عنهم ، وبعد اقامة طويلة هناك توجه الى الحج واخذ العلم فى طريقه عن علماء مصر وتركيا والحجاز ، وبعد حوالى سنتين فى المشرق عاد الى تونس ومنها الى الجـــزائر حيث توفى سنـــة ٨٧٥ (١٤٧١) ٠

وقد كان عصره عصر اضطراب سياسى واجتماعى ٠ فكانت الجزائر عـلى عهده مقسمة بين بنى حفص فى الشرق (قسنطينة ، بجاية ، عنابة) وبنى زيان فى الغرب (تلمسان ، وهران ، ومليانة) ٠ وكانت مدينـــة الجـــزائر وما جاورها من مناطق الوسط ميدان نزاع بين الدولتين المذكورتين ٠ وكـانت الامارات المحلية فى هذه المناطق توالى القوى من السلطتين ، ومن بين هـــذه الامارات امارة الثعالبة بسهل متيجة وما جاوره الى وادى يسر ، حيث ولـــد الثعالبى ٠ وقد زاد من الاضطرابات المذكورة تهديـد الاسبان والبرتغــاليين والايطاليين لسواحل شمال افريقية واستغلالهم لنقاط الضعف فى الدويـــلات الاسلامية وانقضاضهم عليها ٠ ومن بين النقط التى كانت مهـــددة فى وقت الثعالبى بجاية ، والجزائر ، ووهران ، وعنابة ، وجيجل ٠ وكانت بجاية خاصة موطن الذكريات للثعالبى لانه فيها درس وتربى وتوسع افقه العلمى على يـد علماء بارزين ٠ لذلك لا تستغرب ان يحرص على الدفاع عنها والجهـــاد فى سبيلها بنفس الحماس الذى اظهره فى الدفاع عن مدينة الجزائر ٠

وقد كتب الثعالبى كتبا كثيرة ، معظمها فى الزهد والدين والتفسير والسيرة والتوحيد ٠ وبعض هذه الكتب مطبوع مثل تفسيره المعـــروف (بالجواهـــر الحسان)(٢) ٠ وتنسب اليه كرامات كثيرة ، ورسائل واجازات وادعية واذكار ومنامات ، بعضها مكذوب قطعا وبعضها صحيح ٠ ولكن شهرة الرجل فى عصر ساد فيه الجهل والفقر والاضطراب والعجز عن دفع الظلم ــ كل ذلك جعل الناس ينسبون اليه احيانا ما لم يقله ، او قاله ولكنه لم يقصد به ما قصدوا اليه ٠

واذا كان دور الثعالبى فى الزهد والتصوف والاعتناء باحوال الاخرة قد اصبح معروفا لكل دارس لحياته فان دوره « السياسى » فى التحريض عـلى الجهاد ، والوقوف ضد الاعداء المغيرين ، ودعوة الناس للتسلح ضدهم بكل انواع الاسلحة ، والاستعانة على ذلك بكل الوســائل الشرعية ، هذا الدور غـــير

---

(٢) طبع فى الجزائر فى اربعة اجزاء خلال سنوات ١٩٠٥ ــ ١٩١٠ وكذلك نسخة من كتابه المعروف بالجامع الكبير ، الجزائر ، ١٩١١ ٠

معـــروف فى نظـــرنا(٣) • ولكن الرسالة التى بين ايدينا تبرز هذا الـدور• وبعبارة اخرى فان الثعالبى قبل هذه الرسالة كان فى نظرنا رجلا سلبيا متفرجا على الاحداث التى كانت تجرى فى عصره ، اما بعد هذه الرسالة فقد اصبح فى نظرنا رجلا ايجابيا داعية خير وجهاد ، عمليا فى افكاره وتصرفاته ، بالاضافة الى كونه رجـــل دين وصـــلاح وزهـــد وتصـــوف •

التعـريف بالرســالة :

عثرنا على رسالة الثعالبى فى الجهاد فى مخطوط جزائرى يعـــود تاريخ نسخه الى القرن الثامن عشر الميلادى • وقد وجدنا المخطوط بأحـدى المكتبـات العامة خارج الجزائر(٤) ، فنقلنا منه الرسالة المذكورة بخط اليد(٥)• وهى فى المخطوط المذكور تقع فى ورقتين ، ضمن مجموع • واسم الثعالبى فيها مكتوب هكذا : عبد الرحمن بن محمد الثعالبى ، والرسالة موجهة منه الى محمـــد بن احمد بن يوسف الكفيف الذى كان حسب سياق النص ــ بمكان قـــريب من بجاية • وكان المكتوب اليه ، على ما يظهر ، تلميذا للثعالبى او واحـــدا من اتباعه المقربين لانه قد دعاه فى الرسالة « مقام الولد » والرسالة فى الحقيقة كتبها الثعالبى ردا على رسالة وصلته من الشخص المذكور • فقد استشـــاره هذا فى نقل كتبه الى زواره (دون ان يقول من اين) فوافقه الثعالبى على ذلك بشرط ان لا تحمل الكتب بعيدا عن المكان المنقولة منه• معللا ذلك بكون الاعداء يقصدون المدن ، فمن الحرص على الكتب ابعادها عن اماكن الخطر •

ثم اغتنم الثعالبى الفرصة واضاف الى الرسالة حديثا طـــويلا عن الجهاد سنعرض اليه • اما اسم الناسخ فهو سيدى يخلف بن محمد الذى نقل ، حسب تعبيره ، من خط الثعالبى نفسه • فقد جاء فى آخر الرسالة ما يلى :
« كملت من خط الشيخ سيدى عبد الرحمن الثعالبى» لـــكن تاريخ النسخ غير معروف ، كما لا يعرف مكانه ، غير ان الخط مغربى ــ جزائرى •

---

(٣) تذهب الاخبار الى ان الثعالبى قد تولىَّ ايضا مشيخة قبيلة الثعالبة، ولكن ذلك لم يتاكد لدى •
(٤) رقم ١٥ مجاميع ، دار الكتب المصرية •
(٥) ثم طلبنا منها مصورة فوافتنا بها دار الكتب المصرية مشكورة •

خـلاصة الرسـالة :

كانت المراسلات تدور بين الشيخ عبد الرحمن الثعالبي ، من مدينة الجزائر ، وبين الشيخ احمد الكفيف وولده محمد اللذين لا نعرف مكانهما بالضبط ، ولكن يغلب الظن على انهما كانا في نواحي بجاية . وكان موضوع المراسلات ، في أغلب الظن ، في شؤون العصر من جهاد وجمع لكلمة المسلمين، والمحافظة على الدين ، والمذاكرات العلمية . والرسالة التي بين ايدينا تجمع شيئا من كل ذلك . وهي موجهة من الثعالبي الى «مقام الولد» محمد بن احمد الكفيف الذي استنصح شيخه في نقل كتبه (وقد اصبح الخطر داهما) من بلدته (؟) الى جبال زواوة . فنصحه الثعالبي بذلك لان الاعداء انما يقصدون المدن .

وعبر له الثعالبي ايضا عن فرحته من كون اهل بلد الشيخ الكفيف قد اخذوا يستعدون للجهاد بصنع درق العود الذي لا تنفذ منه السهام والسيوف بدل درق الجلد الذي لا يكاد يمنع نفاذها . واضاف الثعالبي بانه قد جرب ذلك بنفسه . ذلك ان اهل مدينة الجزائر ـ وباديتها ـ قد قاموا هم ايضا يستعدون للجهاد ، بعد ان حرضهم هو عليه ، وصنعوا من اجل ذلك درق العود من الصفصاف ، وعندما اعوزهم الصفصاف صنعوا الدرق من الفرنان . وكان لتحريض الثعالبي اثر كبير على السكان ، نساء ورجالا ، حاضرة وبادية، علماء وعامة . وقد اطمأن الثعالبي نفسا على اهل بلاد الشيخ الكفيف لان والده قد اخبر الثعالبي انهم قرروا اخراج الاطفال والنساء والمال من المدينة ، اذا راوا غلبة العدو ، وانهم عازمون على أن لا يبقوا فيها سوى المقاتلين .

غير ان الثعالبي لم يكن مرتاحا من موقف اهل بجاية بالذات ذلك ان الخطر كان يتهددهم من جهة اسبيوين . وكان قد طلب من فقهائهم النهوض للجهاد، والدعوة اليه فلم يعبأوا بكلامه . لذلك طلب من الكفيف ان يكتب هو اليهم وان ينبههم الى واجب القيام للجهاد واتخاذ الدرق بكثرة ، سواء في البادية او الحاضرة . ذلك أن كل عاقل ، حسب رايه ، يتوقع هجوم الروم على بجاية والسواحل الاسلامية . فقد اصيب الروم في القسطنطينية وفي غيرها بهزائم، وهم يتحمسون لبدنهم ، متعصبون . وسوف لن يهدأ لهم بال حتى يهجموا على سواحل شمال افريقية . ورغم أن وقت هجومهم غير معروف فان الدلائل تدل على أنه قد اصبح قريبا جدا . لذلك فان الاستعداد لهم ، في نظره ، من الحزم، بدليل ما رآه الثعالبي في المنام من حث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، له

على تحريض المسلمين على الجهاد فلو اطلع اهل بجاية على ما جاء في هــذه الرؤيا لما تخلوا او تكاسلوا او تقاعسوا عن الجهاد ، ولا اعتمدوا على صنـــع الحرق الواقي بدل الاسوار العالية ولوفروا كل نوع من انواع الاسلحة ، بمـا في ذلك المكاحـــل ٠

اهميـــة الرســـالة :

تكشف رسالة الثعالبي في الجهاد عن امور هامة تستحق الدرس والاعتبار٠ فقد كشفت عن نظرته الدولية واطلاعه الواسع على احوال العالم عندئذبالاضافة الى معرفته الدقيقة باحوال بلاده ، فهو من جهة يتحـــدث عن الروم في المشرق (القسطنطينية التي ضاعت من الروم منذ ١٤٥٣م ـ ٥٨٧هـ) ويربط بين ماحدث لهم هناك وبين وسر هجومهم على سواحل المغرب العربي ٠ ولم يكن الاسبان والبرتغاليون الا فرعا آخر من فروع بني الاصفر (الروم)٠ وهو يتحدث ايضـا بدراية عن طبائعهم وترابطهم وحماسهم الشديد لدينهم وكرههم للمسـلمين ، وقد استعمل الثعالبي هذه النقاط لاثارة حماس قومه وايقاظ مشاعرهم الدينية والرجـــولية للـــدفاع عن دينهم ووطنهم ٠

والرؤى الصوفية كثيره لدى العلماء في ذلك الوقت ٠ وتنسب الى الثعالبي منها رؤى كثـــيرة ، ونحـــن نجـــد في هذه الرسالة اعتماد الثعالبي على منامة أو رؤيا ٠ واذا كنا الآن لا نستطيع ان نتهم الثعالبي باختلاق هذه الرؤيا لغـرض نبيل وهو الحث على الجهاد ، فان غيره قد استعمل هذه الرؤى لاغـراض غير نبيلة او على الاقل لاغراض غير سياسية او جهادية ، فهم يستعملونها لتنويم العامه واستغلال ما عندها من مال ونحوه ٠ اما الثعالبي فقد استعمل رؤيـــا الرسول صلى الله عليه وسلم لاقناع العوام واشباعهم بوجـــوب الاستعـــداد لمقاتلة المعتدين على اوطانهم ، وهو رجل تشهد الروايات وسيرته ومؤلفـــاته على زهده الحقيقي وتجرده من الهوى الشخصي وغيرته على الدين وحرصـــه على المصلحة العامة ٠ فزهده حينئذ لم يمنعه من الاهتمام بالسياسة وعمله لم يحل بينه وبين الدعوة الى الجهاد في سبيل الله ٠ وقليل من انشاء كانوا على شـــاكلته ٠

وقد دق الثعالبي ناقوس الخطر في الوقت المناسب ، ولكن المنصتين لــــه كانوا قلة ٠ فهو لم يكتف بحث العامة وتنبيهها الى الخطر المحدق بها ولكنـــه وجه رسائله وخطابه ، المباشر وغير المباشر ، الى الفقهاء (العلمـــاء) أيضـــا

ومن هؤلاء فقهاء بجاية التى كان الثعالبى يتحرق خوفا عليها • ومن الغريب ان الثعالبى لم يشر الى اسم اى حاكم او امير فى تلك الاثناء ، فكأن نضاله كان نضالا « شعبيا » ولم يكن يعتمد لا على قوة اميرية ولا على قوة خارجية، وانما كان اعتماده على الشعب نفسه ، مستعملا فى ذلك علمه ونصحه وسمعته وحتى الرؤيا النبوية ، لدفع الشعب الى الجهاد والتحرك السياسى •

ومن ثمة نفهم لماذا كان الثعالبى غير راض على فقهاء بجاية لعدم ايجابيتهم فى الوقت الحرج ولانهم بذلك قد حالوا بينه وبين الشعب الذى وجه اليه خطابه ، وعلى نحو مافعل مع اهل مدينة الجزائر ونواحيها • ومادام موضوع الثعالبى هو الشعب نفسه ، فانه كان لا يفرق بين اهل الحاضرة والبادية ، فالجميع قد وجه اليهم الخطاب والجميع قد استجابوا له فى نواحى الجزائر، ولكنه لم يستطع ان يصل اليهم فى نواحى بجاية • وعدم تعرض الثعالبى لرجال السياسة يدل مرة اخرى على الفراغ السياسى وانعدام القيادة الحكيمة عندئذ فى بلاد الجزائر عامة ، فالناس قد تركوا لانفسهم يدبرون أمرهم ويدافعون عن حريمهم واموالهم واوطانهم ، وكأنه لا وجود للسلطان أصلا •

ومن جهة اخرى تكشف هذه الرسالة عن خبرة الثعالبى الدقيقة بشؤون الاسلحة الموجودة فى عصره ، وعن طرق الدفاع الحكيمة • فهو يذكر من انواع الاسلحة السيوف ، والنشاب ، وانواع الدرق ، والمكاحل ، بالاضافة الى الاسوار ، كما ذكر انواع الشجر الصالح للدرق وغير الصالح • ويشير الى زهيد الثمن منها وما يكلف اموالا طائلة ، ويتحدث فى ذلك عن تجربته وليس عن أمور نظرية او فرضية • وهو ينصح بما هو موجود بكثرة ونافع فى بلاده وليس بذلك الذى لا يوجد فى اماكن بعيدة او يوجد ولكنه قليل •

ولهذه الاسباب اعتبرنا هذه الرسالة هامة وجديرة بالدرس ، لا لانها فقط تضيف الجديد عن شخصية الثعالبى ودوره العلمى والسياسى ، ولكن لانها ايضا تسلط بعض الاضواء على عصره من الوجهة السياسية والاجتماعية،فالعلماء والفقهاء كانوا يتنبأون بامور ستحدث ، وكانوا يعتمدون التصوف والزهد والرؤى النبوية ، وكانوا احيانا يدعون الولاية ويتصنعون الورع ، ولكنهم كانوا،ولا سيما عند انعدام السلطة السياسية الوطنية ومداهمة الخطرالخارجى،

يصبحون قوة دافعة نحو الصلاح والخير ، ونحو جمع الكلمة ووحـــدة البـلاد ونحو التسلح والجهـاد • ومن هؤلاء كان الثعالبى • ومن هنـا جاءت أهميـة رسالته التي نحن بصددهـــا • •

ابو القـــاسم سعد الله
قسم التاريخ ـ جامعة الجزائر

ابن عكنون (الجزائر) ٢٧/١٠/١٩٧٦م

نص رسالة الثعالبى فى الجهاد

« من عبد الرحمن بن محمد الثعالبى ، لطف الله به ، الى مقام الولد الفقيه الخير ابى عبد الله محمد بن اخينا فى الله سبحانه ، سيدى احمد بن سيدى يوسف الكفيف ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

وبعد فقد وفقنى الله واياكم لرضاته ، وانعم علينا وعليكم بجزيل فضله وعميم خيراته ٠ فقد وقفت على كتابكم وانتم تستشيرونى (كذا) فى نقل كتبكم الى زواوة خوفا من عدو الدين ان ينزل بساحة المسلمين ، فاعلم ، رحمك الله، ان نقلها من الحزم ولكن الى ما قرب منكم من الاماكن لان العدو ، دمرهم الله، انما مقصدهم المـــــدن ٠

وفرحت بحمد الله باشتغالكم بدرق العود فما يوجد انفع للنشاب ولا لدفع مضرته من درق العود ، فما كانت بيدة درقة عند لقاء العدو يشفى ويستشفى ويبلغ غرضه بحول الله تعالى وقوته ٠ واما درق الجلد من لمط او غيره فـــلا يغتر بها لان السهام تنفدها (كذا) وتتجاوزها الى ممسكها ٠ هذا مع القـــرب جربناه مرارا ٠ ودرق العود لا تنفد (كذا) فيها مع القرب فاحـــرى مع البعــد فاختبروا ما ذكرناه لــكم يبين لكم الصـــواب ٠

ولست اخاف على بلدكم لان والدكم ، رحمنا الله واياه ، اخبرنى انكـــم ان رايتم ما لا تطيقن من كثرة العدو تخلون من اجله ولا يبقى فى البـــلد الا المقاتلة ، ونصرالله تعالى معكم مأمول ٠ ولان العدو اذا علم ان الذرية والحريم وما عز من المال فقد فاته فت ذلك فى عضده ، ولم يقتحم كل الاقتحـام لفوات غرضـــه(٦) ٠

واهل بلدنا(٧) وماقرب منها بل ومابعد عنهم لما ان حرضتهم على درق العود

---

(٦) هذه النظرية ليست دائما صحيحة ، لان غرض الاستعمار احيانا هو البقاء سواء وجد « الذرية والحريم وما عز من مال او لم يجد » ٠

(٧) يعنى مدينة الجزائر ونواحيها ، وهو وطن الثعالبة ٠

اجتهدوا في ذلك حاضرة وبادية ، ففرحت بحمد الله تعالى بامتثالهم ما امروا به . وقد قدمت الى فضلا بهم ان النبي صلى الله عليه وسلم اكد واكد كثيرا ، فحرضت الناس جهدي ، ورأيت أثر ذلك في الناس بحمد الله تعالى ، فانهم سارعوا وصدقوا وامتثلوا ، وقد وعدنا النصر بحمد الله تعالى ، وقد تكرر على التحريض نحو سبع مرات ، وفي بعضها شد روحك يعني في التحريض ، وفي بعضها وانتم منصورين ، (هكذا بالياء) . والذي آمركم به ، وفقكم الله تعالى ، ان تكثروا من درق العود كثرة تعمكم وتعم من يصرخكم .

وقد جاءني بعض اخواني من اهل الفضل فقال رأيت كان فارسا وبيده درقة وهو يقول واعدوا لهم ما استطعتم من قوة الدرق والرماح . وفي رؤيا عنه صلى الله عليه وسلم قال من عمل درقة ، يعني للجهاد ، فانها تحول بينه وبين النار . ولما اخبرتهم بهذه الرؤيا زادهم ذلك رغبة حتى ان جماعة من النساء اشترين الدرق لاجل وعده الصادق صلى الله عليه وسلم .

واعلم يا اخي ان قلبي متالم من اهل بجاية ، وخفت عليهم كثيرا من جهة آمسيورين(٨) . وقد بعثت الى بعض الفقهاء منهم بالتحريض من غير كتب فما رأيت لكلامي عندهم تاثيرا كما اثر هنا . واذا اراد الله بامر فلا محيد عنه ، وان هم قبلوا نصحي كانوا ممتثلين لتحريض النبي صلى الله عليه وسلم ، فان كلامه حق يقظة ومناما ورؤيته حق فان الشيطان لايتمثل بصورته اى مطلقا .

والذي احبه منهم ان ينهضوا ويشرعوا في عمل الدرق من الصفصاف وتكون كاسية ولا يتكلوا على الطوارق(٩) ولا على درق اللمط كما اخبرتك ، فاكتب اليهم بالتحريض في عمل الدرق ويكثر واكثره تعمهم وتعم من يصرخهم . واهل بواديهم أعلمهم قديما(١٠) عراة لا درق معهم الا نادرا . وقد انتهى حال اهل جبالنا الى ان اتخذوا الدرق من الفرنان . وكذلك انتم ، فافعلوا بمن اعوزه درق العود فليصنعه من الفرنان الغليظ طبقين طبقين ، فان كل عاقل يستشعر قتال بني الاصفر فانهم قد اصيبوا في القسطنطينية (كذا) وغيرها . وقد علمتم ان اخذها من الاشراط . وان لبني الاصفر حمية في النصرة لصليبهم .

---

(٨) جبل قرب بجاية .

(٩) يقصد بها التروس او الصائد .

(١٠) يشير الثعالبي بذلك الى ايامه عندما كان طالبا ببجاية .

فاكتب ، رحمك الله، لاخواننا ببجاية وحذرهم ليتيقظوا ويعملوا مااشرنا اليه من الدرق على الوجه الذى اشرنا اليه فهى اقرب مراما واقل كلفة من بنـاء الاصوار (كذا) التى لايرقها (او يرفعها) الا المال الكثير فى الزمـان الطويل ٠ ويخاف ان الامر اعجل ٠ اللهم انى قد بلغت ، اللهم انى قد بلغت ، اللهـم انى قد بلغت، اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، الاهم اشهد ٠ واذا وصل اليك هذا الكتاب فاقرأه على جميع اصحابنا ثم ابعث به الى بجاية لمن يعلن به ويشيعه ٠

ولو اطلعتم على ما اطلعت من التحريض لما وسعكم ان تشتغلوا بشىء من امور مهماتكم بعد الصلاة الا بآلة الجهاد ٠ والله والله لو لم يكونوا (كذا) بنو الاصفر على وجه الارض لخلت ان ينبعوا من تحت الارض لما رأيت من التحريض والتحذير منهم من قبل النبى صـلى الله عليه وسـلم ومن يحب تصديقه٠ ولا يمكننى التصريح به لضعيف الايمان ٠ وقد سئل بعض الاولياء عن مسالة فسكت وقال للسائل ان ايمانك لا يحتمل هذا ٠ وبالجملة الحذر الحذر ممـا حـذرتم ٠

واما تعيين وقتهم فذاك(كذا) الى الله هو اعلم ٠ نعم قراين الحال ومـا شوهد من تحريض النبى صلى الله عليه وسلم يؤذن بالقرب ٠

ومما ينبغى ان تكثروا منه المكاحل كثرة تعمكم وتعم من يريد صرختكم٠

كملت من خط الشيخ سيدى عبد الرحمن الثعالبى وكتب سيـدى يخلف ابن محمـد أصلحه اللـه ٠٠

نسخت رسالة الثعالبى فى الجهاد عندما كنت بالقاهرة خـلال شهـر ابريل ١٩٧٦ ٠٠

ابو القاسم سعد الله

أعتراف :

لا يسعنى الا ان اتوجه بالشكر الى الشيخ محمد الطاهر النيلى القمارى الذى تفضل بالاجابة على بعض اسئلة وجهتها اليه حول موضوع رسالة الثعالبى ٠ ورسالة الشيخ القمارى مؤرخة فى ١٦ ابريل ١٩٧٦ ٠

أ٠س

EARLY ISLAMIC TAPESTRY WEAVES FROM THE FAYYUM

The fame of Egypt for her textile weaving was legendary long before the rise of Islam. In the ancient world, Egyptian weaving was held to be the ideal of perfection. with the coming of Islam, the Arabs inherited the arts and industries of the Eastern Mediterranean, not least among them the textile industry of pre-Islamic Egypt. Weaving continued to be practiced in the Islamic world and particularly in Egypt did it reach a degree of magnificence and refinement that was unmatched in any other part of the Muslim world.

Among the factors that were to keep for Egypt her unparalleled position as the heart of the Islamic world were the traditional manufacture of the covers for the Holy Ka'aba, the shrine which the Arabs had sanctified even before the rise of Islam. Another factor was the traditional custom of the bestowing of ceremonial robes, familiar to all civilised nations and practiced long before Islamic times in Pharaonic Egypt as well as in Persia and Byzantium. The robes presented in these ceremonies had traditionally been woven in Egypt, and they continued to be so long after the coming of Islam. A further factor that should not be overlooked is the fondness of the Arabs for fine attire, and their inclination to dress themselves in fabrics as fine as could possibly be found. This is a factor of great importance for the continuation of Egypt as a center foı the production of all kindes of fabrics. Under Islam, certain kinds of textiles were produced in State-cotrolled factories known as tiraz, and they are particularly important because they are often dated

to the reign of the Caliph; thus they provide dated indications of the development of the Arabic script and the usage of certain techniques. The earlist tiraz factories appear to have been under the Ummayads, although there is some disagreement as to exactly when the first known tiraz factory was estabilished.

Many different kinds of textile were woven in Islamic Egypt, and the first part of this paper will be concerned with one of them, tapestry woven-textiles and graments. These were known from pre-Islamic times, especially from Coptic Egypt, and were made in many centers. In upper Egypt, textiles are known from Qais and Bahnasa, and also from Assiut, Ahnas; El Ashmounein, Akhmin, and Sheikh Abada (Antinoe). Important, also, are many of the village in the Fayyum. Some of these village have been known as textile centers and mentioned in the works of the Arab geogaphers and historian; others, as we shall see, can be distinguished on the basis of inecriptions on the textiles themselves.

In general, early Islamic tabestry-weaves from Egypt are made of wool or linen; very typical is a linen cloth with bands of tapestry-woven decoration in wool. Wool had not been widely used in Pharaonic times but it was to enjoy a popularity in the Ptolomaic period that continued into the Islamic period. It was used for relatively coarse fabrics as well as for the finest veil-like thin wools of which turbans were made. Linen textiles too range from coarse to thin and fine gauze. The dayes of tapestry-woven textiles were both vegetable and animal. The most important of the vegetable dyes were indigo (blue), ocher (greenish-yellow), turmeric and saffron (both yellow), while the principal animal dyes were cochineal and lac-dye both producing red colors.

The decoration of early Islamic tapestry-woven textiles include design based on the human figure, upon beasts and birds, and a wide

variety of floral and geometrical motifs. Many design elements are based upon much earlier motifs known from textile and other decorative objects from ancient, Pharaonic, Egypt as well as from Greco-Roman and Coptic times. In the past, art historians have considred these designs rather primitive and cartoom-like; but as you will see, they are designs of great sophistication and force and invention, designs of the highest artistic order that may also be seen as forerunners of many modern textile designs.

The decorative elements are usually arranged in bands that run parallel to another important decorative element on Islamic objects, inscriptions in Arabic. These inscriptions are intrinsically of great beauty, and they may also be used to study the development of the Arabic alphabet over a period of time. But they have perhaps a greater significance as a source of documentation, for they often include the date and sometimes the place in which a particular textile was woven. In certain cases they even mention the name of the person for whom the textile or the garment was made. A particularly Crucial piece in this regard is a finely woven fringed woolen turban in the collection of the Islamic Museum in Cairo. It bears an inscription with the date of 88 H., corresponding to the Christian years 70 - 6 - 707, and it mentions the name of the village of Senhur, in the Fayyum, as well as the name of a certain Samuel b. Musa. On stylistic grounds, this turban had formerly been considered later than the date actually written on it. Scholarly reconsideration, however, by Dr. Kuhnel and Dr. Marzouk hase made it clear that the written information on this turban should be taken at face value. Thus the textile and its inscription with date, place and partron, established that as early as the reign of the Umayyad Caliph. Al-Walid b. 'Abd al-Malik, textiles were being woven in the Fayyum district of Islamic Egypt.

هذه لسمويل موسى عملت فى شهر رجب القرة بسنهور بالفيوم سنة ثمـــان وثمـــانين •

Such textiles make it possible to identify large numbers of tapestry-woven fabrics as to their date, their place of manufacture, or both, and to further associate other textiles with dates or places on the basis of stylistic similarities, even when these are not dated or linked to a place of manufacture. A number of production centers in the Fayyum can now be identified with villages mentioned in the inscriptions on tapestry-woven textiles. such as Senhur, Mattaul, Sanouris and Karadesse. Pieces with these names can all be found in the collection of the Islamic Museum in Cairo.

The first example of such a textile mentions the village of Mattaul. The name is written in the Kufic inscription just below the band of camels against a red background. Here is the whole inscription.

مما عمل فى طراز الخاصة بمطول من قركورة الفيوم ٧٣ × ٧٢ سم•

In translation it reads :

It is remarkable that in such a small village, far away from the metropolatan centers of Egypt and very far from the capital of the Caliph in Damascus (or Baghdad, depending on how this piece will eventually be dated), textiles for the court or for attendants at the court should have been produced. It is important document for the continued importance of the Fayyum, and of Egypt. as a place of textile manufacture for the entire Muslim world.

This piece from Mattaul is also significance for the study of all early Islamic tapestry-woven textiles in Egypt, for two reasons. First, it is the only textile so far recorded that uses the pharase, كـــورة الفيـــوم

"the region of Fayyum," in its inscription. It was on the basis of this textile that many scholare were then able to attribute other pieces, similar in weaving and style of decoration or inscription to the same place, to ahe Fayyum, although they appear to have overlooked the fact that the name of the specific village is also named in the inscription.

That this village is named is the second important point about this textile. While it may seem a minor point, the identification other villages in the Fayyum will make it possible to distinguish the different styles of the various villages in this region, and eventually to devide the vast number of surviving early-Islamic textiles into groups that express a somewhat different artistic "personality."

Another village, Sanouris, is also documented by textile that is in the collection of the Islamic Museum in Cairo. The name of the village is included in the inscription that also includes part of a date written in Arabic letters, although that part of the textile is somewhat damaged. One can clearly read the date of "six" and «two hundred,» but the decade-word is not entirely clear. Most probably it should be read as "fifty," which makes the date of the textile 256 H., which corresponds to 869-870 A. D. Even if this date should not be altogether certain, we would still have in this piece a very important document for the type of textile produced in the Fayyum around the middle of the ninth century.

And it is on the basis of this ninth-century piece from Sanouris, and others with inscription containing names and dates, that the next piece may be attributed to the middle of the ninth century with greater accuracy than was ever possible before. This piece in neither dated nor does its inscription tell us the name of the village in which it was made, but its manner of decoration and the style of its inscription both correapond

so closely to the dated Sanouris piece that we may safely place it in the same period and suggest it as the product of the same workshop. This is one of the many examples in the collection of the Cairo Museum that now be attributed and dated on the basis of their stylistic similarities to textile like the Sanouris piece.

This third village in the Fayyum represented by documented pieces is Karadesse.

سعادة مما عمل فى كرداسة فى سنة خمس وتسعين ومائتين

29511. (A. D 907-908)

Here again we are fortunate to possess a piece whose inscription not only mention its place of manufacture but also the date The inscription reads

In translation it reads

The date is 295, the corresponding date in the Christian calendar 907-908

Another textile in the Islamic Museum in Cairo has only a Quranic inscription and no date or place of manufacture But stylistcally it is so closely related to the Karadesse piece that it must be attributed to the same place and period Close study of the two piece together, in fact, has made me suspect that they may have orignally been part of the very same cloth. Its dark-green background and the Quranic verse alluding to weighing of souls in the last judgement strongly suggest that this textile was a tomb cover. This would make it the oldest recorded tomb cover known in Islamic art.

شهد الله انه لا اله الا هو واولو العلم قائما بالقسط

The collection of the Islamic Museum in Cairo has a great many other piece of tapestry-woven textiles. Although many of them are not dated in their inscriptions, and the inscriptions do not mention the name of the village where they were made, many of piece may now be associated with centers in the Fayyum on the grounds of their stylistic similarity dated or localised pieces, especially on the basis of their styles of weaving the inscriptions.

For instance, we have seen earlier a piece from Mattaul. Here is another textile which is obviously related to it. Its designs of quadrupeds against a red ground, and the style of its calligraphy, with the hastae of the letter ending in what appear to be pyramids, like the stepped pyramid of Saqqara, are very like the Mattaul textile, and probably it was also made in that village.

Another piece with very similar writing surrounding a hexagonal medallion with a red background agginst which a bird appear can probably also be attributed to Mattaul again.

Similar figural design and a somewhat related style of writing also apper on yet another piece in Cairo that has neither date nor placename in its inscription. Certainly it is like the Mattaul piece but may represent the work of another atelier.

A somewhat different group of textiles is represented by two pieces in the Cairo Museum. They are very finely woven textiles, gauze-like, and reddish purple in color; they are decorated with bands of tapestry-woven material showing small hexagons and above that, an inscription with the same curious form, resembling the stepped pyramid of Saqqara that we have seen earlier. It may represent a somewhat later development of the Mattaul style because of the greater abstraction of the deco-

rative elements. The second piece of this group, however, has a simpler form of calligraphy that greatly recalls the very-early turban of 88 H, woven in Sanhur.

A third piece decorated with a wide band of fairly realistic birds and a beautifully moven inscription band displays the development of true Kufic writting. It is probably not from Mattaul but from some other center in the Fayyum that will probably be indentified and mor of the tapestry-wover textiles in the Islamic Museum in Cairo read and studied.

Mrs. Wafiyya Ezzy
(EX) Director of Islamic Museum

فهرس الموضوعـــــات

الصفحة	الموضـــــــوع

تقـــــــــديم

كان الاستاذ الدكتور احمد فكرى مثــلا اعلى للعالم الباحث ، والأستاذ الجامعى الأصيل ، فلى جانب بحوثه القيمة ودراساته المثمرة التى تجــاوزت شهرتها الآفاق ، ولاقت انتشارا واسع النطاق ، كان يحظى باسمى تقدير فى المحافل العلمية العالمية ، وكان اسمه يتردد بين المشتغلين بالآثار الاســلامية فى المشرق والمغـــرب على الســواء ، ثم انه كان مؤسسا لمدرسة الاثريين الاسلاميين فى مصر والعالم العربى ، واليه يرجع الفضل فى تكوين اجيال من الباحثين فى التاريخ والحضارة الاسلامية ، انتهجوا نهجــه ، وواصــلوا مسيرته ٠ ومن هنا اتفق مريدوه وتلاميذه على اقامة هذه الندوة فى ذكـــراه العطرة وفاء لما قدمه لهم ولوطنهم وللانسانية جمعاء ٠ ولم يتردد هؤلاء وفى مقدمتهم أ٠د٠ سعد زغـــلول عبد الحمـــيد عميد كلية الآداب الســابق ، و أ٠د٠ مختار العبادى رئيس قسم التاريخ السابق ، و أ٠د٠ حسن امــين رئيس اتحاد المؤرخين العرب و أ٠د٠ جوزيف نسيم يوسف أستــاذ تاريخ العصــور الوسطى فى اعداد الندوة العلمية المخصصة لاحيــاء ذكرى عالمنــا الراحل والتى شاركت فى تنظيمها كل من جامعة الاسكندرية واتحاد المؤرخين العـــرب ، ودعى اليها عـــدد كبير من الباحثين المتخصصين فى الدراسات التاريخية والأثرية الاسلامية فى مصر والعالم العـــربى ٠

وهذا الكتاب الذى نقدمه للقارىء هـــو حصيلة البحوث التى القيت فى « ندوة الحضارة الاسلامية »٠ وكان المتفق عليه أن تتولى جامعة الاسكندرية طباعة هذه الابحاث على نفقتها الخاصة ، وبالفعل شرعت مطبعة الجامعة فى ذلك ، وتم طباعة بحثين منها ، الا أن طباعتهما استغرق مدة طويلة الأمــر

الذى دعـــانا الى سحب هـــذه الابحاث جميعـــا وطباعتها فى مؤسسة شباب الجامعة ، حتى تشهد النور فى وقت مناسب ..

رحم الله أستاذنا الدكتور احمد فكرى ، وطيب ثراه ، وجعل جنة الخـــلد مثـــــواه .

تلميـــذه

د. السيد عبد العزيز سالم

استاذ التاريخ الاســـلامى والحضارة

ورئيس قسم التاريخ والآثار